محمد بن تاويت

تاريخ سبتة

الشركة الجديدة
دار الثقافة
الدار البيضاء

تاريخ سبتة

منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر

تاريخ سبتة

تأليف
الأستاذ محمد بن تاويت

الشركة الجديدة
دار الثقافة
34·32 شارع فكتور هيكو
الهاتف 26·53·46 — 26.23.75
ص.ب. 4038 الدار البيضاء (المغرب)

الطبعة الأولى 1402هـ - 1982م
حقوق الطبع محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم

من بعيد

أتيح لي أن أزور مدينة سبتة في صباي وأثناء الحرب التي كان يخوضها الاسبان مع الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي رحمه الله

وفي تجوالي بشارعها الرئيسي وقفت عند باب المستشفَى العسكري الذي كان يستقبل جرحَى الإسبان الذين أصيبوا في الحرب الجهادية من قبل الأرياف وأهل الجبال وكانت شوارع سبتة آنذاك تعج بالمعطوبين من اللفيف الأجنبي Tercio وغيرهم من الجنود

وقد رفع على باب المستشفَى العسكري تمثالان ضخمان من الرخام أحدهما كان للمولَى اليزيد والآخر كان لمَدْفعيّه أقامهما الاسبان تذكيرا لهم بخطر المغاربة المحدق بهم وهم قد اغتصبوا بلادهم وثبتوا أقدامهم في هذه المدينة الفاضلة وقد ظل هذان التمثالان مقامين على المستشفَى المذكور ولم يرفعا عنه إلا أثناء الحكم الفرنكي الذي —كما يبدو— لم يرد أن يعيد إلى الأذهان قضية كفاح المغاربة لاسترداد مدينتهم السليبة والغالب أنه لم يرد أن يفتح لها بابا للنقاش في كونها مدينة إسبانية صميمة لا علاقة لها بالمغرب والمغاربة إلا علاقة الجغرافية والتاريخ[1] ولهذا فقد أصبح الإسبان من ذوي النفوذ والاعتبار الرسمي فيها إذا ما قيل لهم إننا نريد أن نذهب إلى اسبانيا مثلا قالوا إنك باسبانيا هنا بل قل نريد أن نذهب إلى شبه الجزيرة

(1) غادرت المغرب سنة 1938 وهذان التمثالان كانا ما يزالان مقامين بمكانهما ولما عدت إليه 1949 وجدت المستشفَى نفسه قد اختفَى من مكانه ولعله كان حيث النادي الحربي ودار السينما بالشارع الملكي الرئيسي وقد سألت بعض الاسبان عن التمثالين فأحالني على البلدية بها فلم أتوجه لذلك.

وعلى كل حال فإن المولى اليزيد هو الملك الوحيد، الذي تصدّى بنفسه لاسترجاع سبتة فكان بطل الجهاد فيها كما علمنا التاريخ المغربي بعد[1] وفي تلك الزيارة الأولَى لسبته كان اسمه لأول مرة يطرق مسمعي كما كان اسم أبيه كذلك

فالمغرب لم يكن له تاريخ يروج حديثه بين الناس والكتاب الوحيد الذي كان عند خواص الخواص هو كتاب «الاستقصا» الذي اختصره الفقيه أحمد الرهوني رحمه الله، كما اختصر كتاب نفح الطيب وكلاهما كان عند زمرة قليلة من الناس الذين كان جل مثقفيهم يقتصر على علوم الآلة وفي مقدمتها النحو وعلى علوم الدين وفي مقدمتها الفقه

نعم لم يكن التاريخ يدرس ولم يدرس تاريخ المغرب وكتاب الاستقصا خاصة إلا لما أقر النظام بجامع القرويين، وأسند كتاب الاستقصا إلى الفقيه الشامي ليدرسه للقسم النهائي الأدبي

فما كان يحضر درسه إلا طالب أو طالبان أما الابتدائية والثانوية ففيهما كان يدرس تاريخ الإسلام والسيرة دون تاريخ المغرب[2]

وفي مرحلة دراستي بالثانوية سلمني زميل لي من قبيلة أنجرة مخطوطا

---

(1) بعدما كان المولَى محمد بن عبد الله أبوه قد ساورته نفسه لاستخلاصها لكنه لما زار تطوان وتوجه إلى حدودها أدرك أنه من المستحيل عليه استخلاصها ولهذا توجه بهمته إلى استخلاص مليلية فشدد عليها الحصار الذي كادت المدينة أن تتخلص به غير أن اسبانيا احتجت بكون معاهدة سلام كانت قد عقدت بيها وبين المغرب واستنظرت بنصوصها المبرمة بوساطة السفير ابن عثمان فأقلع عن الحصار وعزل الوزير الذي كان قد أبرم المعاهدة الناصة على المسالمة بحرا وبرا

(2) بل إن التاريخ عامة لم ندرسه كعلم له قواعده إلا حينما توجهنا إلى مصر. فدرسنا على أساتيذ ممتازين فيه بجامعة فؤاد وكان لأربعة منهم الفضل العظيم علينا وهم الدكتور محمد زيادة والدكتور حسن ابراهيم حسن والأستاذ محمد شفيق غربال والأستاذ عبد الحميد العبادي رحمهم الله جميعا وفي أيامنا سمعت من أستاذ محاضرة أنه قال إننا — أساتذة العربية — نستطيع تدريس التاريخ أما أساتذة التاريخ فلا يستطيعون تدريس العربية. كأنه يفهم من التاريخ مجرد «الأخبار».

في تاريخ سبتة قراته وعلق بذهني منه ما كان بسبتة من كثرة الحمامات والفنادق ونحوها مما استغربته كائنا في سبتة الاسلامية

وانقطعت بعدئذ صلتي بسبتة عامة طيلة سنين كثيرة قضيتها بمصر متعلما ومعلما ولما عدت منها وجدتني أبحث عن المخطوط بدافع من نفسي لا أستطيع تحليله بالضبط اللهم الا أن يكون الشعور الذي يشعر به كل مغربي منذ ستة قرون تجاه هذه المدينة السبية شعور الحسرة والألم والخزي والتحفز لاسترجاع ما ضيعه الأجداد أو اغتصب منهم ظلما وعدوانا وبخيانة دنيئة

ومهما يكن فقد وقع المخطوط بيدي من صاحبه فنشرته سنة ثمان وخمسين بعدما قابلته على مطبوعتين له إحداهما للمستشرق « ليفي بروفنسال والثانية للمرحوم عبد السلام بنونة كما قال لي المرحوم سيدي التهامي الوزاني

وغادرت المغرب في هذه السنة إلى لندن حيث قمت بدراسة تاريخية بجامعتها تحت اشراف البروفيسور « برنرد لويس ومساعده الدكتور « هوط كان موضوعها « العلاقات التاريخية بين المغرب وانجلترا » وكانت سبتة تبدو فيها أحيانا

وما عدت إلى المغرب في أواخر سنة تسع وخمسين ، حتّى سلمني أحد الأصدقاء وهو سيدي محمد المنوني مجموعة أوراق خطية ، قال لي انها في تاريخ سبتة وبعد الاطلاع عليها وجدت الكراسة الأولَى لا تمت إلى سبتة واتضح لي بعد وقفة طويلة أنها من كتاب « السلسل العذب للحضرمي

أما باقي الأوراق فهي لكتاب « بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب » للحضرمي كذلك فنشرت الكتاب بعدما قارنت مخطوطته هذه بمخطوطة أخرَى كانت في ملك باشا تطوان الأسبق المرحوم اليزيد بن صالح ضمن

مجموع يضمها والجزء الأول من ترتيب « ديوان الحماسة »، لابن زاكور الفاسي

والذي هدانا إلى عنوان الكتاب ما هو مثبت آخر المخطوطة حيث ذكر أنه وجد بالأصل المقيد بهذه الورقات ما نصه

كمل المختصر الموسوم ببلغة الأمنية في يوم الخميس الحادي والعشرين لشعبان المكرم من عام أربعة وعشرين وثمان مائة والحمد لله حق حمده وصلّى الله على سيدنا محمد ورسوله وعبده وعلى آله المومنين بعدهما وجد كما وجد وما هو منقول عنه بنصه في بعض التراجم

وتراجم الكتاب كما هو مذكور بهاية المخطوطة سبعة وأربعون رجلا وامرأة واحدة فكان الكتاب بها تاما غير منقوص فيما نشرناه وما قيل من أننا نشرنا نتفا منه فغير صحيح[1]

والكتابان يسند أحدهما الآخر فالأول في سبتة وخططها وآثارها والثاني في رجالها بالعصر المريني خاصة ثم إن رغبتي في تناولها بدأت تساورني منذ بضع وعشرين سنة تناولا يتصل بتاريخها السياسي والعلمي والحضاري عند التفتح الإسلامي عليها ولكن هذه الرغبة بقيت أمنية نرجو أن نكون قد قاربنا تحقيقها

وبهذا العمل المتواضع نكون قد وضعنا لبنة في هذا البناء الشامخ الذي نرجو أن تتضافر عليه الجهود من دارسينا ومؤرخينا

---

(1) بل إن التراجم التي نشرناها لم تسقط منها أية ترجمة فهي كاملة تامة إن عَدَدْنا ابن مدعينة وابن النمكي وأبن قاسم النحوي وابن نبيل الحساني ضمن تلك التراجم

« تمهيد »

وبعد فإن مدينة سبتة بقدر ما عرفت من أبنائها في الاسلام مبرة وعناية وشفوفا وازدهارا في شتّى المجالات كان القاضي عياض في مقدمتهم والأنصاري والحضرمي في مؤخرتهم عرفت في عهدها المسيحي الغاشم الذي امتد ستة قرون — تكاد تعادل الاسلامي نكرانا وهضما لحقوقها واظلاما مطبقا لاشعاعها ولا نقول عرفت من هؤلاء عقوقا فإنهم ليسوا أبناءها حتّى يتصفوا بهذه الصفة المنكرة وإنما هم غاصبون متسلطون وقراصنة متمردون هبت بهم عاصفة الأطماع والعدوان والحقد على حقيقة الاسلام

نعم إنه عهد مظلم في كل جوانبه بقدر ما كان مشرقا في كل نواحيه لا ندري له كنها ولا ندرك لوجوده علة وقد اتصلنا ببحاث البرتغال والاسبان في هذا الشأن نستشف منهم ما هيته فكلهم هزوا أكتافهم في استخفاف أو استخذاء وكلهم وضع صورته في إطار الجهل الشنيع الفاضح لهذه الحقيقة المخزية[1] وربما تلمس بعضهم

---

(1) في المكتبة العامة بتطوان توجد بعض الكتب الاسبانية التي تعرضت لها تبعا غالبا أو لجانب منها خاص كما يوجد كتاب ألف على أيام الغزو البرتغالي . باللغة البرتغالية هو

Cronica de la tomada de Ceuta

ومن تلك الكتب الاسبانية ما يلي

Abyla Herculana
Africa Portuguesa
Historia Portugal
Espania y los paises Musulmanes
Cronica del rey don Juan II
Relaciones de Africa, Ceuta y Melilla
Guerra de Ceuta
Elementos para Historia de Ceuta
Hestoria de la Plaza de Ceuta
Los Veedores de Ceuta

اعتذارا عن ذلك بكون سبتة منذ أن وقعت تحت وطأة الغزاة النصارَى اتخذت منفًى للمجرمين المبعدين لهذا لم تظهر فيها بادرة من بوادر الثقافة عامة ولا اعتني قط بتاريخها وتسجيل وقائعها ومن ثم وجدنا هؤلاء الذين يسكنونها أحفادا لأولئك المجرمين تغلب عليهم العنجهية والوقاحة بخلاف أولئك الطارئين عليها حديثا وبعد أن أصبحت تدعَى عندهم في النشرات السياحية « جوهرة الأبيض المتوسط

ومهما يكن فهذه محاولة منا لالقاء بعض الأضواء على تاريخ هذه المدينة المغربية الأسيرة تاريخا يضم ما عرفناه عنها حتَّى الآن سواء في ذلك الجانب السياسي والجانب الثقافي على أوسع نطاق في مدلوله

وقد جعلنا هذه الدراسة في هذا النطاق

مقدمة تتناول ما قبل الفتح الإسلامي تتلوها أبواب ستة

الباب الأول سبتة منذ الفتح الاسلامي إلى العهد الحمودي وفيه فصلان ما قبل امتداد سلطان الأمويين بالأندلس إليها وما بعد ذلك إلى سقوطه بها

الباب الثاني العهد الحمودي وفيه فصلان العهد الذي كان الحموديون يحكمونها بأنفسهم والعهد الذي وكلوا أمرها إلى مواليهم

الباب الثالث العهد المرابطي وفيه فصلان الفصل الأول عهد يوسف بن تاشفين والفصل الثاني عهد ابنه علي إلى ابتداء الحكم الموحدي

الباب الرابع العهد الموحدي وفيه فصلان العهد الأول الذي ينتهي بالخلفاء الأربعة الأول ثم العهد الثاني الذي تعرضت فيه سبتة للزعازع والانفصال أحيانا والارتباط الصوري أحيانا أخرَى

الباب الخامس سبتة المستقلة ، وفيه فصلان ، الأول ما قبل العزفيين ، والثاني عهد العزفيين .

الباب السادس العصر المريني وفي فصلان الأول حكم المرينيين المستقر بها والثاني بعد ذلك إلى سقوطها

الباب السابع عهد الاحتلال البغيض وفيه فصلان الأول الاحتلال البرتغالي والثاني الاحتلال الاسباني

وأخيرا نذيل الكتاب ببعض الوثائق المتعلقة بالباب الأخير، انجليزية واسبانية تعقبها خريطتان تبينان المعالم القديمة للمدينة الاسلامية وموقعها مرفقين ذلك بصورة فتوغرافية تمثل بقايا سورها المغربي الذي اختفَى الآن وطمست معالمه قصدا بالبنايات التي استحدثت إلى جواره حيث المكان الذي كان يدعَى وادي فاس el valle de Fes

*

مقدمة

على أوائل القرن السادس للميلاد كان جستين الأول يجلس على عرش الدولة البيزنطية بعد الامبراطور انسطاسي[1] وقد كان هذا الامبراطور البلقاني المولد والنشأة الريفي الأصل عارفا باللاتينية التي كانت لغة التخاطب باقليمه لا يحسن فيما عداها إلا ممارسة الحرب فكان جنديا من الدرجة الأولَى ولم يكن له عقب لهذا اعتنَى بابن أخته فعهد بتربيته تربية تؤهله لوراثة الامبراطورية منه وهو جستنيان الأول الذي خلفه على العرش بعدما قضَى جالسا عليه عشر سنوات فآلى هذا على نفسه أن يعيد مجد الامبراطورية الرومانية ورأى من الحكمة أن يعاهد الفرس معاهدة السلام ليتفرغ إلى ما كان يحلم به وقال كلمته « إن الله هيأ لنا أن نعاهد الفرس على الصلح وأن نخضع الوندال والايماني والمغاربة وأن نسترد جميع ايطاليا وصقلية ، وليس لنا إلا أن نستعين بالله ليهبنا بقية الامبراطورية التي مدها الرومان في سالف العصور إلى أطراف البحار ، ولم يذهبها عهم سوَى البلادة والخمول »

أجل كانت هذه الانتفاضة انتفاضة المنازع التي يعقبها السكون في تلك الدولة التي مزقتها هجمات البرابرة كما تسمَّى من هون ووندال وقوط وجرمان

وقيض لجستنيان قائد عظيم كان نفسه انتفاضة أخرَى ، بالنسبة للدولة وبالنسبة إليه هو ، فقد كتبت له الانتصارات الباهرة في مواقفه الموفقة التي استطاع بها أن يستولي على بلاد شاسعة من أوربا وعلى رأسها ايطاليا كما استولَى على بلاد من شمال افريقيا ولكنه في الأخير ،

---

(1) تاريخ أوربا في العصور الوسطَى هـ . ل فشر

وجدناه يستجدي ويعلن عن نفسه في استجدائه « أنا القائد المظفر » « بيلزايوس »

لقد انتهت جيوش الامبراطور جستنيان إلى المغرب ولكن الذي نال الرعاية الخاصة والاهتمام من الامبراطور إنما هو مدينتنا « سبتة » التي حصنها سنة خمس وثلاثين وخمس مائة(1)

ومنذ ذلك التاريخ وولاة من الدولة البيزنطية يقومون على حكمها إلى أن كان آخرهم يليان الكونت أواسط القرن السابع

وقد اختلف المؤرخون في جنسيته فبعضهم يكتفي بذكره علجا وآخر يذكره روميا وغيرهم يجعله قوطيا ولكن المشهور أنه كان مغربيا صميما مصموديا من قبيلة غمارة التي استمرت صاحبة هذه الجهات حتّى في العصر الاسلامي فنسب إلى مصمودة « القصر الصغير » كما كان منها برغواطة الخطيرة

ويرَى آخرون أن يليان شخصية خيالية خلقتها أسطورة عربية فهذا بعيد جدا كما أنه بعيد ما ذكره آخرون من كونه فارسيا وهو ما ذهب إليه Saavedra مدعيا أنه كان من الفرس وكان « سفدرا مستأنسا في فارسيته بأن ولدا خلفه يحمل اسم « بلكايش » وهو كما قال اسم من أسماء الفرس وزاد عليه فجعله من مدينة كونيسابور كبرَى المدائن بالجهات الواقعة بين تكريت وأربل من العراق الآن

وكانت الجزيرة الايبيرية آنذاك قد حمي وطيسها واستولت الفتن والفوضَى على ملوكها فهذا « وتيزا » Watiza المعروف عند العرب بغطيشة يطيح بعرشه « رودريكو » أو لذريق الذي ثار عليه وقتله ثم جلس على عرشه فتعرض يليان لخطره إذ كان حليفا لوتيزا القتيل على عرشه ويقال إنه كان قد انغمس في هذه الفتنة التي قامت بالأندلس ، وحاول أن يلعب رجاله دورهم فيها حيث وجه بهم إلى مناصرة حليفه ولكن

---

(1) كتاب Morocco لمؤلفه Nevill Barbour

رجال لذريق كانوا أقوى شكيمة فأنزلوا برجاله الهزيمة وعادوا إلى سبتة يجرون وراءهم جرير الخيبة والغلبة عليهم

ومما يجب التنبيه عليه ان اسم غطيشة لم يحرفه العرب كما قال بعض المعاصرين وذكره بعضهم باسم « وتيزا بل ان العرب حافظوا عليه إذ الاسم كما يبدو جرماني وحرف W كان ينطق G آنذاك بدليل الكلمة الجرمانية Werra المعروفة في الاسبانية Guerra وفي الفرنسية Gerre وتحولها إلى War في الانجليزية انما أتى من القانون العام الذي جرَى على نطق حرف W واوا في هذه اللغة ثم ان حرف Z ما زال ينطق في الجرمانية طاء ساكنة بعدها سين . كما في Zeit Zimmer فلا ينطق زايا حتَّى نجعل الاسم « وتيزا أما نطق السين شينا فهو ما كان آنذاك نجده في مثل اشبيلية وشنتمرية وشنترين وشنتيقوب واشبونة وبرشلونة وغيرها كثير ما زال له ظل في البرتغالية حتَّى الآن

نعود إلى يليان فنجده أمير اقليم « موريطانيا الطنجية Mauretania Tingtana فكان يليان عليها حاكما عاما «(Exarcus)» وقد حكم يليان هذا الاقليم زمنا طويلا آنس فيه من نفسه الاستقلال شأن الأمراء البربر بهذه البلاد وفي الأخير نجده وهو يستقل بهذه الامارة عن الدولة البيزنطية الخائرة القوة البعيدة الجغرافية يمكن لنفسه ويدعم قواعد استقلاله

ولم يكن له بد من توثيق علاقته بجيرانه فكان مهم فيما وراء البحار أولئك القوط الذين كانوا يحكمون الجزيرة الايبيرية وكانوا كذلك تطوح بهم الأحزاب وتنخر في هيكلهم النزعات والحزازات فكان يليان يستغل هذا النزاع الحزبي لصالح امارته المستقلة ولم يكن في الواقع تابعا لمملكة القوط في شبه الجزيرة تماما بل كان مستقلا بهذه الامارة يحسن علاقاته مع جيرانه سواء مهم البربر المتاخمين له برا والقوط المقابلين له بحرا[١]

---

(1) فجر الأندلس للدكتور حسين مونس

الباب الأول

الفتح الإسلامي لسبتة

وفيه فصلان الأول قبل امتداد سلطان أموي الأندلس إليها

في عام تسعة وثمانين من الهجرة كان الاتصال بين المسلمين ويليان باقليم طنجة وان كان ابن الأثير يذكر أن اللقاء كان من قبل هذا التاريخ وأن يليان نزل على حكم عقبة بن نافع عام ثلاثة وستين. موافقا سنة ثلاث وثمانين وست مائة للميلاد وكانت أنظار المسلمين قد اتجهت إلى سبتة

ومن المحقق الذي لا يشك فيه التاريخ أن طارقا البربري النفزي حاول الاستيلاء على سبتة بعد طنجة ولما امتنعت عليه ارتأى مراودة زميله البربري بطريقة مقبولة للطرفين معقولة لهما، تقوم على التخلص من وطأة الروم وأذنابهم البغضاء ودرء خطر بقاياهم بالجزيرة

ومهما يكن فهذه الجزيرة تلوح إلى المسلمين. وهم بالزقاق تتراءى لهم وتداعبهم وهم بطنجة كل صباح ومساء فهل من المعقول التوجه إليها قبل أن يصفى الحساب تماما؟

كلا ليس هذا لو كان من الرشاد ومن أجل ذلك كان التغلب أو التفاهم واجبا مع يليان الذي كان يوجس خيفة من لذريق ومن هذا المنطق السليم وان كان على صورة تخالف في التفصيل وتوافق في المبدأ نجد أن يليان أشار على المسلمين بتصفية الجيوب المحاربة قبل التوجه إلى البلاد الأندلسية فيقال: انه قال، لموسى أو طارق، كيف تعبر

البحر إلى الأندلس وتترك وراءك الكفار هكذا ؟[1] وكلمة الكفار هنا تعني أنه كان قد أسلم

وكما سلف في المقدمة فقد واجه يليان خطر لذريق المحدق وكان لابد له أن يلتمس نصيرا من هؤلاء المظفرين الجدد الذين يجاورونه ويطوقونه من جانب البر والذين هم في عقليتهم وبساطتهم وجنسهم، أقرب إليه أو أخف ضررا عليه وفيهم هذا القائد البربري طارق الذي كان جيشه نفسه بربرا على الحقيقة ولم يكن فيه من العرب إلا القراء الذين يقومون بتلقين الجيش مبادئ الدين الحنيف ، وبعض القواد الثانويين ، فكان الاتفاق بين القائدين البربريين وكيدا زاده ذلك ما يقال من أن أبناء « غطيشة نفسه هرعوا أو بعضهم إلى أصحاب العدوة المقابلة المغرب

هذه الظروف وهذه الاتجاهات هي التي جمعت بين الأميرين وكان لها ما كان فيما بعد من الامتداد عبر الجزيرة « الايبيرية » نفسها أما قضية ابنته « فلورندا — كما تسميها المصادر الأجنبية — وهتك العرض بها[2] فذاك ان كان ثانوي بالنسبة إلى هذه الأهداف التي لا تغضي عنها السياسة ولو أغضت على غيرها ولا يلتفت إلى ما ورد في تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية وهو أن « يليان » كان تاجرا من تجار العجم يختلف من الأندلس إلى بلاد البربر ويجلب إلى « لوذريق » عتاق الخيل والبزاة من ذلك الجانب فتوفيت زوجة التاجر وتركت له ابنة جميلة ثم أمره « لوذريق » بالتوجه إلى العدوة فاعتذر له بوفاة زوجته وأنه ليس له أحد يترك ابنته معه فأمر لوذريق بادخالها القصر فوقعت عينه عليها فاستحسنها وهم بها فنالها فأعلمت أباها بذلك عند قدومه فقال للوذريق إني تركت خيلا وبزاة بالعدوة لم تر مثلها فأذن

---

(1) المصدر السالف

(2) ينبزها الاسبان بكلمة Cahva العربية الأصل ، كعادتهم من التعصب . وتشويه الحقائق التاريخية والا فان «لدريق» كان أحق بهذا الاسم العاهر أو ما يناظره من الحقر والدناءة.

له في التوجه فيها فلم يكن منه إلا أن قصد طارق بن زياد فرغبه في الأندلس انتقاما منه

إلى آخر ما في القصة من بساطة وسذاجة وفجوات تجعلنا نتساءل أين وضع ابنته هذه المرة وهل اصطحبها معه وكيف تأتّى له ذلك وسمح به « لوذريق » ؟ أسئلة يسلم بعضها إلى بعض ولا نرَى لأصلها حيزا من الصحة معقولا

وعلى كل فلم يتحقق منه التاريخ عندنا وهو لا يعنينا هنا بقدر ما يعنينا ان مشاكل كانت تفرض عليه سلوكا ونصحا وان هذا ولاشك منطق سليم ولكن يليان نفسه لا يؤمن عليه أن يطعن من الخلف ولو جوزف بالجيش مجازفة لم ينج من العقاب عليها حتّى طارق لهذا فقد أخذ بالحيطة واستعمل كل الدهاء والحنكة العسكرية وكتب له الظفر المطلق والنصر المبين

قالوا ان موسى حاول اقتحام القلعة السبتية لأول مرة[1] ولكنه الفَى عند صاحبها « يليان » « عدة وقوة ونجدة ليست تشبه ما قبلها فلم يطقهم فرجع عنهم إلى طنجة وجعل يجتث ما حولهم بالمغاورة فلم يطقهم وهذا نص عتيق نشر ضمن ما نشر تحت عنوان « أخبار مجموعة بمدريد والمهم أن وفاقا تم بين يليان وبين المسلمين ، الذين فتحوا طنجة أو تنازل يليان لهم عليها وأنهم أقروه على حكم سبتة على جزية يؤديها أو غيرها وأنه ساعدهم على فتح الأندلس بأجفانه ورجاله كما يقال وبنفسه كما في بعض الأخبار فبقي أمير بلدته واقليمها إلى أن هلك تاركا من أبنائه « بلكايش » الذي أسلم وحسن اسلامه ولكنه لم يخلف أباه في الحكم بل صار حكم المدينة إلى الفاتحين مباشرة ويبدو

(1) «سار موسى يريد مداين على شط البحر فيها عمال صاحب الأندلس قد غلبوا عليها وعلى ما حولها وكان رأس تلك المداين مدينة يقال لها سبتة وكان عليها وعلى ما حولها من المداين علج يسمَّى يليان فقاتله موسى بن نصير فالفَى عنده عدة وقوة ونجدة ليست تشبه ما قبلها» أخبار مجموعة

أنه توجه إلى الأندلس أو توجهت ذريته التي كان أولها عبد الله ثم الحكم فسليمان فأيوب ثم سليمان آخر فأحمد توفي سنة 388هـ وقد اشتهر الثلاثة الأخيرون بالعلم في الأندلس بالعهد الأموي كما في كتب التراجم

لقد ظل ساحل الزقاق الممتد من سبتة فجبل موسى فقصر مصمودة فطنجة ساحلا استراتيجيا قبل كل شيء ، ولم تفتر أهميته بالنسبة للعرب إلا حينما استقر أولاد موسى وطارق بالأندلس ، بعدما غادراها معا إلى افريقية مدعوين منها إلى العاصمة دمشق بدون رجعة بعد ذلك حصلت الاضطرابات الخارجية في الشمال الافريقي عامة وحصل الانقلاب في الأندلس بقتل ابن موسى الأمير عبد العزيز على يد عبد الرحمن بن حبيب ويهمنا المغرب الذي كان فيه ميسرة الخفير يوالي الضربات على العرب ويحاول أن يجتث شأفتهم وقائدهم كلثوم بن عياض يتعثر في هزماته المتلاحقة ويصاب في المواقع كما يصاب حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة والد عبد الرحمن ويلجأ كلثوم مع ابن أخيه بلج بن بشر وجيشه الشامي وفيه عبد الرحمن بن حبيب إلى سبتة ويتحصن فيها ولكن رجال ميسرة يتتبعونهم ويشددون عليهم الحصار بسبتة وتشتد بهم المجاعة فيتوسلون إلى اخوانهم بالأندلس حيث كان صاحبها عبد الملك بن قطن الفهري فيتقاعس هذا عن اغاثتهم ويخف بعض رجاله ببعث سفينتين تحملان إليهم مؤونة فيقتله عقابا له وانتقاما من الشاميين

ويموت القائد كلثوم بن عياض محصورا بسبتة (كما يقول ابن حيان وغيره يقول إنه قتل في المعركة) ويتولّى الرئاسة ابن أخيه بلج ويسمع البربر بقيام اخوانهم في المغرب وانتصارهم فيثورون على رؤساء العرب بالأندلس ويكادون يوقعون بهم ما وقع بالمغرب لاخوانهم لولا استنصار هؤلاء بالمحصورين في سبتة الذين انتهزوا هذه الفرصة الذهبية وطاروا إليهم في السفن التي وافتهم من الأندلس فاعصوصبوا وقاتلوا قتالا

مستميتا انتصروا في آخره وطاب لهم المقام فأقاموا بالأندلس واثّاقلوا لما طلب منهم « بلج العودة إلى العدوة كما كان الاتفاق معهم ولم يكتفوا بهذا بل قتلوا ابن قطن انتقاما لما سلف منه في حقهم حينما حوصروا وانقطعت ميرتهم حتّى أكلوا الجيف كما قالوا ثم تقلدوا حكم الأندلس وعادت العصبية وذكرَى الأيام الغابرة تشغلهم بحرب بعضهم بعضا في هذه الظروف نجد سبتة تنزوي وقد تقلص عنها ظل الاستقرار والحكم العربي والبربري معا ولا يسمع لها صوت إلا حينما تولتها عائلة غمارية هي عائلة بني عصام كما سنرَى

لقد صار مركز الثقل يتوجه ناحية الشرق المغربي يحيط به النفزيون بصفة خاصة وهذا ما جعلنا نفهم كون عبد الرحمن الداخل لما لجأ إلى المغرب أقام عند اخواله النفزيين البربر بنواحي الريف ، حيث المزمة التي صار يتصل منها برؤساء الأندلس ثم ركب منها إلى المنكب شرقي مالقة فلم يقم بسبتة ولم يعبر منها

أما فيما بعد فيبدو أن سبتة انضوت تحت لواء الأدارسة الذين أسسوا دولتهم سنة توفي عبد الرحمن الداخل (فكانت هذه الدولة ثانية الدول التي نبذت حكم العباسيين) ذلك أننا نجد سبتة كانت من ضمن امارة القاسم بن ادريس حسب اشارة جدّته كنزة النفزية[1] كما في القرطاس واستنادا على بعض المصادر فالغالب أن بني عصام كانوا تابعين لهؤلاء الادارسة تبعية ما ولم يكونوا بذلك الاستقلال الذي كان لبني صالح أصحاب النكور بالريف ، ففي البيان المغرب ان بني عصام كانوا يؤدون الطاعة لبني ادريس وهو ما قاله البكري في بلدانه كما يوخذ هذا من أعمال الأعلام كذلك ، بل نجد فيما بعد أن إبراهيم بن القاسم الادريسي يمتد نفوذه حتّى الأندلس ، إذ كان يخطب له عمر بن حفصون الثائر على الأمويين في الأندلس مع آخرين كما ذكر ابن حزم في

(1) الغريب أن أم أبي جعفر المنصور نفزية وأم عبد الرحمن الداخل كذلك وسنرَى أن زوجة يوسف بن تاشفين كانت نفزية مما يدل على مكانة نفزة .

الجمهرة وهذا ما ينفي ادعاءات الأمويين فيه وفي جماعته[2] وعلى كل حال فهذا عصام يخلف أباه الرجل الصالح ماكس الغماري الذي عمر المدينة بعد خرابها وأشاع النظام بين سكانها المختلفين ويذكر البكري أن ماكس كان مشركا فأسلم وتولّى المدينة بعد عصام الذي كان له شأن أعظم من والده أولاده وأحفاده فكان مجير الذي خلفه أخوه أو ابنه الرضي على ولائه للأمير الادريسي إلى أن خرجت سبتة من يد أميره سنة تسع عشرة وثلاث مائة

الفصل الثاني سبتة تحت سلطان الأمويين

في هذا التاريخ نجد كما في الأعمال أن أبا العيش أحمد بن القاسم كان يخطب على منبره بدعوة عبد الرحمن الناصر في جميع عمله وكان في سبتة[1] على حين كان أولئك الفاطميون قد أخذوا بمخنقها[2] بعدما استولوا على امارة بني صالح وجل البلاد المغربية وعلى هذا فما كان من عبد الرحمن الناصر وقد أحدق به الخطر العبيدي إلا أن وجه إليها أسطوله العتيد فاحتلها ثم اختار أبو العيش الهجرة إلى الأندلس فالتحق بالناصر وجاهد النصارَى بالأندلس حتَّى استشهد بها وكان قدومه على الأندلس سنة ست وأربعين وثلاث مائة بعدما مضَى على خروج سبتة من يده سبع وعشرون سنة كما يستفاد من ابن الخطيب[3]

وكان السبتيون لما حلت الأساطيل بسبتة قد بادروا فورا إلى الطاعة والانقياد لأموي الأندلس فقال أحد شعراء الناصر وهو عبيد الله بن يحيى بن ادريس الخالدي

---

(2) وفي المقتبس لابن حيان نجد ما يفيد أنه كان يخطب على منابر الجمع بأصحابه وباقي المصلين في امارته

(1) وأصيلا وطنجة والبصرة . ومدينة أخرَى يذكرها ابن الخطيب بمدينة بني داود

(2) كما في تاريخ ابن خلدون وغيره

(3) في أعمال الأعلام المذكور وفي جغرافية البكري أن تاريخ الدخول كان سنة 332 .

بسيفك دانت عنوة وأقرت
بصائر كانت برهة قد تولت
وما قربت أهواؤها إذ تقربت
ولا حليت بالزي يوم تحلت
ولكن أزالت راسيات عقودها
عزائم لو ترمى بها العصم زلت
ودولـة مـنصور اللواء مؤيد
ادال بحمد الله من شر دولة
فهذا أوان النصر منها وهذه
بشـائـره تـروي الأنام بسبتة

فهذه اللهجة تفيد أن سبتة كانت خطرا على الأمويين . اما لكون بني عصام وضعوا أيديهم بيد العبيديين ، كما هو المتبادر منها واما لأن العبيديين كانوا على وشك احتلالها وهذا ما عرفوا به في النكور وفي تاهرت وغيرهما حيث لم تكن لهم هوادة مع القائمين على حكم الجهات وفعلا فقد استطاع العبيديون سنة 324 أن يستهووا نواحي سبتة وطنجة فانتقضت على الناصر ووجه إليها أسطوله بقيادة ابن أبي حمامة لاخضاعها فلم يكن منهم إلا الخضوع والاستسلام على مضض وقد وجدنا ابن هانئ يشير إلى هذا الصراع الأموي العبيدي في غير ما قصيدة له (1)

---

(1) مثلا نجده يخاطب المعز بقوله

لقيت بني مروان جانب ثغرهم وحظهم من ذاك خسر وتتبيب
وعار بقوم أن أعدوا سواحلا صفونا بها عن نصرة الدين تنكيب
وقد عجزوا في ثغرهم عن عدوهم بحيث تجول المقـربـات اليـعابيب

والغالب أن المراد بالثغر هنا الأندلس نفسها ويقول في قصيدة أخرَى يقال إنها كانت أول قصائده فيه

وأمية تُحفي السؤال وما لمن أودى به الطوفان يذكر نوحا

ويقول في أخرَى عنه :

وضجت له الأصنام ان ضجيجها   صدًى من بني مروان حران يصرخ

ويقول في أخرَى يمدحه كذلك

خابت أمية منه بالذي طلبت
كما يخيب برأس الأقرع المشط
وحاولوا من حضيض الأرض إذ غضبوا
كواكبا عن مرامي شأوها شحطوا

ويقول في أخرَى منه

ومستكبر لم يشعر الذل نفسه   أبى بأبكار المهول فاتك
ولو علقته من أمية أحبل   لجب سنام من بني الشعر تامك

ويقول من أخرى فيه

قد جدت حتَّى أملتك امية   لو أن وترا لم يضع تاميلا
خلدتم في العبشمية لعنة   خلقت وما خلقوا لها تعجيلا

ويقول أيضا من أخرَى

فالفتح من أول النعمى به وله   عواقب في بني مروان عن عجل

ويقول في أخرَى

فلا حملت فرسان حرب جيادها   إذا لم تزرهم من كميت وأدهم
ولا عذب الماء القراح لشارب   وفي الأرض مروانية غير أيم
وأولَى بلوم من أمية كلها   وان جل أمر من ملام ولوم

ويقول في أخرَى يخاطبه

لو يستطيع البحر لاستعدَى على   جدوَى يديك وانه لقمين
امدده أو فاصفح له عن نيله   فلقد تخوف أن يقال ضنين
وأْذن له يغرق أمية معلنا   ما كل مأذون له مأذون
واعذر أمية أن تغص بريقها   فالمهل ما سقيته والغسلين

ويقول مادحا القائد جعفرا

كتائب شلت فابذعرت أمية   فأوجهها للخزي أثفية سفع
وتلك بنو مروان نعلا ذليلة   لواطئ أقدام وانت لها شسع

ويقول مادحا ابنه ابراهيم

وبالمغرب الأقصى قريع كتائب   تخب بمسراه فيرجف مشرقه

وهكذا يطل علينا المغرب الأقصَى في مدح هذا القائد الأندلسي وكذلك يذكر المغرب في مدحه لعمه يحيَى بن علي في قوله

نحَى المغرب الأقصَى بسطوة بأسه   فغادره رهوا وقد كان مرتجا

ويقول في مدحه للقائد أبي الفرج الشيباني

من أصلح المغرب الأقصَى بلا أدب   غير التشيع والدين الحنيفي
لله ما تنتضي من ذي الفقار وما   تشد من عضد الرأي الأمامي

وفي هذا الصراع كان مجيء جوهر إلى المغرب بعدما انتهى إلى المعز أن قبائل زناتة والبربر رفضوا دعوته ودخلوا في دعوة بني أمية فجاء جوهر بجيش جرار من كتامة وصنهاجة وغيرهما فحصل اللقاء بينه وبين عامل طنجة من قبل الناصر ، وهو يعلى بن محمد اليفرني أمير زناتة فقتلته كتامة ولا شك أن جيوشا من سبتة قد شاركت في المعركة ففي البيان المغرب أن صاحب سبتة وجه كتابا إلى الناصر « يعرفه بما فتح عليه في عسكر جوهر » وكان ذلك سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة أي بعد هذه المعركة التي وقعت في تاهرت بسنة واحدة وكان الظفر فيها للقائد جوهر الذي توجه إلى سجلماسة فاقتحمها وفر عنها صاحبها محمد بن الفتح بن ميمون بن مدرار ، ثم قبض عليه وهو المقصود بابن واسول ثم عطف على فاس وقبض على أميرها من قبل الناصر وهو أحمد بن أبي بكر الزناتي واستمر مكتسحا لبلاد المغرب قاتلا لموالي المروانيين فقطع دابرهم وخطب للعبيديين على جميع منابر المغرب — كما يقول المؤرخون — وربما

= لم يجهلوا ما تلاقي في التشيع من ... تحريض شارية أو بأس شاري
وما تذلل من أهل العناد لهم ... وما تدارى من الدين الاباضي
كوفيت عن ذلك الثغر المخوف فقد ... تركته بالعوالي جد مكفي

في هذه الأبيات نجده يشير إلى الخارجية التي واجهها العبيديون . وكانت لها بقية في تاهرت باقليم وهران وسجلماسة بالجنوب عندنا

وفي مدحه لجوهر قائد المعز . يقول عنه مخاطبا

رمَى بك قارون المغارب عاتيا ... وفرعونها مستحييا ومذبحا
وأدركت سولا في ابن واسول عنوة ... وزحزحت منه يذبلا فتزحزحا
والا أَبِنْهُ في العصاة فإنني ... أرَى شاربا منه يميل مرنحا
رأى ابن أبي سفيان فيه رشاده ... وعفَى على اثر الفساد واصلحا
وفي آل موسى قد شنت وقائعا ... أهبت لهم تلك الزعازع لقحا
فلما رأوا أن لا مفر لهارب ... وأبدت له أم المنية مكلحا
وأكدى عليهم زاخر اليم معبرا ... وضاق عليهم جانب الأرض مسرحا
صفحت عن الجانين منا ورأفة ... وكنت حريا ان تمن وتصفحا

وموسى الوارد في الأبيات هو ابن أبي العافية الذي كان قد انحاز إلى الناصر وصار يكاتبه برسائل فائقة كما نجد في المقتبس الجزء الخامس .

صارت طنجة ضمن ذلك أما سبتة فلا ولما صارت إلى الحكم الأموي تمم بناء السور الذي أمر به والده سنة 346 فكان ذلك منه سنة 352 وبعد هذا التاريخ بسنتين كتب سجلا إلى أهلها رفع عنهم به جميع الوظائف المخزنية والمغارم السلطانية وفيه أن ما وقع عليها من المؤن السلطانية في التقسيط فهو مضروب على شرق اشبيلية » وبعد ذلك أجاز جيشه من الجزيرة الخضراء إلى سبتة وكان هذا الجواز بعد عشر سنوات من مغادرة جوهر المغرب فقاتل بأحواز طنجة الحسن بن كنون صاحب البصرة الذي كان قد بايع للعبيديين وخلع ربقة الأمويين لما كان جوهر بالمغرب ثم لما غادره عاد الحسن إلى التمسك بدعوة الناصر ثم ابنه الحكم خوفا من الأمويين لا حبا فيهم فلما قدم بليكين بن زيري الصهاجي الشيعي من افريقية لأخذ الثأر من زناتة التي قتلت أباه سنة 361 وحملت رأسه إلى المستنصر سارع الحسن إلى بيعته وصارت إليه طنجة من بليكين وقد قطع دابر المروانيين من جديد وأعاد الدعوة إلى العبيديين مرة أخرى فما أسرع ما كان المغرب يتحول بولاته من هؤلاء إلى أولئك لأنه ما كان يجد خيرا فيهما معا إذ كان يعنيه أن يتخلص منهما ويتمتع باستقلاله وسيادته كاملة كارها لغيرها منافقا له عن اضطرار منه ولما دارت الدائرة على الأندلسيين في هذه المعارك نجت فلولهم إلى سبتة فامتنعوا فيها

وفي الأبيات الواردة بالتعليق اشارة إلى فرار موسى بن أبي العافية وقومه وكان قد فر أمام القائد ميسور إلى الصحراء من العبيديين[1] وفي سنة 369 كان العزيز يوجه بليكين أيضا إلى المغرب لسحق الموالين للأمويين فانتصر عليهم وفروا مهزمين إلى سبتة واستغاثوا بالمنصور محمد بن أبي عامر المتولي مقاليد الحكم بالأندلس فأجاز إلى سبتة عسكلاجة وانضم إليه القائد المغراوي زيري بن عطية بن عبد الله بن حرز وكان العزيز قد بعث من مصر كذلك الحسن بن كنون فأدار المعركة بجيشه المتحمس

(1) انظر المقتبس الجزء الخامس

لكن المنصور أمد ابن عمه بولده عبد الملك فهزم الحسن ثم كان التاريخ يعيد نفسه ويحاول القائد البربري التخلص من هيمنة الدولة الأجنبية كما حاولها من قبل يليان البربري العظيم فما أسرع ما وجد منفذا للطعن في ابن أبي عامر وفي تلاعبه بالخليفة القاصر وقبضته الخانقة على صبح التي كان زيري بدأ يتدخل في شأنها فما كان من المنصور وقد طرد زيري عماله وألجأهم إلى سبتة إلا أن نفذ إليه مولاه واضحا الفتَى الذي انهزم أمام جيش زيري الزناتيين إلى طنجة وكانت قد عادت إليهم وكان قد عبر إليها فأمده المنصور بولده عبد الملك أيضا الذي أجاز من الجزيرة الخضراء إلى سبتة فكان له الظفر العظيم الذي لقب به بعد «المظفر». وكانت سبتة قد تعرضت للضياع فقد التاثت على ابن أبي عامر فوجه واضحا فتاه فسكن في جبل حبيب (ابن يوسف الفهري) ثم وجه ابنه عبد الملك إليها

أما ولاتها فوليها منذ الناصر فرج ابن غفير. ثم أحمد بن عبد الصمد الغرناطي ثم محمد بن حزب الله سنة 323 ثم محمد بن مسلمة 326 ثم ابن مقاتل الذي أسر بها سنة 332 من قبل بني محمد الأدارسة الثائرين على الناصر إلى أن لحقهم قاضيها محمد بن أبي عيسى سنة 333 فجنحوا إلى السلم على يديه وأطلقوا ابن مقاتل وكان من قضاة سبتة أيامه سليمان بن عبد الملك ين رباح وبعده سليمان بن عمر الخضراوي (1)

وفي هذا القرن بالذات ظهرت سبتة على مسرح العلم والمعرفة فقد آوت بعض المهاجرين إليها الناجين بأنفسهم من الفتن المبيرة والحروب التي

(1) ابتداء من انضواء سبتة تحت لواء الأمويين تبدأ سلطة القضاة عليها وكان ذلك تقليدا لما كان للقضاة من سلطان على الأندلس في عهد هؤلاء الأمويين واستمر ذلك في الأندلس وسبتة بعد سقوط دولتهم لدرجة أن نشأت إمارات لها خطرها في الأندلس على يد هؤلاء القضاة كبني جهور وبني عباد وغيرهم

كانت بين الموالين للعبيديين والامويين وغيرهم وكان من هؤلاء الخشني القيرواني ثم سكنها جد عياض وكان كما يصفه « رجلا خيرا صالحا من أهل القرآن حج إحدَى عشرة حجة وغزا مع ابن أبي عامر غزوات كثيرة وانتقل من فاس إلى مدينة سبتة بعد دخول بني عبيد المغرب وكان سبب ذلك أنه كان له ولأبيه نباهة بمدينة فاس فأخذ ابن أبي عامر رهنا من أعيان مدينة فاس فأخذ فيهم أخوي عمرون (المتحدث عنه) عيسى والقاسم فخرج عمرون إلى مدينة سبتة ليقرب من اخبارهما بمدينة قرطبة فاستحسن سكنَى مدينة سبتة وكان موسرا فاشترَى بها أرضا وهي المعروفة بالمنارة فبنَى في بعضها مسجدا وفي بعضها دارا حبسها على المسجد ولم يزل منقطعا في ذلك المسجد إلى أن مات سنة سبع وتسعين وثلاثمائة ». كما قصدها آخرون من البصرة والنكور وتاهرت حينما وقعت بأيدي العبيديين ، وكان الناصر مهتما بها ولهذا نجده في سنة 333 قدم عليه رسول الخير بن محمد بن خزر الزناتي ومعه رسول حميد الزناتي يعلمانه بدخولها المدينة

وكان قاضي سبتة يوم صارت إلى الناصر ، فاستولَى مها على أقاليم من المغرب ، حسين بن فتح الذي خلع عليه الناصر وعلى وجوه سبتة الذين جنحوا إلى طاعته ونقل ابن الفرضي عن أبي محمد الباجي أن سبتة أخذت على يديه ووصفه بأنه كان مؤدبا بالقرآن وكان له بصر بالغريب والنحو والشعر سمع من أبي جعفر البغدادي بعض كتب ابن قتيبة وحدث عنه أبو محمد المذكور وأحمد ابن عبادة الرعيني فهو أحد أعلام سبتة والمغرب في القرنين الثالث والرابع

ومن علمائها في هذا العصر عيسَى بن علا بن نذير بن أيمن سمع بقرطبة من أحمد بن خلد ومحمد بن عبد الملك وقاسم بن اصبغ وغيرهم وولِّي قضاء سبتة كذلك وكان فقيها عالما ومحدثا ضابطا كتب عنه وتوفي سنة ست وستين وثلاث مائة وهو ابن ست وثمانين ، ويوخذ من هذا أنه رحل للشرق ، ومن علمائها أيضا يحيَى بن خلف الصدفي رحل إلى

المشرق فسمع بمكة من أبي سعيد الأعرابي كثيرا ومن غيره وحدث كثيرا وتوفي بسبتة ومهم الشاعر ابن بياع[1] الذي ورد من شعره في الذخيرة قوله عن ناقته

وردت بها التنوفة وهي بدر
فلم اصدر بها إلا هلالا

ومهم خلف ابن علي بن ناصر البلوي والشيخ محمد بن علي الأموي وعتيق ابن عمران بن محمد الرفعي النفزاوي المحدث الفقيه وهو معدود في قضاة سبتة وعبد الرحمن بن سليمان البلوي الذي يصفه ابن حزم في طوق الحمامة بأنه «كان شاعرا مفلقا» وذكر له بيتين[2] ومهم ابراهيم بن أبي العيش القيسي وعبد الله بن غالب الهمداني عالم الأندلس كما يقول عياض وفي هذا القرن ألف الوراق تاريخا لسبتة بأمر من الحكم

ويصف البكري سبتة هذا العهد وان كان من رجال القرن الخامس إلا أن وصفه لم يرد فيه ما طرأ عليها في القرن الخامس فيقول في هذا

« ولم تزل دار علم فالعبارة هذه تؤدينا أن لها سابقة شهيرة في الحركة العلمية ومن المفيد أن نأتي بوصفها له هكذا

« وهي مدينة كبيرة مسورة بسور صخر محكم البناء بناه عبد الرحمن الناصر لدين الله وحماماتها يجلب إليها الماء على الظهر من البحر وبمدينتها حمام قديم يعرف بحمام خالد ولها ربض من جانب الشرق فيه ثلاث حمامات وجامعها على البحر القبلي المعروف ببحر بسول له

---

(1) كان المرحوم محمد بن العباس القباج يستظهر أن يكون ابن بياع هو ابن زنباع قاضي طنجة ، فان صح هذا فانه سيكون من العصر المرابطي

(2) من قصيدة له . وهما

سريع إلى ظهر الطريق وانه إلى نقض أسباب المودة أسرع
يطول علينا أن نرقع وده إذا كان في ترقيعه يتقطع

خمسة بلاطات وفي صحنه جبان ولها مقبرة في الجبل ومقبرة أخرَى بجوفيها على بحر الرملة ثم قال وفي شرقيها جبل منيف كان محمد بن أبي عامر ابتدأ فيه بناء سور لم يتم وهذا الجبل مطل على الربض المذكور الذي فيه الحمامات وما بينها كروم ودار الامارة في جوفي المدينة وطولها من السور الغربي الذي يدخل منه إلى المدينة قاطعا إلى آخر الجزيرة خمسة أميال

والمدينة في الجانب الغربي منها ولسورها الغربي تسعة أبراج والباب في البرج الأوسط وبين يدي هذا السور سور لطيف يستر الرجل ويتصل به خندق عميق عريض عليه قنطرة خشب أمامها بستان وآبار ومقبرة والسور القبلي على أجراف عالية والشرقي والجوفي (أي الجنوبي) فيه تطامن

ولها باب ثان مما يلي الجوف في برج يعرف ببرج سابق يدخل منه إلى دار الإمارة

وذرع المدينة من السور الغربي إلى الشرقي الفان وخمس مائة ذراع وذرع ما يأخذه ثقاف الربض المتصل بالسور الغربي سبعة آلاف وأربع مائة ذراع وهي مدينة قديمة سكنها الأول وبها آثارهم بقايا كنائس وحمام وماؤه مجلوب من نهر أويات مع ضفة البحر القبلي في قنا إلى الكنيسة التي هي اليوم الجامع

هذا وصف مهم لخطط المدينة التي زارها البكري ولا شك فوصفها هذا الوصف الدقيق الذي لم يهمل فيه الناحية العلمية والاجتماعية التي قال فيها « وأهلها عرب وبربر فعربها ينسب إلى صدف وبربرها من ناحية أصيلة والبصرة نص على هذه الناحية بالذات لكون سبتة — وكانت تحت إمارة الأدارسة — تشاطر هذه المدن غالبا وحتَّى قبل وهي دار بني عصام فإن هؤلاء كانوا كما قال هو نفسه يؤدون الطاعة إلى قريش العدوة من الحسنيين.

وفي مرتفقها ذكر ان بني محمد بن القاسم بن ادريس لما شرعوا في اعادة بناء « تطوان » ضج أهل سبتة من بنيانها وزعموا أنها تضر بمدينة سبتة وتقطع عنها مرافقها فأعجل عبد الرحمن أمير المومنين إخراج الجيوش إليهم وتجهيز العساكر نحوهم وذلك سنة إحدَى وأربعين وثلاثمائة والقائد حميد بن يعلى وهكذا يقوم تيجيساس بالتقدم إلى سبتة ويؤمر بالتظاهر مع حميد بن يعلى على حرب بني محمد واجتمع العسكران للحرب فسفر حميد بن يعلى إلى بني محمد علي بن معاذ ليتخلوا عن البناء فأجابوه إلى التخلي عن مدينة تطوان »

وهذه حادثة مهمة كذلك للدارس المؤرخ والمخطط وفي تتبعنا للمراحل التاريخية نجد سبتة كانت دائما ترتفق من نواحي تطوان أو من تطوان نفسها حتَّى الآن بالرغم من يسر الاتصال بما وراء البحر الذي كان يمدها كذلك ويقوم بعبئه عند الحصار كما وجدنا عند حصار أصحاب ميسرة للجيوش الأموية ثم وجدنا له مواقف أخرَى فيما بعد سنشير إليها ومما تجدر ملاحظته أنه في هذا القرن عموما صارت سبتة منفًى لمن كان يخشاه الحكم الأموي من غلمانه وسينجم عن هذه السياسة التقليدية قيام دولة كما سنرَى

الباب الثاني

العهد الحمودي

وفيه فصلان الأول حكم الحموديين بأنفسهم

في هذا الفصل من العهد الحمودي نجد الخلفاء الحموديين الذين حكموا الأندلس طيلة نصف قرن تقريبا كانوا ينطلقون من سبتة إلى التربع على دست السلطان الذي أقصَى عنه بنو أمية أو حيل بينهم وبين السلطان الحقيقي فنشأت في الأندلس امارات في الأطراف مستقلة بها على الحقيقة وان كانت في الظاهر تنتمي إلى الخلافة المحتضرة أو الخلافة الناجمة بهؤلاء الحموديين ، الذين حلموا بها وعملوا ما أمكنهم على تحقيق هذا الحلم لولا اختلافهم فكنا نرَى عربا ومغاربة وبربرا وصقالبة كلهم على امارته مستبدا بها وهي في حلقات قد تتسع لتشمل أقاليم وقد تضيق لتحيط بمدينة واحدة لا تتعداها والحروب والمؤامرات المدبرة والدسائس المتخذة لا تخلو منها جهة من الجهات ولا مدينة من المدن الكبار آنذاك وفي هذه المعامع تقف سبتة لتمد خيوطها فتجذب بها أو تنجذب أحيانا ولكن هذه الخيوط ما انقطعت نهائيا إلا بقيام المرابطين وقضائهم على موالي الحموديين الذين خلفوهم على حكم سبتة كما نرَى في الفصل الثاني

وعلى كل حال نعود إلى المراحل الزمنية التي قطعتها سبتة الإسلامية فنجدها في أول القرن الخامس تتعرض لأحداث جسام متلاحقة فهذه الفتنة البربرية التي تقوم بالأندلس كما يسمونها (ويسميها ابن عذارَى بالفتنة الأندلسية) نجدها تتصاعد إلى سبتة وإذا بهذه تخوض فيها مع الخائضين ، وتتدخل بأمرائها في قلب الخلافة الأموية وإذا بصاحبها يبايع بهذه الخلافة نفسها ، كما سنرَى .

فمن المعلوم أن خلفاء بني أمية صاروا منذ ابن أبي عامر كالدمَى في يد محركيها وان كانت الخلافة في نفسها متماسكة غير متصدعة لما كان المحركون أقوياء العضلات أشداء القبضات كما هو الشأن أيام محمد بن أبي عامر ثم ابنه عبد الملك وبعدهما تضعضعت الخلافة بضعف المستبدين بها منذ أن تولّى عبد الرحمن بن أبي عامر الملقب بسنجول وقامت الفتن على ساقها وتمزقت رقعة الخلافة ولعب الأمراء الطامحون أدوارهم الخطيرة فيها فكان منهم علي بن حمود الادريسي الذي تمكن بأعماله البطولية من رضَى الخليفة سليمان المستعين فجازاه على عمله بأن ولاه على سبتة وغيرها سنة ثلاث وأربعمائة هكذا يقول التاريخ ببساطة ولكن الواقع لم يكن بها فإن عليا كان هدفه الأول هو الجلوس على عرش الخلافة وما كان عمله الحثيث لينتقل إلى العدوة إلا للتمهيد بها والاستعانة بالمغاربة على تحقيق مطمحه كما فعل فيما بعد نابليون فتوجه إلى مصر ليمكن لنفسه في فرنسا نفسها كما يرَى أستاذنا محمد شفيق غربال رحمه الله . وكما فعل « فرنكو » ليمكن لنفسه في اسبانيا[1] ويقال إن المستعين نفسه كان متوجسا من علي فأراد اقصاءه إلى العدوة وهي سياسة عمل بها الأمويون منذ كان مؤسس دولتهم بالأندلس فكانوا يبعدون كل من يتخوفونه إلى المغرب وكانت سبتة في مقدمة المنافي لذلك العهد

لقد كان علي الحمودي يخشَى هؤلاء الصقالبة العامريين الذين استقل بعضهم بجهات من الأندلس فما كان منه إلا أن استمال بعضهم وعلى رأسهم حاكم المرية » خيران مولَى المنصور الذي نشط للدعوة له ووجه به إلى سبتة كما في كتاب المغرب لابن سعيد ولم يرد ابن حمود أن يعتمد على دهائه الحربي فقط بل أراد أن يدعمه بالفكرة الشيعية فأعلنها في لباقة وان لم يفرضها كما فعل العبيديون قبله وابن تومرت بعده في خصوص المهدوية وهو المقصود للجميع وأطلق العنان للشعراء

(1) من عجيب الاتفاق أن تكون انطلاقة «فرنكو» نحو اسبانيا من سبتة .

الذين يخدمون الفكرة فكان من المتشيعين عبادة بن ماء السماء القائل له

أبوكم علي كان بالشرق بدء ما
ورثتم وذا بالغرب أيضا سميه
فصلوا عليه أجمعون وسلموا
له الأمر إذ ولاه فيكم وليه

ومهم ابن الحناط ومن هؤلاء شاعر المنصور نفسه — . أحمد بن دراج الذي اشتهر بهاشمياته وأشاد بها ابن بسام في الذخيرة ايما إشادة ومها اللامية التي مدح بها علي بن حمود المذكور ، وهو بسبتة سنة أربع وأربع مائة يقول فيها

لعلك يا شمس عند الأصيل شجيت لشجو الغريب الذليل
فكوني شفيعي إلى ابن الشفيع وكوني رسولي إلى ابن الرسول
إلى الهاشمي إلى الطالبي إلى الفاطمي العطوف الوصول
إلى ابن الوصي إلى ابن النبي إلى ابن الذبيح إلى ابن الخليل
فأنتم هداة حياة وموت وأنتم ايمة فعل وقيل
وسادات من حل جنات عدن جميع شبابهم والكهول
وأنتم خلائف دنيا ودين بحكم الكتاب وحكم العقول
ووالدكم خاتم الأنبياء لكم منه مجد حفي كفيل
تلذ بحملكم عاتقاه على حمله كل عبء ثقيل
ويطرقه الوحي وهنا وأنتم ضجيعاه بين يدي جبرائيل

ومن الحق أن يقال إن هذه الهاشمية لا تطرف فيها للتشيع الذي كان عليه أصحابه في الشرق وبلغ ذروته العبيديون في الغرب والشرق وليس فيها من التعابير الخاصة بالشيعة إلا البيت الوارد فيه « ابن الوصي » وكذلك الشأن في هاشمية أخرَى مدح بها القاسم أخاه يقول فيها

القاسم المقسوم راحة كفه في بسط معروف وقبض مهند
الهاشمي الطالبي الفاطمـ ـي الوارث العليا بأعلَى قعدد

أهدي إلى الدنيا عليٌّ هديه في طي اردية النهي والسؤدد
يا ابن الشفيع بنا وأكرم اسوة للمقتدين وأنت أجدر مقتد
يا ابن الوصي على أوص سميه ألا يضيع سمى جدك أحمد
يا صفوة الحسنين كم قد أحسنا اصفاء ود النازح المتودد

ثم يخاطبه وأخاه بقوله

فلأجعلن ثناء ما أوليتما زادا لكل مكوف أو منجد
حتَّى يسمّع طيب ما أثنَى به قبر بطيبة أو بصحن المسجد

يريد قبر علي بالكوفة الذي يقصده الشيعة ويشير إلى ذلك بقوله « زاد لكل مكوف »

نعم إن عبادة كان أشد لهجة في قصيدته التي ذكرنا البيتين مها

وهكذا فإن التشيع الذي واكب هذه الدولة كان تشيعا رفيقا لا يرفضه السني في غالبه وكذلك القول في نونية أبي زيد عبد الرحمن ابن مقانا الأشبوني التي مدح بها كما ياتي حفيد علي الحمودي واستهلها بقوله

ألبرق لائح من أندرين ذرفت عيناك بالماء المعين

وفيها يقول

وكأن الشمس لما أشرقت فانثنت عنها عيون الناظرين
وجه ادريس بن يحيى بن علي ابن حمود أمير المومنين

ومن قبل وجدنا شاعرا نكوريا في القرن الثالث يتوجه إلى بعض الأمراء الأدارسة فكان هؤلاء —كما يبدو— يضعون الحجاب بيهم فقال

أيا أملي الذي أبغي وسولي ودنياي التي أرجو وديني
أأحرم من يمينك ري نفسي ورزق الخلق من تلك اليمين
ويحجب عن جبينك طرف لحظَي ونور الأرض من ذاك الجبين

وفي نفح الطيب ان عليا على عجمته وبعده من الفضائل، كان يصغي إلى الأمداح ويثيب عليها، ويظهر في ذلك آثار النسب العربي، والكرم الهاشمي. ومن شعرائه المختصين به ابن الحناط القرطبي، ويوصف بأنه كان يدين بالتشيع، ولكنه لم يظهره للناس. على أن عليا، لم يكن بدعا في هذا ولم ينشئه وإنما استغله لصالح خلافته ويعجبني في هذا قول ابن خلدون «كان في نفوس المغاربة والبرابرة تشيع لأولاد ادريس متوارث من دولتهم بعد أن قال في بني حمود «كانوا في لفيف البرابرة في بلاد غمارة واستجدوا بها رياسة استمرت في بني محمد وبني عمر من ولد ادريس فكانت للبربر إليهم صاغية بسبب ذلك وخلطة وبقي الفخر مهم بتازغردة من غمارة»

ومهما يكن فإن عليا وطأ لنفسه بسبتة وكانت الريبة فيه وفي أخيه تخامر المستعين، الذي حذره منهما القائد عبد الله البرزالي بقوله «تأتي إلى خشاش ترده ثعابين» ويقال كما تقدم إن المستعين تخوف منهما بقرطبة فأراد صرفهما عن الأندلس التي لم يسخ منها له إلا بالجزيرة ولما حل علي بسبتة وجد نفسه محاطا بعيون سليمان التي كان على رأسها قاضي سبتة ابن زوبع وكبيرها الفقيه ابن يربوع فقضَى على هذين الرجلين كما يقال إن القاضي صار يثير العامة عليه وكان علي يدعي أن هشام بن الحكم عهد إليه وهو محاصر بقرطبة وبهذا كتب إلى عامر بن فتوح الفائقي بمالقة ثم أجاز إليها تاركا ابنه يحيى بسبتة وانحاش إليه جماعة من القواد على رأسهم خيران العامري الصقلبي صاحب المرية المذكور وقواد من الصنهاجيين فتوجه بهم إلى دار الخلافة وقبض على المستعين. وأعلن نفسه خليفة متربعا بالقصر وما مضى وقت قصير حتَّى صارت المؤامرات تدبر ضده من قبل الصقالبة الذين آزروه ومن الأندلسيين. الذين حاولوا ارجاع الخلافة إلى بني أمية فكان خيران يبايع عبد الرحمن المرتضَى ويدبر لاغتيال علي وبعد صراع تمكن ثلاثة غلمان له من اغتياله في حمام قصره عندئذ بعثت زناتة إلى أخيه القاسم الذي

كان يكبره بعشر سنوات وكان واليا على سبتة من قبله فأتَى إلى قرطبة حيث بويع بها وحمل شلو أخيه ووجه به إلى ابنه بسبتة فدفن بها وكتبت عليه رخامة انتهت إلى تطوان بعد تسعة قرون أتَى بها السفير ابن عثمان

لم يرض يحيى على بيعة عمه لأنه كان وليا للعهد فاعتزم القيام عليه وبما أن مالقة كان عليها أخوه ادريس فإنه بادله بها سبتة فعبر الأميران ذاك إلى مالقة وهذا إلى سبتة التي لم يكتف بها حسب خطة موضوعة مهما فأضاف إليها طنجة التي كانت عدة للقاسم يعتدها للجوئه إذا داهمه أمر بالأندلس فاستولَى ادريس على ذخائره بها على حين كان أخوه يحيى يطارد عمه الذي نجا بنفسه إلى اشبيلية فبايعه قاضيها محمد بن اسماعيل ابن عباد بعدما بويع يحيى بقرطبة وكر عليه عمه فبويع له بها لثاني مرة ثم تمكن منه يحَيى فأسره بعد قتال وبويع هذا مرة ثانية وظل القاسم في الأسر إلى أن لاقَى حتفه بعد خمس عشرة سنة

وفي ليلة من ليالي يحَيى كان يقضيها بقرمونة داهمه رجال ابن عباد فخرج إليهم فرحا بلقاء خصمه ولكن كمينا أحاط به فصرع قتيلا فكتب ابن بقنة » و« نجا » الصقلبي مدبرا دولتهم من مالقة إلى ادريس يدعوانه أن يعبر من سبتة إلى مالقة للمبايعة فبايعاه على أن يجعل سبتة وطنجة لابن أخيه حسن بن يحَيى وعلى هذا ظل خليفة بالأندلس إلى أن توفي اثر انتصار جيوشه على اسماعيل بن عباد وقتله سنة 431 وهنا يقع الخلاف بين المؤرخين فيمن تولى بعده فابن عذارى يجعله أخاه حسنا وأنه بويع بسبتة (فقام بأعباء الملك وتوفي سنة 434) وان حسنا هذا خلفه ابنه يحَيى فبويع وملك سنتين ، ثم قام عمه حسن بن يحَيى ابن علي فخلعه

أما عبد الواحد المراكشي وابن خلدون وآخرون فيجعلون حسن بن

يحيى هذا خلفا لادريس مباشرة وكان بسبتة حسب الاتفاق السابق ولا شك أنه كان ولي عهد ادريس وهذا هو الصحيح المعقول يقول عبد الواحد لما وصل خبر قتل اسماعيل بن عباد وموت إدريس إلى « نجا الخدم الصقلبي وكان بسبتة استخلف عليها من وثق به من الصقالبة وركب البحر هو وحسن بن يحيى إلى مالقة ليرتب له الأمر فلما وصلا إلى مرسى مالقة خارت قوى ابن بقنة[1] وهرب إلى حصن كمارش ودخل حسن ونجا» إلى مالقة « فبايعوا حسن بن يحيى ثم خاطب ابن بقنة وأمنه فلما رجع إليه قبض عليه وقتله وقتل ابن عمه يحيى بن ادريس[2] وهكذا قتل أحد الرجلين اللذين كانا مدبري دولة الحسنيين ، كما يقول عبد الواحد

الفصل الثاني سبتة تحت حكم الموالي الحموديين

يؤخذ من سير الحوادث أن سبتة صارت يعهد بها إلى الصقالبة بعدما كان يتولّى حكمها مباشرة أمراء الحموديين ، وستستمر في عهدة غيرهم كما سنرَى

لما تم الأمر لحسن ارتاب بأخيه ادريس فأمر بثقافه في القصر ولم تطل مدته إذ مات مسموما من قبل زوجته أخت يحيى المقتول ويذكر يوسف أشباخ أن قتل الحسن كان بتحريض « نجا الصقلبي الذي تزوج زوجته بعده فمن زوجته هذه ؟ أهي الأميرة الحمودية ؟ هذا بعيد جدا وفي ابن خلدون يقال في صدد قتل يحيى أنه كان للحسن ابن صغير يقوم عليه بسبتة « نجا الصقلبي فما كان من هذا إلا أن اغتاله وصمم على محو أمر الحسنيين . كما في المعجب وكان هذا الابن ولي عهد أبيه فلما مات كتب السطيفي إلى ابنه بسبتة وإلى نجا فيها يدعوهما للمجاز

---

(1) ابن بقنة هذا كان قد رام ضبط الأمر ليحيى بن ادريس كما يقول نفسه وابن خلدون

(2) وعمه القاسم الأسير.

ليعقدا البيعة لولي العهد المذكور . فاغتاله « نجا كما يذكر ابن خلدون ثم ركب البحر بعد أن استخلف على سبتة وطنجة من وثق به من الصقالبة أيضا وزاد في الاحتياط على ادريس بن يحيَى الذي ثقفه أخوه ثم توجه إلى الجزيرة الخضراء ليستأصل شأفة محمد بن القاسم الذي تولاها بعد قتل يحيى ابن عمه وبعد مناوشة وقتال رجع عنها مستحييا من أم محمد هذا وأخيه الحسن معه ثم توجه إلى مالقة وفي طريقه تآمر عليه البربر ، وعلى رأسهم البرغواطيون أخوال حسن بن يحيى وقتلوه وتخلصت بذلك سبتة من كابوس هؤلاء الصقالبة الطغاة السفاكين ، وأخرجوا إدريس من سجنه وبايعوه سنة ثمانية وثلاثين وأربع مائة فخرج من مالقة إلى سبتة التي أزاح عنها أصحاب نجا الصقلبي ولم يكن له في الواقع سلطان على سبتة ولهذا نراه بايعاز من الموالى قد أقام عليها رجلين من البرغواطيين على حكمها وهما سقوط[1] ورزق الله

وادريس هذا هو ممدوح ابن مقانا الأشبوني بالنونية المذكورة وكان نفسه أديبا شاعرا ولكن المآسي التي واجهته في حياته ولدت فيه نوعا من التناقضات والاستسلام فهو متعاظم كما يصفه المقري في نفح الطيب وهو متواضع لا يصحب الا كل ساقط رذل كما يقول عبد الواحد المراكشي وهو مسالم لجيرانه ؛ كل من طلب منه حصنا من حصون بلاده أعطاه اياه بل انه لا يبخل حتَّى برجال الدولة المخلصين ، وعلى رأسهم وزيره ومدبر أمره وصاحب أبيه وجده موسى ابن عفان السبتي فقد كتب إلى ادريس أمير صنهاجي طالبا أن يسلمه إليه فأخبره بذلك واستخبره في الأمر فأجابه الوزير المخلص « افعل ما تومر ستجدني ان شاء

---

(1) ويذكر ابن خلدون أنه كان مولى القاسم الواثق ابن محمد المعتصم ابن القاسم صاحب الجزيرة الخضراء سنة 445 إلى 450 حيث امتلكها ابن عباد منه . ويقال أنه كان ليحيَى بن علي

الله من الصابرين » فأسلمه إلى الصنهاجي الذي استل روحه من جنبه

وسنرَى منه موقفا مماثلا فيما بعد وهو مخلوع بسبتة محجور عليه

ومهما يكن فإن ادريس لجأ إلى سقوط وصاحبه بسبتة فاستقبلاه بالحفاوة والاكرام ، ظاهريا ولكنه —كما في المعجب— أصبح في حوزتهما محجوبا حجابا شديدا ولم يدعا أحدا من الناس يصل إليه ، فتلطف قوم من أكابر البربر ، حتَّى وصلوا إليه وقالوا له إن هذين العبدين قد غلبا عليك وحالا بينك وبين أمرك ، فأذن لنا نكفيكهما فأبَى ثم أخبرهما بذلك فنفيا أولئك القوم الذين أرادوا انقاذه وأخيرا أخرجا ادريس بن يحيى وبعثا به إلى الأندلس وتمسكا بولده لصغره إلا أنهما في كل ذلك كانا يخطبان لادريس بالخلافة

وهكذا استبد الرجلان بسبتة وطنجة ، وانتقل عنهما ادريس لاجئا إلى الرندة وصاحبها أبو قرة الافراني

أراد سقوط أن يصفي حساب هذه الأسرة كما فعل نجا قبله فقتل الحسن السامي أخا محمدا المهدي وولي عهده متظاهرا بالولاء لهم وقد جعله وراءه ظهريا ولهذا لما استنجد به صاحب الجزيرة الخضراء القاسم ابن محمد بن القاسم المذكور وهي محاصرة بجيوش المعتمد بن عباد، سكت عنه فلما سقطت مدينته بيد الغزاة ولجأ إليه أوصد عليه الباب حتَّى سقط في يده وكان على نباهته وجلالة عمله أضعف أمراء البربر شوكة وأقلهم رجالا فنكب الأمير عن سبتة إلى المرية وبقي بها إلى أن توفي

لم يبق لسقوط الآن إلا أن يتخلص من شريكه وهو الرجل القوي الذكي وما ينتصف هذا القرن حتَّى نجده قد حقق أمنيته وتخلص من شريكه « رزق الله » الذي أعدمه سنة ثلاث وخمسين ، وأصبح الحاكم بل الملك المطلق واتخذ لنفسه لقب « المنصور المعان »

وتبدأ هنا قصة سنراها تتكرر في المغرب وسبتة بصفة خاصة وهي الارتباط بالخليفة العباسي فإن سقوط ما قطع صلته بالحموديين. حتَّى أعلن ولاءه للخليفة العباسي، عبد الله القائم بالله، وضرب النقود باسمه وجعل ولي عهده ابنه العز بهاء الدولة وقد أثبت اسمه كذلك واسم ولي عهده بهذه النقود، وبهذا تكون سبتة قد اتصلت بالخلافة العباسية وسيتكرر هذا مها فيما بعد

ولم يكتف المعتضد ابن عباد بامارته في شبه الجزيرة بل تاقت نفسه إلى سبتة بعد سقوط الجزيرة الخضراء في يده فقامت المعارك المبيرة بين الأسطول السبتي والأسطول الاشبيلي وانتهت أخيرا بالظفر للسبتيين. فأصبح المضيق تحت رحمتهم وأصبح سقوط حذرا مما يأتي من خارج البحار، فلم يقبل حتَّى لجوء اخوانه البربر إلى سبتة حينما طردهم ابن عباد من بلادهم التي كانوا أصحابها في الأندلس وعلى رأسهم أصحاب مدينة شريش الذين قتل ابن عباد صاحبهم بعد اغتيال أخيه بتلك الطريقة الدنيئة العبادية

وهكذا قدر لسقوط أن يصبح أميرا في بحر الزقاق فامتدت إمارته على ساحله، وكانت طنجة ضمن حكمه فكانت المدينتان يتولَّى حكم احداهما مباشرة ويتولَّى ولي عهده يحيَى ابنه حكم الأخرَى وهما يتمتعان بالاستقرار

ويعمل سقوط جاهدا على جلب العلماء إليه فيكون منهم ثلاثة يحسده عليهم المعتمد بن عباد كما سنرَى وكان سقوط يكاتب ملوك الأندلس في توجيه رجال العلم إليه كما نجد في قصة ورود رسائل ثلاث على ابن جهور اثنتان منها لأميرين أندلسيين يطلبان مغنية، والأخرَى لسقوط يطلب مقرئا جيدا

نعم، هكذا كانت دولة سقوط الفتية النشيطة، ولكنها ما أوغلت في النصف الثاني من هذا القرن حتَّى تعرضت إلى خطر عظيم، سيكون ثالث

الأحداث التي تواجهها سبتة في القرن الخامس ألا وهو قيام دولة المرابطين

وقبل أن ننتقل إلى هذه المرحلة لابد أن نلقي نظرة على رجال العلم والأدب الذين سلخوا النصف الأول من هذا القرن بل الذين كانوا بسبتة قبل دخولها في حكم المرابطين العظام وإن توفوا في عهدهم

فمن هؤلاء اسماعيل بن حمزة بن زكريا الأزدي ، من أهل سبتة بها ولد وكان مائلا إلى علم أصول الديانات روى عن الأصيلي وغيره فهو من أوائلهم ومن أوائل هؤلاء قاضي سبتة أبو بكر محمد ابن زوبع البصري كان أصله من بصرة المغرب ونشأ بسبتة ورحل إلى الأندلس وإلى العراق وتقلب في وظائف كان آخرها قضاء سبتة فتوفي بها في أوائل القرن الخامس كما تقدم

ومنهم الفقيه المشارك محمد بن يعلى المعافري ومولده بسبتة سنة 428 وتوفي في العقد الثالث من الخامس وكان شاعرا ومن شعره

يا من عدا ثم اعتدَى ثم اقترف
ثم ارعوَى ثم انتهَى ثم اعترف
ابشر بقوله الله في تنزيله
« إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف »

ومنهم قاضيها يوسف بن حماد بن خلف الصدفي ابن أخي الصدفي المذكور في القرن الرابع الذي أدركه يوسف هذا وتوفي في نحو الثلاثين وأربع مائة بعد ما قضَى نحو خمس وعشرين سنة قاضيا بسبتة ومنهم خطيبها ومفتيها مروان بن عبد الملك ابن سمجون الطنجي الأصل له رحلة إلى المشرق توفي عام 491

ومنهم الفقيه عون الله بن نوح المقرئ الذي وجهه إلى سقوط وبطلب منه ، أبو الوليد بن جهور صاحب قرطبة ومنهم حجاج بن قاسم

الرعيني المعروف بابن الماموني رحل إلى المشرق وأخذ عن شيوخه وكان مشاورا بالمرية واستقر بسبتة وأصله منها توفي سنة 480 ومنهم أبو الأصبغ بن سهل الجياني وهذا قد عاد إلى غرناطة بعدما تولّى القضاء في مدن أخرَى بالمغرب وتوفي سنة 486 وسنعود إليه فيما بعد حيث قام بمهمة دبلوماسية في أول العهد المرابطي

ومن الوافدين عليها ابن دراج كما تقدم وأنه قد قال شعرا منه الهاشميات السالفة ومنه قصيدة قالها في ادريس بسبتة يهنئه بمولود واستهلها بقوله

هلال بنور السعد والحق مقمر
أهل على الاسلام « الله أكبر »

ومن الذين وفدوا من القيروان وأقاموا بها وأقرأوا الحصري الشاعر أبو الحسن علي، الذي أقرأ بها القراءات أواسط القرن الخامس، وتزوج وولد له من الولد من توفي بسبتة نفسها كما نجد في شعره حيث يقول

استودع الله لي بدانية وسبتة فلذتين من كبدي

ويقول في رثائه له

ابني قد منحتك سبتة للعلَى لم يرضها يحيَى ولا ادريس

وواضح أنه يريد يحيَى وادريس الحموديين ؛ ومن شعراء البرغواطيين أبو محمد عبد الله بن القابلة السبتي ذكر له في « عنوان المرقصات » الأبيات [1]

ووجه غزال رق حسنا أديمه يرَى الصب فيه وجهه حين ينظر
تعرض لي عند اللقاء به رشا تكاد الحميا من محياه تقطر
ولم يتعرض كي أراه وانما أراد يريني أن وجهي أصفر

(1) ناقلا عن الذخيرة لابن بسام

وذكر في الذخيرة له في رفاء[1]

يـارافيـا قـطـع كـل ثـوب ويــارشــا خــيـب اعــتـقـادي
عسى بـكـف الوصال ترفو مـا قطع الهجر في فؤادي

ونختم هؤلاء العلماء والأدباء بالثلاثة الذين أشرنا إليهم فقد قال المعتمد كما في معجم البلدان لياقوت « اشتهيت أن يكون عندي من أهل سبتة ثلاثة نفر ابن غازي الخطيب وابن عطاء الكاتب وابن مرانة الفرضي » ووصف هذا الأخير ياقوت بقوله « ابن مرانة السبتي ، كان من أعلم الناس بالحساب والفرائض والهندسة والفقه ، وله تلامذة وتآليف ومن تلامذته ابن العربي الفرضي الحاسب يقولون إنه من أهل بلده ويقول المقري في كتابه « أزهار الرياض معلقا على بيت ذكره ضمن أخرَى للمنصفي في بليونش وهو

وقد أرتنا اليوم من حسها ما لم يكن في زمن الحاجب

فقال المقري « والحاجب أحد ملوك سبتة وله عمل ابن مرانة قصيدة في الكوائن والحوادث « يريد بالحاجب يحيى بن سقوط وفي « أزهار الرياض » أيضا نجد إشارة لابن مرانة وقصيدته وفي ملعبه لرجل ذكره ابن خلدون ونقل كلامه المقري يعرف بالكفيف الزرهوني

ومن هذه الملعبة استطعنا ضبط الراء بالتشديد ولم نطلع على أثر باق لهذا الرجل

أما ابن غازي الخطيب وابن عطاء الكاتب ، فقد ذكر ابن دحية في المطرب شعرا لهما ذاكرا الأول بالفقيه الأجل أبي العباس أحمد بن سعيد بن غازي السبتي ثم أتَى بهذين البيتين له

حرف كمثل الصاد إلا أنها بعد السرى جاءت كحرف النون

(1) وقال فيهما صاحبها « وهذا من اللفظ الطيار الخفيف الروح » ثم خصص له فصلا ذكر فيه نماذج عديدة من شعره وبها قال « إلى هذا المكان انتهَى ما انتخبته من أشعار هذه الفرقة الوافدة » ونقل البيتين ابن دحية في كتابه « المطرب من أشعار أهل المغرب »

كالبدر قدره الإله منازلا في الأفق حتّى عاد كالعرجون

ولاشك أنه استفاد من البيت الذي ذكره ابن بسام لابن بياع السالف الذكر ولكنه استغل الاشتراك في الحرف ، فوضع الصاد بدل البدر في البيت الأول وعاد إليه في البيت الثاني فاعتمد على القرآن الكريم ، بعدما استغل أيضا في البيت الأول حرف النون في التشبيه ووضعه موضع الهلال الذي تكفل به التشبيه القرآني الكريم في العرجون

وأما الكاتب ابن عطاء فبعد ذكره له بأبي بكر ابن عطاء كاتب صاحب سبتة الحاجب بهاء الدولة وكاتب أبيه قبله ساق له هذه الأبيات

سأمنع قلبي أن يكون لكم مثوَى
وأستدفع البلوَى واستصرف اللأوا
وما سرني بعد الرضى إذ غدرتكم
وغادرتكم بين الحشى هضبتي رضوَى
وصيرتم العتبى عتابا فكلما
أبثكم شجوى تزيدونني شجوا
قضَى الله أن أقصَى وأصفيكم الهوَى
وغيري يستدني وان كان لا يهوَى
وما كان ظني قبل ذا أن حاسدي
بمهلكم يروى وأني لا أروي
وما جلت البلوَى علي وإنما
شماتة اعدائي أجل من البلوَى

وهكذا فإن سبتة في عهد الحموديين ومواليهم كانت تصدح بالأشعار ، التي ينشدها بنوها أو الوافدون عليها من القيروان كالحصرى الضرير ومن الأندلس كابن دراج الذي ترنم بأنغام التشيع وكذلك ابن مقانا أبو زيد عبد الرحمن الاشبوني ، الذي أنشد نونيته وأشرنا إليها في مدح

ادريس بن يحيى بن علي كان القوالون يتداولون أكثر أبياتها كما بالذخيرة لعذوبة ألفاظها وسلاستها كما يقول ابن بسام وهي التي أولها

ألبرق لائح من اندرين ذرفت عيناك بالماء المعين
لعبت أسيافه عارية كمخاريق بأيدي اللاعبين
ولصوت الرعد رجزٌ وحنين ولقلبي زفرات وأنين
وأناجي في الدجَى عاذلتي ويك لا أسمع قول العاذلين
عيرتني بسقام وضنى إن هذين لزين العاشقين
قد بدا لي وضح الصبح المبين فاسقنيها قبل تكبير الأذين
مزة صافية مشمولة لبثت في دنها بضع سنين[1]
نثر المزج على مفرقها دررا عامت فعادت كالبرين
مع فتيان كرام نجب يتهادون رياحين المجون
وعليهم زاجر من حلمهم ولديهم قاصرات الطرف عين
ويسقون إذا ما شربوا بأباريق وكأس من معين
شربوا الراح على خد رشا نور الورد به والياسمين
رجلت داياته عامدة سبج الشعر على عاج الجبين
لوت الصدغ على حاجبه ضمة اللام على عطفة نون
فانثنَى غصن على دعص نقا ودجا ليل على صبح مبين[2]
وجناح الصبح قد بلله ماء ورد الصبح للمصطبحين
ومصابيح الدجَى قد أطفئت في بقايا من سواد الليل جون
وكأن الطَّل مسك في الثرَى وكأن النور درفي الغصون
والندَى يقطر من نرجسه كدموع اسبلتهن الجفون

(1) في الذخيرة
سقنيها مزة صافية عتقت في دنها بضع سنين
(2) في الذخيرة
فترَى غصنا على دعص نقا وترَى ليلا على صبح مبين
كما أن في باقي أبياتها اختلافا مع ما ورد في المغرب لابن سعيد وغيره سواء في ذلك ترتيبها وبعض كلماتها .

والثريا قد علت في أفقها ... كقضيب زاهر من ياسمين
انبرَى جنح الدجَى عن صبحه ... كغراب طار عن بيض كنين
وكأن الشمس لما أشرقت ... فانثنت عنها عيون الناظرين
وجه ادريس بن يحيى بن علي ... ابن حمود أمير المومنين
ملك ذو هيبة لكنه ... خاشع لله رب العالمين
خط بالمسك على أبوابه ... ادخلوها بسلام آمنين
وينادي الجود في آفاقه ... يمموا قصر أمير المومنين
فإذا ما رفعت راياته ... خفقت بين جناحي جبرئين
وإذا أشكل خطب معضل ... صدع الشك بمصباح اليقين
فبيسراه يسار المعسرين ... وبيمناه لواء السابقين[1]
يابني أحمد ياخير الورَى ... لأبيكم كان وفد المسلمين
نزل الوحي عليه فاحتبَى ... في الدجَى فوقهم الروح الأمين
خلقوا من ماء عدل وتقى ... وجميع الناس من ماء وطين
انظرونا نقتبس من نوركم ... انه من نور رب العالمين

---

(1) في الذخيرة
وإذا راهن في السبق أتَى

الباب الثالث

سبتة في العهد المرابطي

وفيه فصلان   الأول عهد يوسف وابنه

في أوائل النصف الثاني من القرن الخامس   أصبحت أشباح الخطر تحملق في وجه « سقوط   الذي كان آنذاك قد اتخذ لنفسه طنجة مقرا له وجعل على سبتة ابنه يحيى   هذا الخطر هو الزحف المرابطي نحو الشمال وكان الشعور بالخوف والذعر يخيم كذلك على المغراويين   بفاس   وقد مكنوا لدولتهم   واطمأنوا إلى عاصمتهم التي صارت مأم القاصدين   من القيروان ، التي اكتسحها الأعراب   ومن الأندلس نفسها   وقد اضطرمت بالفتن والأهوال ، فكانت وشائج الحضارات تجمع بين الامارتين ، كما كانت نذر الخطر تؤلف بينهما

وكانت فاس أقرب إلى خط النار — كما يقول العصر — من سبتة فقد توجه يوسف نحوها   ودق اسفين الحصار أسفلها   وذلك بربط يوسف   المهدي » الجزنائي صاحب مكناسة بعجلته   فكان ذلك مما سهل عليه الاستيلاء على فاس سنة 454   بعد معارك جرت بين رجاله وبين معنصر بن حماد ابن منصور بن المعز بن عطية

وهكذا صارت فاس تحت حكم المرابطين ، واستمر يوسف في طريقه نحو الشمال   حيث فتح كثيرا من أقاليم غمارة   ولكن في سنة 456 كان أهل مليلية يستقبلون الأمير الحمودي محمد المستعلي   الذي فقد مالقة فبويع على مليلية   وبقي حتى توفي سنة 460 . أما يوسف فني انهماكه هذا

وجد معنصر الفرصة سانحة للعودة إلى فاس واستردادها من عامل المرابطين . فنجح في المحاولة واستعاد المدينة وقتل عاملها

ولم يكن في مكنة يوسف أن يعود إلى فاس وهو لما يثبت قدمه في تلك الجهات فأوعز إلى عامل مكناسة أو صاحبها بعون فلوله في إعادة فتح فاس واستجاب الكزنائي أو الجزنائي له وتوجه في المهمة فما كان من معنصر إلا أن اعترض سبيله وناجزه القتال الذي سقط المهدي فيه قتيلا وأصبحت مكناسة يحدق بها خطر معنصر فاستعان رجالها بيوسف الذي لم يكن له الآن محيص من التوجه إلى فاس أو إرسال جيشه الذي حاصر فاسا حصارا شديدا ومع هذا فلم تستسلم بالرغم من سحق حاميتها وسقوط معنصر قتيلا على أبوابها سنة 460 فبايعوا ابنه تميم ولم يكتب له المكوث والاستقرار حيث كان يوسف بعد سنتين من مبايعته قد فرغ من مهمته في الشمال وعاد إلى فاس فاقتحمها وقتل تميما هذا

وفي هذه المرحلة الحاسمة كان « سقوط كما أشرنا قَدْ مَدَّ يَدَهُ بالبيعة للخليفة العباسي قبل أن تقدم يوسف بها إلى الخليفة العباسي وكان يحاول أن يتعاون مع معنصر الذي وجدناه ما انتصر في حربه للمهدي الكزنائي وتمكن من قتله حتّى وجه برأسه إلى سقوط

فهذا الصنيع له دلالته الواقعية ولم يكن كما قيل رمزا للوفاء والتبعية للأدارسة الحموديين الذين كان ظلهم الخيالي مسدولا على حكومة سقوط الذي قد تنكر لهم أخيرا كما رأينا بل إنه كان بمبايعته للخليفة العباسي — مبايعة رمزية — يريد أن يسبغ عليه حلة الاستقلال عن غيره بالمغرب والأندلس على السواء

لقد أقام يوسف بفاس سنة ثم غادرها لاتمام فتوحاته في الشمال ولكنه فجع بموت زوجته زينب عام 464 فوجم لهذه المصيبة ثم تابع فتوحاته وكانت العقبة الكأداء في وجهه هي مدينتي طنجة وسبتة فبدأ بطنجة التي تجرد للدفاع عنها « سقوط » نفسه . وهو يناهز التسعين من

عمره فخاض المعارك المريرة التي انتهت بقتله ودخول طنجة سنة 470 في طاعة المرابطين ، ولم يبق أمامه إلا سبتة وبها يحيى البرغواطي معتصما فوجه إليها ابنه المعز الذي أحكم الحصار عليها واقتحمها سنة سبع وسبعين وأربع مائة فكانت بذلك نهاية البرغواطيين الذين حكموا المدينة مدة لا تقل عن مدة حكم الحموديين لها بأنفسهم بل تزيد

وما وصل الخبر إلى يوسف حتَّى خف إلى سبتة وفي طريقه إلى نجدة الإسلام بالأندلس ويقول ابن خلدون إن المعتمد كان قد مثل أمام يوسف وهو في فاس هذه المرة فطمأنه بقرب النجدة والاتيان إليه وغيره يقول إن يوسف طلب منه الحصار البحري لسبتة بأساطيله ليتمكن بالتغلب عليها من العبور إلى الأندلس وهذا معقول فقد أثبتت الحوادث المتكررة أن الحصار البري لها لا يأتي بالنتائج المرجوة وأمامها البحر ينجدها كما حصل في الأيام الأولَى وكلثوم ابن عياض ورجاله في الحصار داخلها ومن قبل حاول موسى بن نصير فتحها فلم ينجح رجاله إلا وقد أسعفهم يليان بنفسه ولم يعد يتلقَّى العون من البحار المفتوحة في وجهها وكذلك كان الفتح المرابطي ولا عون يأتي سبتة من البحر فكان هذا كافيا في إحكام الحصار(1)

ومهما يكن فإنه في سنة ثمان وسبعين عبر يوسف إلى الأندلس من سبتة وحصلت موقعة الزلاقة 'وسر المسلمون بها وسر يوسف سرورا لا حد له لولا ورود الخبر المحزن عليه ، بوفاة ابنه الأمير أبي بكر الذي كان قد خلفه مريضا بسبتة وعلى هذا الخبر فقد خف يوسف إلى العبور إليها وبعد برهة كانت تستقبل مولد ولي العهد الجديد أبي الحسن علي واسطة عقد هذه الدولة العظيمة

---

(1) هذا ما كان يقع في جميع المراحل التي كانت آخرها أيام المولَى يزيد أما الآن فقد شاطرت البحار السماء ، بل أصبحت الكلمة الأولَى لها والثانية للبحار ، وهو ما حدث أخيرا لجزيرة قبرص التي احتلت من السماء بادئا .

ولم يلبث يوسف ، بعدما انتهى إلى عاصمة ملكه ، أن عاد إلى سبتة مرة أخرى للعبور منها إلى الأندلس حيث كان شرقيه قد تعرض لخطر القمبيطور Campeador [1] الداهم، وقد وقع اقليم بلنسية فريسة أضغانه وطغيانه

ومن الأسف ان كان يظاهره أمير مسلم هو عبد الملك بن رزين صاحب السهلة سلوكا عرفته الأندلس في هؤلاء الأمراء أو ملوك الطوائف دائما وهو ما جعل يوسف يفكر في وضع حد لهذا السلوك المشين والقضاء على هؤلاء الملوك المتناطحين، الذين كانت النصرانية تضرب رؤوس بعضهم ببعض وهكذا كان عبور آخر ليوسف من سبتة نفسها فغل أيدي أولئك العابثين بشؤون البلاد وعلى رأسهم المعتمد بن عباد

ثم كان العبور الرابع من سبتة وكان الغرض منه الاطمئنان على سير الأمور بالأندلس وفي هذه المرة كان في صحبته ابناه علي وتميم

وهكذا استمرت سبتة معبرا لأمير المسلمين إلى الأندلس عدة مرات وأسس فيها مصانع للأساطيل التي أصبحت الحاجة إليها شديدة وتبعا لذلك أمر ببناء الميناء السفلي على يد القاضي ابراهيم أحمد البصري واستمرت حركة التشييد فأمر القاضي محمد بن عيسى التميمي ببناء جامعها كما أقام بها دورا لضرب النقود وانتشرت المدارس بها حسبما يذكر صاحب كتاب « قيام دولة المرابطين »

وفي اقامات يوسف بسبتة كانت وفود الملوك ترد عليه بالاضافة إلى المعتمد نفسه عليه فكان أولهم قاضي اشبيلية أبو بكر بن أدهم من قبل المعتمد ابن عباد ثم قاضي غرناطة أبو الاصبغ عيسى بن سهل من قبل

---

(1) يرَى « ليفي بروفسال » في اشتقاق اسمه أنه من «Campo» أي الفحص فيكون بهذا « صاحب الفحص » أو الفحصى انظر الاسلام في المغرب والأندلس » للمؤلف المذكور ترجمة محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي

عبد الله بن بلقين ثم قدم عليه لثاني مرة من ذات نفسه ، يعلمه بفساد الوضع عند هذا الأمير. وبعد ما قضى عليه يوسف وجدناه يعبر به فينقل في طريق منفاه ، إلى مدينة سبتة عند انتزاع غرناطة منه

فكانت سبتة في العهد المرابطي المعبر الوحيد الذي يعبر إليه من الأندلس ومنه إليها لم ينافسه قصر المجاز إلا بعد

لقد كان يوسف ينظر إلى سبتة نظرته إلى العواصم التي لها وزنها في المملكة ولهذا نجده يوجه إليها كتابه بولاية أبي زكرياء يحيى ابن أبي بكر بن ابراهيم (اللمتوني الذي وجهه لانقاذ مدينة بلنسية من النصرانية المدمرة على يد « القمبياطور ») على سبتة وفاس معا وهو من انشاء أبي القاسم بن الجد هكذا

« كتابنا أبقاكم الله وأكرمكم بتقواه ويرشدكم لما يرضاه وأسبغ عليكم نعماه وقد رأينا والله بفضله يقرن جميع آرائنا بالتسديد ولا يخلينا في كافة انحائنا من النظر الحميد أن نولي أبا زكريا يحيى بن أبي بكر محل ابننا الناشئ في حجرنا أعزه الله وسدده فيما قلدناه إياه من مدينتي فاس وسبتة وجميع أعمالها حرسهما الله . على الرسم الذي تولاه غيره قبله إلى آخر الرسالة التي ينص ابن خاقان على أنها وجهت إلى أهل سبتة خاصة

ومعنى هذا أن اقليم سبتة صار يضم في إطار حكمه نحو ربع المغرب وظل كذلك يتولاه على حاله ثلاثة عمال أبو بكر فأبو عبد الله محمد بن تاشفين ، ثم ابن الحاج

فكان بذلك أحد الأقاليم الخمسة تلمسان والسوس والصحراء بعد سجلماسة وهذه الأربعة تولى اثنين منها عاملان واثنين آخرين عامل واحد

ويبدو أن استبدال العمال كان في قوته بنسبة ما لأقاليمهم من خطورة ، قد تواجهها الدولة منهم خاصة ثم منها .

وكانت تلمسان تلي سبتة في خطورتها حيث أصبح هذا الاقليم يلي إمارة بني حماد التي اعتبرها يوسف امارة حاجزة و «Buffer State» بينه وبين المنطقة التي كانت قد تعرضت لهجرات الاعراب الكاسحة والتي استمرت في طريقها نحو الغرب بعدما أخربت القيروان وشتت شمل رجالها ولكن حكام هذه الامارة وقد انتهت إليها مواجهاتهم فسحت لهم المجال فشاركوها في حكمها فما كان من يوسف إلا أن وقف في وجههم وشحن تلك التخوم بالمقاتلة والسلاح فكانت تلمسان الخط الأمامي تظاهرها مدينة وجدة التي جددها يوسف وبذلك أوقف تأليب الحماديين وما كان ينجم عنه من غارات الاعراب وعبثهم بتلك الجهات

الفصل الثاني للعهد المرابطي بعدهما

لما توفي يوسف وبويع لابنه علي البيعة الثانية (وكانت الأولَى بولاية العهد قد عقدت في قرطبة بمحضر ذوي الحل والعقد من المغاربة والأندلسيين سنة 495) بإمارة المسلمين في مراكش وجدناه يحل بسبتة قصد العبور منها إلى جهاد النصارَى وكان هؤلاء قد ظهر تكالبهم على المسلمين . فكتب الله الظفر لجيش الإسلام الذي كان يقوده الأمير الأكبر تميم لقد كان هذا الجواز إلى الأندلس بعد سنة من توليه على الملك

وبعد سنتين كان علي مرة أخرَى يعبر من سبتة إلى الأندلس فيفتح مجريط « مدريد » ومدينة وادي الحجارة شمالها وسبعة وعشرين حصنا من أعمال طليطلة التي شدد عليها الحصار

وما عاد إلى المغرب حتَّى كان أمير سرقسطة عبد الملك ابن هود — الذي أبقَى عليه أميرا لاقليمه المرابطون ودافعوا عنه العدو النصراني مرارا — قد تحالف مع الفونص ضدهم ووقعت المعارك والحروب بين المرابطين وبين المتحالفين عليهم وفي هذه الحروب لم يكتب أخيرا للأمير

المرابطي تميم الظفر فيها على هؤلاء فاتجه نحو الشرق حيث اقليم بلنسية وسقطت لاردة[1] من أيديهم وخرجت أخيرا سرقسطة من يد أميرها المسلم فاحتلها النصارَى فكانت ثانية العواصم الاسلامية التي سقطت بأيديهم خيانة من أصحابها وكان والي سبتة آنذاك الأمير ابراهيم بن يوسف ممدوح ابن خفاجة فظل بها حتَّى سنة إحدَى عشرة فكانت الأخبار ترد على المغرب بكوارث آخرها سقوط مدينة سرقسطة

وما ان وصل خبر الفاجعة إلى علي حتَّى توجه إلى سبتة سنة 512 وركب البحر فغزا أراضي طليطلة والبرتغال واستولَى على قلمرية[2]

وفي سنة 520 توفي والي الأندلس تميم بن يوسف . فولَّى علي بدله ابنه تاشفين فعبر إليها من سبتة وكانت له ملاحم انتصر في غالبها وهذا كل ما استطاعه أمير المسلمين من حماية لثغور الاسلام وقواعده بالأندلس فبدا نجم المرابطين يأفل بها وبدأت الاضطرابات الداخلية وكانت فاتحتها ظهور محمد بن تومرت أواسط العقد الثاني من هذا القرن ثم مداهمته للبلاد مداهمة مسلحة ابتداء من سنة ست عشرة

وأثناء هاته الأحداث كان رجل بنواحي سبتة ادعَى أنه الخضر وقد شاع عند الخاصة والعامة أن مجمع البحرين المذكور في قصة موسى والخضر إنما هو بحر الزقاق ولعل هذا كان من متذرعات هذا الرجل الذي ادعَى كونه الخضر وتبعه ناس عقيدة منهم أن الخضر حي يرزق وأنه يحضر حيثما يذكر فيما يعتقده عوام الناس شرقا وغربا حتَّى يومنا هذا وقد قبض على هذا الرجل وشرد أصحابه وجيءْ به سنة عشرين إلى مراكش حيث قتل

على حين كانت دعوة محمد بن تومرت قد استفحلت بشدة وعزمت

---

(1) تقع مدينة « Lérida » في داخل الشمال الشرقي لاسبانيا وهي إحدَى القواعد الأربع التي يقوم عليها إقليم كاطلونيا » الحالي

(2) تقع مدينة « Goimbra » في الشمال البرتغالي

فتنتها وسرعان ما اجتمع نحوه أربعون ألفا من الرجال داهموا مراكش سنة إحدَى وعشرين وكان فيها علي بن يوسف فهزموا رجاله وتوالت عليه المحن والهزائم في المغرب وعلى رجاله بالأندلس

وفي سنة 536 كان قد وصل رجال الموحدين إلى نواحي سبتة فتطوان ولم تكن هذه الأحداث تصل إلى أمير المسلمين حتَّى كان رحمه الله يجود بنفسه وينتقل إلى الرفيق الأعلَى سنة 537 فيبايع تاشفين ابنه

وفي سنة ثمان بعدها كانت أجفان النصارَى تداهم سبتة ولم يكن هؤلاء من الاسبان بل كانوا من النورمند المعروفين بالمجوس فوقعت معارك شديدة بين أسطولهم وأسطول سبتة انتهت برجوعهم عنها وكان أمير البحر آنذاك أبو عبد الله محمد ابن ميمون الذي ظهرت كفاءته أيام المرابطين فالموحدين بعدهم وكان الأسطول النورمندي قوامه مائة وخمسين سفينة مما يدل على أن المرابطين ظل أسطولهم قويا

ومنذ هذا التاريخ صارت سبتة تستعد لطي بساط المرابطين ، وقلبها مفعم بالحزن والأسَى لتنشر بها بساطا تستخشنه هو بساط الموحدين الشامل

وقبل أن نودع هذا العهد الحميد الذي عاشته سبتة في ظل المرابطين الأشاوش نلقي نظرة على ما كانت عليه سبتة آنذاك من وفرة علماء وإن أدركوا العهد الموحدي

لقد تقلب عليها من القضاة عشرة ، كان المرابطون يعتمدون عليهم في تعميرها وتحقيق العدالة بربوعها وهم

ابراهيم بن أحمد البصري من بصرة المغرب
عبد الله ابن حمود
عبد الله بن محمد بن ابراهيم
عياض تولاها مرتين سنة 515 و 539 .

محمد بن داود بن عطية
محمد بن عيسى بن حسين التميمي
مروان بن عبد الملك اللواتي تولاها مرتين.
محمد بن محمد الأموي
الحسن بن علي بن سهل الخشي
أبو القاسم عبد الرحمن المعافري

أما الحركة العلمية ورجالها بسبتة لهذا العهد فنستطيع أن نقول في ثقة واطمئنان إنه لم تكن بالمغرب لهذا العهد مدينة تضاهي سبتة في نشاطها العلمي والقرائي وكثرة الرجال القارين والوافدين عليها ونظرة واحدة على كتاب المعجم في أصحاب الصدفي تؤيد ما قلنا فيها

فمن هؤلاء الأعلام أبو إسحاق ابراهيم بن أحمد اللواتي المعروف بابن الفاسي من أهل سبتة سمع من أبي علي عند إجازته البحر من سبتة إلى الأندلس في عودته من المشرق سنة 490 اشتهر بالحديث وتوفي بسبتة سنة 513

والحسن بن علي بن طريف المعروف بالتاهرتي من أهل سبتة اشتهر بالنحو وسمع من أبي علي وتوفي سنة واحدة وخمس مائة

والأديب الفقيه المحدث محمد بن عيسى بن حنين التميمي القاضي بسبتة أصله من تاهرت وانتقل أبوه من فاس إلى سبتة فنشأ بها ويعرف بابن الدقاق وله رحلات عديدة إلى الأندلس في طلب العلم والأدب سمع من أبي علي بسبتة ، وتولّى قضاء فاس أيضا وهو أحد رواة عياض الجلة توفي سنة خمس وخمس مائة

وعبد الله بن محمد بن ابراهيم اللخمي النكوري الأصل سكن سبتة وكان له اختصاص بأبي الأصبغ ابن سهل وسمع من أبي علي عند اجتيازه المذكور، تولّى قضاء الجماعة بمراكش. ولأبي الفضل عياض

رواية عنه ومناظرة عنده في الموطأ والمدونة وأصول الدين وتوفي سنة ثلاث عشرة وخمس مائة

وعبد الله بن محمد النفزي المرسي المحدث السلفي سكن سبتة وخطب بجامعها مدة وسمع من أبي علي في اجازته جامع الترمذي والشمايل له وأدب الصحبة للسلمي وغير ذلك قال عياض سمع بقراءتي وسمعت بقراءته وحكَى أنه روَى عنه بسبتة واشبيلية وغرناطة وبها توفي 538. وتواليفه خمسة عشر وحفظ له منظوم في الزهد

ومنهم عبد الرحمن الكتامي الذي كان من جملة قضاة سبتة بالأندلس يذكر في الصلة بأنه فقيه ابن فقيه توفي في حدود 510

وابن التميمي القاضي عبد الله له رحلة إلى الأندلس في طلب العلم وسماعه ومن الرواة عنه القاضي أبو عبد الله محمد اللخمي والد شيخ ابن الأبار أبي العباس الحافظ قرأ على أبي علي سنة 509 وله سماع كثير منه

وعلي بن محمد الأنصاري المقرئ الطليطلي الأصل سكن سبتة وأخذ عن أبي علي وقرأ الحديث وانتقل إلى غرناطة وخطب بجامعها وأخذ القراءات عن أبي عبد الله المغاسي وتوفي سنة 520

ومنهم الحسن الخشني المقري الذي سكن سبتة وولِّي القضاء والخطبة بها روَى عن أبي عمران بن أبي تليد وغيره وأخذ عن ابن عيسى التميمي والصدفي وكان فقيها مشاورا بصيرا بالحديث والقراءات وممن حدثوا عنه أبو القاسم ابن الملجوم لقيه بسبتة سنة 545 وتوفي في حدود الستين

ومحمد بن هشام اللخمي اللغوي الأديب صاحب التآليف التي منها لحن العامة

ومنهم عبد الرحمن كنيته أبو القاسم بن محمد المعافري السبتي المتوفى

سنة 520 قاضي سبتة وخطيبها المصقاع وأحد أشياخ عياض

ومن علمائها كذلك محمد بن عبد الله الموروي سكن سبتة وقام فيها بعلم القراءات وأخذ عنه القاضي عياض وتوفي في حدود 500 ومنهم محمد بن قطر الزبيدي سكن سبتة وعلم بها العربية وتوفي بها سنة 501 وكفانا العالم الذي يمثل مختلف الثقافات التي كانت تقوم عليها معاهد سبتة ورجالها ألا وهو القاضي عياض الذي يكون التعريف به من قبيل تحصيل الحاصل وحسب سبتة فخرا ان يقال في ابنها البار بها لولا القاضي عياض ما عرف المغرب

ومما تجدر ملاحظته هنا أن عياض وإن استقضى آخر عمره للموحدين فإنه يمثل العهد المرابطي حق تمثيل ولا صلة لعلمه بغيره

وعلى الجملة فإن سبتة في العهد المرابطي كانت قد انتهت إلى ذروتها العلمية التي كللها القاضي عياض مفخرة المغرب على الاطلاق كما كانت قد استكملت كيانها السياسي الذي رفرف عليه هذا العلم العظيم مما جعلها تقف موقفها الرهيب ازاء عبد المومن

ومن شعرائها ابن يقظان ذكر بالخريدة وأورد له شعرا منه ما قاله في وزير بالموصل من قصيدة مدح يقول فيها

أإخواننا ما حلت عن كرم العهد فياليت شعري هل تغيرتم بعدي
وكم من كؤوس قد أدرت بودكم فهل لي كأس بينكم دار في ودي
أحن إلى مصر حنين متيم بها مستهام القلب محترق الكبد
أحن بلحظ الشوق في كل بلدة كأنهم بالقرب مني أو عندي
ولو أن طعم الصاب جرعت فيهم لفضلته للحب فيهم على الشهد

ومن شعره في مدح أمير يمني من قصيدة افتتحها بقوله

صبا الفؤاد لريم رمته فأبى وكان من شأنه التبريز فاحتجبا
عاطيته الكأس فاستحيت مدامتها من ذلك الشنب المعسول إذ عذبا

حتَّى إذا غازلت اجفانه سنة وصيرته يد الصهباء مقتربا
ظلنا به طربا من حسن نغمته في عوده نجتني التأنيس والطربا

إلى آخر الأبيات التي أوردها العماد وذكر أنه كان متكسبا بأمداحه وأنه رحل إلى مصر سنة 544

هؤلاء جميعا يمثلون المدرسة المرابطية سواء مهم السبتيون أصلا ومنشأ والأندلسيون الوافدون عليها مقيمين أو عابرين ومن هؤلاء كثيرون كانوا يقرئون بسبتة ويحدثون في عبورهم إليها ومها كما حدث من الصدفي وكما نجد من أعلامهم الذين لقيهم عياض بها أبا عمران بن أبي تليد وأبا بكر بن عطية وابن العربي

ومن الذين مروا بسبتة المتصوف ابن العريف ويقال انه توفي بها حينما اخلى سبيله من قبل علي بن يوسف فبلغ الموكلون به سبتة حيث مرض بها فكانت وفاته في قصة مذكورة بالمعجم المذكور وغيره

ولو تتبعنا هؤلاء الذين كانوا يعبرون إلى سبتة ومها لما استطعنا إحصاءهم لآنذاك ولم يكن عبور العالم كما نفهمه الآن بل كان معناه الاقراء والأخذ مثال من ذلك أن الصدفي قرئ عليه في عبوره جامع الترمذي ولازم الناس سماعه بالجامع ليلا ونهارا وكانوا يبيتون بالمقصورة حتَّى كمل في مدة يسيرة كما كان الأخذ المتبادل والمناظرة والامتحان العسير (فيما سنجد له مثلا مع ابن خميس التلمساني)

ومن ناحية العقلية فقد تكون فيها تفكير صوفي لعله كان من رواسب التشيع الحمودي ثم ترسخ بما كان لابن العريف من أصداء قوية فيها هذه الأصداء التي كانت تنبعث أيضا في غالبها مما كان بين ابن العريف وبين القاضي عياض من اتصالات ومكاتبات بيهما نجد ذلك في كتب الأدب والتراجم

ولأمر ما قيل إن وفاته كانت بسبتة مع كون المعروف أنه توفي

بعيدا عنها ودفن بمراكش فما هذا الادعاء ان كان الا دليل على تعلق السبتيين . بهذا الصوفي الذي هز الدولة نفسها فاتخذت منه موقفا لم تتخذه ازاء غيره ثم اتخذ أصحابه وأتباعه المريدون موقفا ضدها انتهى بالثورة والقضاء على سياستها داخل الأندلس

ومهما يكن فإنه منذ هذا التاريخ طبعت سبتة بطابعها المتصوف فكان أبو العباس السبتي صاحب المذهب المعروف بالاحسان ثم كان في الأخير . القاضي أبو العباس العزفي صاحب المولد النبوي الذي لم يقف الاحتفال به عند سبتة بل عم المغرب فالشمال الافريقي ثم العالم الاسلامي أجمع

ولم تنطفئ شعلة التصوف من سبتة إلا بانطفاء السيادة الاسلامية فيها عند الاحتلال النصراني الغاشم

ونعود إلى القاضي عياض فنجد من أشعاره ما يتسم بسيمة التصوف كما في قصائد له ثلاث مطلع احداها

إليك بؤت بذنبي فاغفر خطاياي ربي
وامنن علي بلطف تجبر به صدع قلبي
فقد ركبت ذنوبا سودت مهن كتبي

ويقول في مطلع أخرى

إليك مددت الكف استمطر الفضلا
واستكشف البلوى واستعطف الطولا
دعوتك مضطرا فعجل اجابتي
بتفريج كرب طالما واصل الهولا
عليك اعتمادي في جميع مقاصدي
إليك رفعت الأمر والقول والفعلا

فهذه توسلات المتصوفة والزهاد .

أما القصيدة الثالثة فهي في الرسول عليه السلام وفي البقاع المقدسة ، خصوصا منها المدينة المنورة يقول فيها

هذا الشفيع الذي ترجَى شفاعته
للمذنبين إذا ما اسودت النار
بادر وسلم على أنوار روضته
قبل الممات فلا تشغلك اعذار
ان لم تعاين ثراه العين يا أسفي
أو لم تزره فإن الشوق زوار
يا أهل طيبة حل ربعكم قمر
بر عطوف لفعل الخير امار

فالتعلق هكذا بالرسول وروضته الطاهرة مما سادت فيه أشعار المتصوفة ورسائلهم بعد بل ان أمداح النبي عليه السلام لم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بفضل رجال التصوف وعلى رأس هؤلاء المادحين البوصيري رحمهم الله جميعا

وفي هذا العصر المرابطي كانت سبتة تحظَى بالتأليف فيها فكان — كما هو معروف — القاضي عياض يؤلف الفنون الستة في أخبار سبتة ويعتبر هذا أول ما ألفه المغاربة في مدنهم

وقبل أن نودع سبتة في العصر المرابطي لابد أن نأتي بما ورد عنها بكتاب « نزهة المشتاق » لابنها الشريف الإدريسي فهو أحق من يصفها آنذاك ولكن وصفه لها لم يتعد موقعها والأهمية الاقتصادية التي تتوفر عليها وما كان لصيادي الأسماك فيها من مهارة اختصوا بها فيقول

فأما مدينة سبتة فهي تقابل الجزيرة الخضراء وهي سبعة جبال صغار متصلة بعضها ببعض معمورة طولها من المغرب إلى المشرق نحو ميل ويتصل بها من جهة المغرب وعلى ميلين منها جبل موسى وهذا الجبل منسوب إلى موسى بن نصير ، وهو الذي كان على يديه افتتاح الأندلس

في صدر الإسلام وتجاوره جنات وبساتين وأشجار وفواكه كثيرة وقصب سكر واترج يتجهز به إلى ما جاور سبتة من البلاد لكثرة الفواكه بها ويسمَّى هذا المكان الذي جمع هذا كله بليونش وبهذا الموضع مياه جارية وعيون مطردة وخصب زائد

ويلي المدينة من جهة المشرق جبل عال يسمَّى جبل المينة وأعلاه بسيط وعلى أعلاه سور بناها محمد ابن أبي عامر عندما جاز إليها من الأندلس وأراد أن ينقل المدينة إلى أعلَى هذا الجبل فمات عند فراغه من بنيان أسوارها وعجز أهل سبتة عن الانتقال إلىهذه المدينة المسماة بالمينة فكثوا في مدينتهم وبقيت المينة خالية وأسوارها قائمة وقد نبت حطب الشعراء فيها وفي وسط المدينة بأعلَى الجبل عين ماء لطيفة لكنها لا تجف البتة وهذه الأسوار التي تحيط بمدينة المينة تظهر من عدوة الأندلس لشدة بياضها ومدينة سبتة سميت بهذا الاسم لأنها جزيرة منقطعة والبحر يطيف بها من جميع جهاتها إلا من ناحية المغرب فإن البحر يكاد يلتقي بعضه ببعض هناك ولا يبقَى بينهما إلا أقل من رمية سهم واسم البحر الذي يليها شمالا يسمَّى بحر الزقاق والبحر الآخر الذي يليها في جهة الجنوب يقال له بحر بسول وهو مرسى حسن يرسى به فيكن من كل ريح

وبمدينة سبتة مصايد للحوت ولا يعدلها بلد في اصابة الحوت وجلبه ويصاد بها من السمك نحو من مائة نوع ويصاد بها السمك المسمَّى التن » الكبير الكثير . وصيدهم له يكون زرقا بالرماح وهذه الرماح لها في أسنتها أجنحة بارزة تنشب في الحوت ولا تخرج وفي أطراف عصيها شرايط القنب الطوال ولهم في ذلك دربة وحكمة سبقوا فيها جميع الصيادين لذلك ويصاد بسبتة شجر المرجان الذي لا يَعْدِلُه صنف من صنوف المرجان المستخرج بجميع أقطار البحار ، وبمدينة سبتة سوق لتفصيله وحكه وصنعه خرزا وثقبه وتنظيمه ومنها يتجهز به إلى سائر البلاد وأكثر ما يحمل إلى غانة وجميع بلاد السودان لأنه في تلك البلاد يستعمل كثيرا .

الباب الرابع

سبتة في العهد الموحدي

وفيه فصلان   الأول عهد الخلفاء الأربعة الأول

كما تقدم كانت سبتة في العهد المرابطي قد استكملت مقوماتها الحضارية وشخصيتها العلمية والثقافية وكانت لذلك العهد — كما قلنا — فريدة بين مدن المغرب بحيث لم تكن تضاهيها أية مدينة منه

حقيقة إن العاصمة ، كانت مركزا تتركز عليه الحركة الثقافية وتدور في محطيه رجال ذوو المكانة في العلم والأدب ولكن هؤلاء في مغلبهم كانوا من الأندلس ومن مدن غيرها إذ لم يكن قد مر على تأسيس هذه العاصمة نحو نصف قرن حتَّى كانت العواصف الموحدية تعصف بها وحتَّى كان ابن تومرت يجادل فلا يجد من يجابهه إلا من رجال الأندلس كمالك بن وهب الاشبيلي أما غيرهم فما كان يفهمه حتَّى يقابله بالجدال

وفاس نفسها بالرغم من سابقتها وتمركز الحركة الثقافية بها من أمد بعيد ومن أوائل القرن الثالث فإنها لم تستمر في تحركاتها حتَّى تكون قد نالت غايتها ولهذا لا نستغرب إذا وجدناها في نهاية القرن الرابع لا تجد من رجالها من يخلصها بالحجة العلمية من عامل المنصور الموحدي إلا رجلا هو ابن جيدة ولم يكن ابن جيدة على درجة بالغة الجودة في علمه أما في القرن الخامس وقد ازدهرت فاس على عهد المغراويين ، فإن ازدهارها هذا لم يينع حتَّى كانت زوابع الفتن الداخلية والخارجية تقتلعه .

وبقيت المدن الأخرَى كالعاصمة البصرة التي بادت آنذاك وكالعاصمة النكورية التي نكرها العبيدي وكسجلماسة التي مسها طائف من رجاله ولم تبق إلا طنجة التي كانت تكون أخت سبتة لذلك العهد لولا الحظوة التي حظيت بها سبتة والحظ الذي نالها — وللمدن حظوظ كما للناس حظوظ وحظوات — فقد نالت سبتة كل ذلك بكونها أصبحت المعبر الوحيد للدولة ورجالها والقاصدين إليها وتقدم أن هذا العبور لم يكن كما نتوهم صامتا بل كان صاخبا تنتهز صخابته سبتة أو تثير هذه الصخابة لو حاولت الاستماتة ومثال من ذلك أبو علي الصدفي وهو على أهبة العودة إلى وطنه مما تقدم ذكره واحتفظت كتب التراجم بصورة له[1]

ومهما يكن فقد طويت صفحة سبتة المرابطية وها هي الآن صفحتها الأخرَى تنشر على العهد الموحدي

فكيف كان ذلك ؟ لقد اتصل عبد المومن بريف سبتة كما نقل ابن عذارى عن ابن حمادة سنة 536 أيام علي بن يوسف ثم اتصل بسبتة وهو مشتبك مع تاشفين في قتال مرير ولما نازلها امتنعت عليه بدفاع قاضيها عياض ثم في سنة 539 مات تاشفين

وفي سنة أربعين وخمس مائة وكان عبد المومن تحت أسوار فاس وفد عليه قائد الأسطول المرابطي للأندلس الذي كان يرابط — حينذاك — بمياه قادس وهو علي بن عيسى بن ميمون ، فبايعه وقدم إليه طاعة مدينته التي أقام الخطبة بجامعها للدولة الجديدة ولا شك في أن السبتيين كان الأسطول يسيطر دائما على مياه مدينتهم لهذا لم يتقدموا إلى هذه البيعة وأسطول المرابطين جاثم بها فلما فارقها وعليه أبو عبد الله ابن ميمون — إلى وهران باستدعاء تاشفين — أوفدوا عياض على

(1) وهناك مثال آخر لهذا فقد ذكرت كتب التراجم أن أبا عبد الله محمد بن حارث الخشني القيرواني لما قصد الأندلس من سبتة حبسه أهلها عندهم فتفقه عليه قوم منهم وقيل انه حقق قبلة جامعهم على عهد عبد الرحمن الناصر بها .

عبد المومن على رأس وفدهم ليقدم إليه طاعتهم ودخولهم في بيعته وكان عبد المؤمن آنذاك قد ولّى وجهه نحو مراكش وفي طريقه نزل بسلا فحل عليه بها القاضي عياض وقدم إليه طاعة قومه فتقبل طاعتهم ووجه إلى مدينتهم واليا من قبله هو يوسف بن مخلوف التينمللي من مشيخة هنتاتة فساكن الموحدون أهل سبتة في ديارهم واطمأنوا إليهم كما في الاستقصا

ولاشك أن بيعة سبتة كانت على اتقاء من طغيان هذه الدولة التي كانت قد استولت على سلا وفاس بعد قتال مرير كان قد انتهى بظفرها ولهذا ما أتيحت الفرصة التي رأتها للتخلص مها حتّى خلعت من عنقها ربقة الطاعة سنة إحدَى وأربعين . إثر ثورة محمد بن عبد الله بن هود السلاوي في جزولة واستيلائه على غالب المغرب ففتكوا بعامل الموحدين وأصحابه[1] وعبر عياض البحر إلى ابن غانية فأتَى عائدا إلى سبتة بابي بكر الصحراوي صاحب فاس سابقا مولّى عليها من قبل ابن غانية المذكور وبايعته برغواطة سبتة فقاتل بها عبد المومن فلما قضَى الموحدون على هذه الثورة العارمة الخطيرة اضطر السبتيون إلى العودة إلى حظيرة الموحدين الذين كانوا قد شددوا عليها الحصار وكان واليها المذكور قد بايع عبد المومن سنة 542 بعد فشله كما ذكر البيذق في كتابه فخرج القاضي عياض مستعطفا القائد الموحدي يصلاسن بن المعز ومعتذرا عن مواطنيه فقبل عذره وفسح له السبيل للتوجه إلى عبد المومن بمراكش لهذه الغاية فقبل الخليفة هذا العذر ولكنه ألزمه مجلسه وأن لا يعود لسبتة التي لم تصب بما أصيبت به سلا هذه المرة من تقتيل وتنكيل حينما استجابت لثورة ابن هود ولكن عبد المومن أمر بهدم أسوارها كما فعل بفاس وسلا بعد سقوطها وفي نفس السنة توجه عبد المومن بنفسه إلى

---

(1) وهو يوسف بن مخلوف التينملي وذلك بعد أن صرخ صارخ بأنه عزم على قتل قاضيهم عياض كما في البيان لابن عذارى .

سبتة فاستدعَى أهل الحل والعقد من الأندلسيين إليه فوفدوا عليه بسبتة وتحدثوا إليه في شؤونهم العامة فلقوا منه عناية بها وكان النصارَى قد تحركوا إلى جهات منها فطمأنهم وزودهم بنصائحه ثم صرفهم إلى بلادهم وغادر سبتة على اثرهم متجها صوب شرق المملكة إلى فتح بجاية واستخلاصها من أميرها الصوري يحيى بن العزيز الصهاجي الحمادي

وكان في الأيام العصيبة التي واجهها المرابطون بالأندلس أن ثائرا صلب المراس قد ثار عليهم غربي الأندلس ووضع يده في يد غيره من المريدين أصحاب ابن العريف ، فصاروا يداهمون البلاد ، التي لقيت بها بعض المستجيبين إليهم فاندلعت بذلك الثورة ضد المرابطين

ولما كانت دولة الموحدين قد أمر أمرها بالمغرب فإن ابن قسي الذي كان يواجه منافسا عنيدا له وهو ابن هود سيف الدولة السرقسطي رأى أن يتقدم إلى عبد المومن وبعدما كتب إليه ، توجه إلى مبايعته ، فركب البحر إلى سبتة وكان واليها ابن مخلوف السالف الذكر الذي جهزه إلى عبد المومن سنة فتحه لمراكش إحدَى وأربعين ، فاستقبله الموحدي وتحادثا في شأن الأندلس المضطرمة فتنة فكان لهذا أثره الفعال في المستقبل الأندلسي القريب لذلك العهد

وفي سنة 548 نجد الكاتب أبا جعفر ابن عطية ، يوجه رسالة عن عبد المومن إلى الطلبة الذين بسبتة وجميع من فيها من الموحدين خاصة وعامة يعلمهم فيها بالقضاء على من سولت له نفسه الغدر بالدولة ولا شك أنه يعني بهم عبد العزيز وعيسى أخوي المهدي وعلي يصليتن قريب المهدي الذي أتِي به من سبتة مكبولا فأمر بقتله وصلبه بباب مراكش

وكأن الخليفة قد استشعر منهم محاولة للخروج من جديد ولهذا نجد في الرسالة « وتوبوا إلى الله توبة نصوحا غاسلة للقلوب من الأدران ، ونعوذ بالله من الخسران وقد آن لكم أن تجددوا توبتكم وتشهدوا الله

على التمسك بعصم الايمان » وأسلوب الرسالة خطابي منبري للعامة ثم كان أهل سبتة يكتبون إلى عبد المومن بما سن الله لصاحبهم أبي محمد عبد الله بن سليمان ، من ظفر في معركة أسطولية وأنه وأصحابه « اجتازوا بأهل مالقة والمنكب فأظهروا لهم من أحوال الامتناع والاستعداد للدفاع ما أظهروا ثم استخاروا الله على قصد المرية فألفوها قد اخذت باشعار أولئك الأشقياء حذرها فصحبها أولياء الله بكرة باكرتها بحتفها » إلى آخر ما أشارت إليه الرسالة التي أجابهم بها عبد المومن من انشاء أبي جعفر ابن عطية وتدل على أن تلك الجهات كانت لا تخضع للموحدين ولهذا نجد في آخر الرسالة أن التجار الذين يحملون المرافق إلى مالقة وأمثالها « فلتنظروا نظرا أكيدا في قطعهم وردعهم ولا سبيل لأحد أن يمد أحدا من تلك الأصناف بمادة وكل من أخذ حاملا إليهم مادة فالسيف جزاؤه » وكان النصارَى متحصنين بالمرية آنئذ وقد داهموها واحتلوها وغلبوا المسلمين عليها

وفي سنة تسع وأربعين نجد أيضا الكاتب أبا جعفر يكتب عن عبد المومن إلى الطلبة الذين بسبتة وطنجة يعلمهم فيها بتقديم ابنه محمد على بلاد افريقية وولايته عهده وفيها عقد لابنه عثمان على سبتة وطنجة واستوزر له أبا محمد عبد الله بن سليمان التينمللي وأبا عثمان سعيد بن ميمون الصهاجي واستكتب له أبا بكر بن طفيل القيسي ، وأبا بكر بن حبيش الباجي وهذا العدد من الرجال اختصت سبتة به وكان من كتابه محمد ابن جبير الكناني البلنسي الغرناطي توفي سنة 614

ثم كتب رسالة أخرَى إلى الطلبة والأشياخ والأعيان والكافة بسبتة وهي بتاريخ احدَى وخمسين ، يعلمهم بولاية بنيه على بعض الأقطار من المغرب ، ويذكر أنه لم يكن له قصد فارط في تولية ولده ولاية العهد « لكنه أمر الله فأتمه » وهذه كلها تخالف الأولَى في أسلوبها غير الخطابي كما أن هذه الأخيرة كانت واردة عليهم من رباط الفتح « عمره الله ،

وفي سبيل الله ما يربط بروابط هذا الأمر العزيز ويعقد » وفيها « أن يكون أمر غمارة وما اتصل بهم من عمل سبتة وجهاتها راجعا إلى العمل المذكور (لبعض أولئك الاخوة) وان الطلبة العاملين على سبتة تذاكروا مع اخوانهم في معنَى البحر ومجازه واتساع النظر في مراسيه وأحوازه وأنه إذا بقي معه النظر في أمر غمارة وسائر القبائل التي إلى سبتة وطنجة محتاج إلى من يدور عليه ذلك المحيط

ثم في نفس السنة وردت عليهم رسالة أخرَى لنفس الكاتب موجهة إلى الطلبة والأشياخ والأعيان والكافة بالوعظ والنصح وتخبرنا بانابة غيرهم

فهذه الرسائل العديدة التي وجهت إلى سبتة، في هذا الظرف الوجيز وبقلم رئيس الكتاب تنبئ عما كانت لسبتة من مكانة خاصة بها كما قلنا لأنها مفتاح الأندلس كما يقول ابن عذاري وغيره ولهذا نجد عبد الله بن سليمان السالف الذكر يوجه إلى الأندلس في مهام خطيرة فقد وجه به عبد المومن إلى الأندلس للقبض على القائد يحيى بن يغمور . والاتيان به معتقلا لأنه عرض أهل مدينة لبلة لما اقتحمها وهو والي قرطبة واشبيلية على السيف، بظاهر المدينة، حتَّى خلص القتل إلى الفقيه المحدث أبي الحكم ابن بطال والفقيه الصالح أبي عامر ابن الجد وبيعت نساؤهم وأبناؤهم وأمتعتهم وأسلابهم فبلغ ذلك عبد المومن فسخطه ثم عفا عنه وسرحه لتلمسان كما نجد الأمير نفسه يتوجه إلى الأندلس من سبتة ليتسلم مدينة غرناطة من عاملها المرابطي ميمون بن يدر اللمتوني المتنازل عنها بعدما تأكد من فشل المقاومة للموحدين وقد صحب الأمير أبو محمد عبد الله ابن سليمان المذكور وكان صاحب الأسطول بسبتة (كما يقال)

وكما فعل يوسف بن تاشفين . فجعل سبتة احدَى المراكز لانشاء الأساطيل فان عبد المومن نجده سنة سبع وخمسين، يأمر بانشاء

الأساطيل الجهادية في مدن كانت سبتة من أهمها وكان عبد المومن قد عبر من سبتة سنة 555 ثم عاد إليها من جهاده بالأندلس سنة ست وخمسين بعدما أقام بجبل طارق شهرين وسماه جبل الفتح وبنى به المدينة التي مازالت آثارها باقية واستقبل الشعراء من الأندلس والمغرب ودرس في اقامته شؤون الأندلس مع وفودها وكان تقدم بجيش للجهاد فالتقى بفحص بلقون مع الطاغية الفونصو[1] ملك طليطلة أو فرديناند» ملك ليون فكان له الظفر عليه

لقد توفي عبد المومن بعد سنة من أمره بانشاء الأساطيل المذكورة فلما بويع يوسف لم يلبث حتى قامت الثورة بجبال غمارة 560 ولما استفحل أمرها توجه الخليفة لاخمادها ثم عقد لأخيه أبي علي الحسن على سبتة وسائر بلادهم وكان ذلك سنة احدى وستين وفيما قبلها بسنة كان أخو الخليفة أبو حفص عمر يركب البحر من طنجة إلى سبتة ومعه كاتبه عبد الملك بن عياش وبعض خاصته والتحق به بقية ركبه بطريق البر، للعبور منها إلى الأندلس حيث كان أخوهما أبو سعيد قد تخلف عن البيعة وهو رئيس الأندلس

والسبب ــ كما يبدو ــ في كون أبي حفص ركب البحر من طنجة إلى سبتة هو تفادي ما عساه أن يواجهه في طريق البر. من الاشتباك مع ثوار غمارة إذ كان رئيسهم سبع بن منعقاد قد امتدت فتنته من الريف حتى نواحي سبتة فصار يعيث فسادا ويقطع الطريق ويعتدي على سكان تلك الجهات بل ان عيثه وصل حتى نواحي القصر الكبير، كما يقال

وقد وفق أبو حفص في اقناع أخيه أبي سعيد الذي استصحبه معه في عودته فركبا البحر إلى سبتة وأقاما بها أياما في انتظار عبور بقية الركب من جبل طارق ومن الجزيرة الخضراء فتوجه الركب إلى مراكش ولم يقع ما يكدر الصفو لهم

---

(1) انظر البيان المعرب لابن عذارى في هذا.

وفي سنة أربع وستين ، كان يوسف يستدعي أخويه اسماعيل والي اشبيلية وابراهيم والي قرطبة والشيخ الحافظ أبا عبد الله بن أبي ابراهيم اسماعيل أحد أصحاب المهدي العشرة وكان واليا لغرناطة إلى الحضرة فأقاما بها إلى سنة خمس وستين ثم عاد الاخوان إلى أعمالها وصحبهما صاحب سبتة أخوهما أبو علي الحسن ، الذي ولاه الخليفة على «سبتة وأنظارها وجميع أقطارها وجبال غمارة» كما في البيان لابن عذارى وفيه أن ذلك كان بالسنة المذكورة آنفا أي بعد القضاء على الثورة المذكورة 562 فلعل هذه التولية كانت تجديدا لما قبلها

وفي سنة 567 نزل الخليفة بسبتة وبنى له قصر يذكر المراكشي أنه باق إلى يومه

وفي سنة خمس وسبعين ، اشتد عدوان البرتغال وغزوا وادي اشبيلية فوجه إليهم يوسف أسطول سبتة بقيادة غانم بن مردنيش فغزاهم ثم عاد إليهم فأسروه

وفي سنة ست وسبعين وخمس مائة نجد الأسطول البرتغالي يتجه صوب سبتة لضرب الأسطول الموحدي الراسي بمينائها ولكن قائد الأسطول عبد الله ابن جامع أقلع من سبتة به لمواجهة الأسطول البرتغالي في عرض البحر ، وانضم إليه قائد الأسطول باشبيلية أبو العباس الصقلي ، فاجتمع الأسطولان بثغر قادس ثم التقيا بالأسطول البرتغالي ، والتحمت المعركة التي انتهت بالظفر لأسطول الموحدين الذي حمل معه أسرَى البرتغال ففدَى ببعضهم غانم بن مردنيش وأصحابه وأعدم الباقي منهم

وفي سنة ثمانين وخمسمائة كان الخليفة الموحدي يحل بسبتة مع جيشه قاصدا العبور إلى الأندلس بقصد وضع حد لاعتداء البرتغال وفي اقامته هذه أمر بجلب الماء إليها من قرية بليونش في قناة تحت

الأرض وشرع في العمل ثم عرض ما أوجب التربص كما في الاستبصار أما البرتغال فكانوا يعيثون فسادا في البر والبحر ، وكان ملكهم قد نقض العهد الذي كان بينه وبين الموحدين ، فعبر الخليفة إلى جبل طارق ، وسار منه إلى الجزيرة الخضراء فاشبيلية ومنها قصد إلى مدينة شنترين شرقي لشبونة التي كانت أهم قواعد العدوان البرتغالي وكان الخليفة يرَى أن الاستيلاء عليها سيكون ضربة لملك البرتغال ألفونصو هنريكي الغادر الخائن ولكن الخليفة أصيب في هذه الحملة بجراح توفي بها وكان الخليفة في نفس هذه السنة قد وجه بسفارة له إلى محمد ابن غانية صاحب جزر البليار ، وكان أبو الحسن علي ابن القائد « الروبيرتر » القاطالوني[1] على رأس السفارة التي استقبلها ابن غانية بترحاب وأبدَى استعداده للدخول في طاعة الموحدين ولكن اخوته ثاروا عليه وولوا منهم عليا واعتقلوا السفير الموحدي ورجال أسطوله

كان عبد الله ابن جامع أبو ادريس وزير الخليفة هو الذي يتولَّى مدينة سبتة وجهاتها وزيادة على ذلك ولاية الأسطول في جميع بلادهم إلى أن مات الخليفة يوسف ولما خلف يعقوب أباه أعد أسطولا بقيادة أبي محمد بن اسحاق ابن جامع وأبي محمد بن عطوش الكومي وأبي العباس الصقلي فكان الأسطول الهائل يخرج من سبتة لفك الحصار عن قسنطينة التي يطوقها علي ابن غانية وبعدما قام الأسطول السبتي بمهمته غادر مياه بجاية عائدا إلى مراسيه بسبتة سنة اثنتين وثمانين

وكان يعقوب قد ولَّى وجهه في العبور إلى الأندلس ، نحو القصر الصغير ، ولهذا لم نطلع على نزول له بسبتة ، حتَّى في عبوره إلى الجزيرة الخضراء سنة خمس وثمانين ، ثم سنة إحدَى وتسعين ، ليسجل ذلك النصر المبين في موقعة الارك Alarcos القرية الواقعة بين قرطبة وقلعة

---

(1) الذي كان قد أبلَى بلاء حسنا في خدمة المرابطين وقتل مدافعا عنهم الموحدين سنة 539 ، فتحول ولده علي هذا إلى خدمة الموحدين بعد اسلامه ، فقام بمهام الأعمال وكان من ذلك عبوره سفيرا إلى جزر البليار من سبتة .

رباح وكذلك نجد ابن أبي زرع يذكر أن المنصور في جوازه الأول أجاز من القصر الصغير إلى الجزيرة الخضراء

وفي عهد ابنه محمد الناصر استمر الحال على ما كان أيام أبيه فكان عبوره إلى الأندلس بنصف مليون من الرجال من القصر الصغير، فاحتل بمدينة طريف ومع ذلك التحول فإنه في أيامه كانت أحداث ذكر فيها الأسطول السبتي في سنة 597 هاجم عبد الله بن اسحق الغاني جزيرة يابسة التي كانت تحت حكم الموحدين فقاومه أمير البحر ابن ميمون وكانت الأساطيل الموحدية آنذاك راسية في مياه سبتة فأصدر الخليفة أمره إلى أسطول سبتة وأسند قيادة الأسطول إلى عمه أبي العلاء ادريس(1) واستعمل على الجيش أبا سعيد عثمان من أشياخ الموحدين ففتحا جزيرة ميورقة عنوة وقتل أميرها عبد الله المذكور وكان ذلك الظفر سنة 599 ثم دخلا مراكش بالأسرَى

وفي سنة 600 ولى الناصر أبا عبد الله بن عبد السلام الكومي قيادة أسطول سبتة بعد أبي محمد بن طاع الله كما في البيان

وبعد هذا جاءت الأخبار بتسلط يحيَى بن اسحاق الميورقي على عاصمة افريقية وغيرها فأصدر الخليفة أمره بتوجه الأسطول إلى مياه افريقية فتوجه أسطول سبتة على الفور لاستنقاذ افريقية وعين لامارته الناصر أبا يحيى بن أبي زكرياء الهزرجي وسار هو على رأس جيشه برا فلما علم يحيَى باقتراب الأسطول السبتي منه فر وتمكن الموحدون من المدينة واحتلوها وأعطى قائدهم الأمان لأهلها فسر لذلك الناصر سرورا عظيما وطارد جيشه الميورقي الغازي وكان ذلك سنة 601

ويبدو أن ابن غانية استطاع أن يصل إلى نواحي سبتة بعده في سنة 604 وكان الناصر قد عاد إلى المغرب وجدنا ثورة له بالمكان « شيدو » ولعله المعروف بخادو اليوم إذ قد ورد في « إعتاب الكتاب » ما يفيد هذا في ترجمة ابن يحيى

(1) هو إدريس بن يوسف ممدوح الشاعر ابن خروف.

وكان الفساد قد ساد الأجهزة الحكومية أيام محمد الناصر فرأى أن يبدأ بعملية تطهير، فنال من ذلك قسطه الأوفَى عامل فاس ورجال حاشيته كما نال عامل سبتة كذلك جزاءه وكان عاملها محمد بن يحيى المسوفي الذي أمر بالقبض عليه لاهماله وتعفن ادارته برجالها العابثين

ويذكر ابن عذارى محمدا هذا بأنه كان عامل قصر كتامة وسبتة وهذا يفيد أن عمالة سبتة كانت قريبة مما كانت عليه أيام المرابطين

يقول عبد الواحد المراكشي وأعمال سبتة هذه في غاية السعة والضخامة لأن بلاد غمارة كلها ترجع إليها وهي طولا وعرضا نحو من اثنتي عشرة مرحلة (فهذا وصف معاصر)

ويبدو أن هؤلاء العمال كانوا من أشياخ الموحدين ولهذا نجد ذويهم ينتقمون لهم انتقاما جاهليا بعد سنة من التنكيل بهم وذلك في نكوصهم بموقعة العقاب كما في البيان المغرب « فلم يجدوا في تلك الغزوة ولا نصحوا فيها لأجل نكبة أميرهم الناصر لأشياخهم وقتله واستئصاله لهم على يد المفوض ذلك إليه ابن المثنى[1] وذكروا أن بعض الناس كان يقول (عند الهزيمة) « مدها قل لابن المثنى يردها

وقبل أن نودع هذا العهد نلاحظ فيه وقوع تحول في الميزان الحكومي للدولة فإن الناصر لما تمكن من استرداد افريقية وطرد يحيى ابن غانية منها قال للشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي « يا أبا محمد أنت تعلم ما تجشمناه من المشاق والصوائر في استنقاذ هذا القطر ولا آمن عليه من عدو متوثب ولا يقوم بحمايته إلا أنا أو أنت فامض إلى حفظ ممالكنا المغربية وأقيم أنا أو أقم أنت وأرجع أنا فأذعن جد الحفصيين هذا للإقامة بافريقية واشترط لذلك شروطا منها أن لا يتعقب أمره في ولاية ولا عزل

---

(1) هو الشيخ أبو محمد بن أبي علي المثنى صاحب الأعمال المخزنية والمفوض إليه الأشغال العملية.

ومعنَى هذا أن الدولة الموحدية قد انشطرت فعلا إلى شطرين، وأن الخليفة الموحدي أصبح على ادراك من كون الحكم المركز بالحاضرة سيعجز لا محالة عن المحافظة على هذه الأقطار الشاسعة، التي لابد أن يخطط لها المصير المضمون. ولهذا ما اطمأن الناصر على افريقية حتَّى بدأ يخطط خطته لوضع حد لما كانت عليه الأندلس من تخبط ومواجهة العدوان الخبيث، من الملك النصراني الموتور بانهزامه في «الأرك». ولاشك أن الناصر العظيم، الذي أصبح يطلب حمايته ملوك أوروبا، وملك بريطانيا[1] جون John كان سيفعل بالأندلس ما فعل بافريقية ويقيم عليها أميرا قويا ولكن الخطة فشلت بموقعة « العقاب » التي تلتها أخرَى تماثلها في موقعة «القصر» بالبرتغال ، حيث أتَى القتل على كل من كان فيه سنة 614 وتلا سقوط «القصر» بيد النصارَى سلسلة ملتهبة من سقوط البلاد الاسلامية تحت أقدام النصرانية العاتية وكان في المقدمة بعد ذلك سقوط قرطبة سنة 634 ثم بلنسية سنة 636 ثم اشبيلية بعد اثنتي عشرة سنة هذه الحوادث التي كانت تدمي القلوب بالأندلس فيهيم أصحابه على وجوههم فيركب بعضهم البحر تاركين وراءهم هذا الفردوس الجميل وقصد معظمهم مدينة سبتة التي مثلت أدوارا خطيرة حملت بها تلك الأحداث السالفة الذكر، كما سنرَى

الفصل الثاني سبتة بعد الخلفاء الأربعة من الموحدين

منذ هذا التاريخ صارت سبتة تواجه عدة أحداث كانت مصدراً لانقلابات ووضعيات عديدة بها وتيارات تسلطت عليها كما سنرَى فيما بعد

---

(1) أشار إلى هذا أشباخ في تاريخ الأندلس ، وكتاب انجليز مثل Nevill Barbour في كتابيه «Morocco» و «North west africa» وحاضر في هذا بمؤتمر فترجمت ذلك بمجلة «تطوان» وآخرين مثل Frances Macnal صاحب كتاب «A Ride on morocco»

ويبدو أن سبتة كان يليها قبل أبو يحيى صهر الناصر، فهو يذكر بصاحب سبتة في النفح عند مناسبة ما جرى بين الشقندي وابن المعلم الطنجي كما ذكر بذلك لما استوزره مستنصر بني عبد المومن وهو المنتصر وفي « المغرب » ذكر أنه في عهد المستنصر كان بسبتة ملكا أبو يحيى بن ابراهيم الذي مدحه المتيطي بأمداح كثيرة وهو أحمد أبو جعفر بن محمد وهذا غير أبي جعفر أحمد بن جعفر الذي سكن سبتة أيضا ومدح الوزير ابن جامع وكان مشهورا بالتوشيح

وكان الكاتب محمد بن عبد العزيز قد كتب لأبي يحَيى زكريا صاحب سبتة كما في « المغرب أيضا فالغالب أنه نفسه تولاها للناصر ثم للمستنصر

ويذكر ابن سعيد أن والده التقَى في سبتة بالشاعر ابن حريق قاصدا لمدح ابن عبد الصمد صاحب أعمالها وهو المختص بالشؤون المالية من تولية المجابي وأموال النفقات والمحاسبة عن كل ما يتصل بأموال الدولة تحصيلا وانفاقا ولاَّه أبو يحيى المذكور سوى هذا فقد ورد في « الغصون اليانعة » أن ابن خروف الشاعر مدح بسبتة ملكها إدريس بن يوسف بن عبد المومن وربما كان ذلك أيام ابن أخيه وقد تولَّى هذا جهات من الأندلس وافريقية أيام يوسف الثاني .وظل عليها إلى سنة 620 كما يذكر عبد الواحد الذي ذكر أيضا أن ابن أخيه الناصر ولاه إمارة الأسطول الذي تقدم ذكره وبما أن الأسطول السبتي كان له شأن في مثل تلك الأعمال الخطيرة فلا يستبعد أن يكون بعد قد تولاها من كان مشرفا على قيادته وعليه فإن ادريس يكون واليا على سبتة منذ أيام الناصر[1]

وعلى كل حال فقد مدحه ابن خروف وهو وال أو ملك سبتة ، كما يقول ابن سعيد، وكانت كلمة ملك لا تعي ما نفهمه الآن ، خصوصا في العهد الموحدي المعروف بخلفائه فقال في قصيدة يصفها في نهايتها

---

(1) في البيان لابن عذارى أنه بَنَى بسبتة بابها الجديد ، وهو الذي بَنَى «برج الذهب» باشبيلية

خذها إليك عروسا لا كفاء لها
تزيد جدتها ما دامت الحقب
عذراء أخجلها ما فيك من عظم
حتّى لكادت من العلياء تنتقب
إن لم تكن أحرزت من ربها حسبا
فإن مدحك في أثنائها حسب

وفي أيام العادل ابن المنصور وجدنا ابن يرجان يوجه من قبله إلى سبتة بعدما بويع بمرسية سنة 621 وكان أبو زيد ابن يرجان هذا له أكبر المجهود في مبايعة العادل وخلع عبد الواحد الذي صار يعرف بالمخلوع لأنه أول خليفة خلع في الموحدين فاتخذه العادل وزيره ولكنه صار يتبرم منه لاستبداده بالأمور واستئثاره بها فلم يجد حيلة للتخلص منه إلا أن صرفه إلى العدوة وجعله نائبا عنه بسبتة وبذلك كانت لسبتة أهمية عظيمة في شؤون الدولة بالمغرب حيث إن الخليفة وهو لم يبرح مكانه من الأندلس يولي عليها ثم ركب البحر إلى القصر الصغير مبادرا إلى الحضرة مراكش وتاركا أخاه بالأندلس ادريس أبا العلاء واضطربت على العادل الأمور فدعا أخوه في الأندلس لنفسه وتلقب بالمامون فبايعه أهل سبتة وهو لما يزل بالأندلس وكذلك فعلت طنجة سنة 624

وسرعان ما عزم المامون على العبور إليها وكان واليها بعد ابن يرجان أخوه أبو موسى ابن المنصور فأجاز إليها مع قوة من الفرق الاسبانية سنة 626 فكان أول من أجاز النصارَى من الأندلس مستعينا بهم على إقامة ملكه ومكث في سبتة مدة ينظم شؤونه ويلم شعثه ويستعد للتوجه إلى الحضرة والقضاء على ابن أخيه الخليفة يحيى ابن الناصر ، الذي بويع بمراكش بعد قتل العادل ومبايعة المامون

وفي هذه الأثناء كان المتنبي محمد بن أبو الطواجين القصري قد ارتحل

إلى سبتة ونزل على بني سعيد بأحوازها فاجتمع عليه الغوغاء وكانت به فتنة إلى أن زحفت عليه عساكر سبتة ففر إلى « وادلاو » حيث لاقَى مصرعه وكان قد تسبب في قتل المولَى عبد السلام ابن مشيش

ولما غادر المامون سبتة قامت بها ثورة عليه وقد دعا أخوه إلى نفسه بالخلافة فيها وهذه أول مرة نرَى مبايعة لملك في سبتة بادئ ذي بدء باعلان الثورة فيها على صاحب الملك[1]

وهكذا وجدنا خليفة ينصب بها خالعا لخليفة قائم بنفس القطر وفي العاصمة مراكش ولم يكن عامله هذا على سبتة مرشحا للخلافة ومن قبل كان المامون نفسه في الأندلس قد خلع من ربقته طاعة أخيه العادل وبايع لنفسه وكان هذا أيضا قد خلع طاعة عبد الواحد وهو بالأندلس فكان أول خليفة موحدي يبايع بها وهو عامل عليها

وما سمع المامون بهذا النبأ المفزع حتَّى خف إلى سبتة للقضاء على أخيه الناجم بها ولكنه ما وصل وضرب عليها الحصار حتَّى ورد عليه الخبر بوقوع مراكش في يد يحيى ابن الناصر المذكور ، فاضبطر المامون إلى العودة إلى مراكش واستنقاذها من ابن أخيه سنة 629

وكانت سبتة أثناء الحصار البري لا تحس بضائقة الحصار لأن المنجنيق لم يؤثر في أسوارها الحصينة ولأن ابن هود الذي كان أقوَى الأمراء المستقلين عن الموحدين في الأندلس كان يمدها بالميرة والذخيرة من البحر وذلك حسب اتفاق له مع أخي المامون المستخلف بها فكان أهل سبتة كما يقول ابن عذارى في نعمة شاملة طيلة ثلاثة أشهر من الحصار لأن أكثر عيشهم إنما هو من جهة البحر ولو حاصرهم أعواما

---

(1) نعم، رأينا يحيى الحمودي ، خرج على عمه القاسم ، ولكن اعلانه لم يكن في سبتة نفسها وهو صاحبها بل انه مهد لذلك بأن تبادل مع أخيه ادريس بمالقة وفي هذه أعلن الخروج على عمه فلما قتل ، كان طبيعيا أن يعلن ادريس خلفا له ، وهو بسبتة ، وكلاهما كان وليا للعهد مرشحا للخلافة كما تقدم

وربما كان ابن هود الموعز إليه بهذا الاستخلاف الذي سنرَى له مثيلا أيام المرينيين والعلويين . فيما بعد وهذا ما فك المأمون الحصار عن سبتة حتَّى وجدنا أبا موسى بدل أن يتنفس الصعداء ويعمل على توطيد خلافته يركب البحر تاركا سبتة ومتوجها إلى ابن هود ليبايعه ويدخل في طاعته وكان ذلك في نفس السنة 629

وكان ابن هود من ناحيته قد بايع للخليفة العباسي فتكون سبتة تلقائيا قد بايعت هذا العباسي ولكن هذا الأمر لم يستقر فإن أبا موسى ما نزل لابن هود عن سبتة ، بعد أن أعانه على استيلائه على جبل طارق والجزيرة الخضراء وصار المضيق في حوزته وعهد بحكم سبتة إلى نائبه الغشتي ، فلبث بها بضعة أشهر ، حتَّى ثار أهلها به وطردوه منها وقد كان هذا الغشتي وصاحبه ابن هود كما نقل ابن عذارى عن كاتب من عوام الأندلس — فيما يبدو— «رجلا حواسا وتحت يده جماعة كبيرة من أراذل الناس ، السفلة الخساس ، صاروا له أعوانا وجساس ، فكان يقطع بهم الطرقات في تلك النواحي والجهات[1] كأنهم مغاورين فيها للروم المجاورين إليها حتَّى اشتد ضرره هنالك بالأرض ومن عليها ولحق أذاه المسلمين المترددين في طرقاتهم لتجاراتهم

وكان هذا محمد بن يوسف[2] رجلا من أصناف الجند بمرسية وغيرها لكنه كان لأسلافه القدماء تقدم ملك تلك البلاد الشرقية الأندلسية ، تقلدوا حكمها قديما وأمرها فقيل إن بعض المنجمين كان يقول لبعض أمراء بني عبد المومن إن قائما يقوم عليكم بتلك البلاد ، يكون من صنف الأجناد ، اسمه محمد بن يوسف فقتلوا بسبب ذلك شخصا بجيان يسمى بذلك الاسم ، وظنوا امتحاء ذلك الاسم

فلما كان في بعض الأيام لقيه شخص منجم يدعى ذلك العلم بزعمه ،

(1) يريد شرق الأندلس
(2) ابن هود

ويحكم بما يراه في نجمه ،،، فنظر إليه وقال له ؛ يا أبا عبد الله ، أنت هو سلطان الأندلس فانظر لنفسك ، وانج برأسك ،،، وأنا أدلك على من يقيم لك ملكك وتكون جماعته خدامك ورجالك ، فنهض أبو عبد الله محمد بن يوسف المذكور إلى تلك الجماعة ومقدمها الغشتي المشار إليه ، فلما وصل إليه وقص خبره عليه سر الغشتي بذلك سرورا عظيما فقال المقدم[1] لابن هود ، ما بيني وبينك كلام في شيء من الأشياء ، حتى تخرجوا معك للمغاورة ونجتمعوا عليك وننسوا خروجنا إليك ، فخرجوا على سعده إلى جهة فكان قد انضاف إلى ابن هود أناس آخرون اتبعوه ثم زادها إثر تلك الوجهة طائفة أخرى وانضافوا جميعا مع طائفة الغشتي ، فنهضوا إلى موضع يعرف بالصخيرات ، بمقربة من مرسية فبايعوه هنالك براية سوداء ، يدعي أنه قائم بدعوة بي العباس ،،،

وعاهد لصاحبه الغشتي أنه إن ملك ملك الأندلس أن يعطيه القيادة الحربية ، فكان ذلك ،،، فلما ملك إشبيلية أعطاه قيادة أساطيلها إلى أن أطاعت له سبتة ، فأعطاه إياها قيادة وعملا»[2]

وهكذا فرض على السبتيين أن يحكمهم صاحب ابن هود ولما واتهم الفرصة خلعوا عهم طاعة ابن هود ثم بايعوا بها الحاج أبا العباس اليانشتي ، سنة ثلاثين وست مائة ، كما سيأتي

وبعد فهذه سبتة الموحدية وهذه تقلباتها وأحداثها السياسية في العهد الموحدي الأخير وبقي أن نلقي نظرة على نشاطها العلمي داخل هذا النطاق الزمني الذي يسع أكثر من مائة سنة قام به السبتيون أنفسهم وشاركهم الأندلسيون ، الذين تعرضت بلادهم للاكتساح النصراني

---

(1) القائد الغشتي

(2) انتهى من الجزء الثالث للبيان طبعة تطوان ص 255 ــ 257 .

الغاشم فاضطروا لمغادرة بلادهم واللجوء أفرادا وجماعات إلى هذه الفرضة التي لا تضيق بنزلائها وإن ضاقت في بقعتها

ولو حاولنا أن نتتبع في هذا الظرف تراجم السبتيين والأندلسيين المقمين بها ترجمة وافية أو قريبة من الوفاء لتطلب ذلك سفرا أو أسفارا وفق التناول لها فحسبنا في هذه العجالة أن نذكر بعض الممتازين من رجالها وأسماء بعض النازحين إليها بدون تعرض في الغالب إلى مزاياهم العلمية وآثارهم التأليفية وغيرها

وإذا كانت سبتة المرابطية تفخر بالقاضي عياض الذي خلف وراءه جيلا بل أجيالا تحمل رسالته بل رسالاته العلمية المختلفة وتحمل حتَّى الآن ألويته الخفاقة في مجالات شتَّى فإن سبتة الموحدية يحق لها أن تجعل الشريف الادريسي في مقدمة المسيرة التي سار فيها العالم الجغرافي وما زال حتَّى الآن يلهج بذكر أستاذه ويتهافت على نشر تراثه وترجمته إلى مختلف اللغات العالمية ومحمد الادريسي يعد في الحلبة الأولَى لهذا الرعيل الموحدي الأول فقد أدرك العهد المرابطي وعاصر القاضي عياض إلا أن آثاره بعكس عياض تنطق بالعهد الموحدي الذي ظهرت فيه وقد ولد بعد القاضي عياض بثلاث عشرة سنة وتوفي بعده بثلاث عشرة كذلك[1]

وهو من سلالة أولئك الحموديين الذين أعطوا لسبتة طابعها الخاص وجعلوا مكانتها ترتفع مع الزمان ولا تنخفض إلا حينما نالها

(1) وكما كان عياض يقرض الشعر ، كان الادريسي كذلك يفعله غير أن النماذج التي ساقها الصفدي في الوافي بالوفيات. دون المستَوى الذي كان عليه شعر القاضي عياض. وأجملها قوله

من قبل أن أمشي على قدم المنَى سعَى قدمي في المدح سعيا على الرأس

وقوله

ولبل كصدر أخي غمة قطعناه حتَّى بلغنا النجاح
وبدر السماء بدا في النجوم كما لاح في الناس بدر السماح

المسخ النصراني البغيض انه حفيد لذلك الخليفة الأخير. ادريس بن يحيى بن علي فهو ابن محمد ابن عبد الله بن ادريس المذكور

وكما قلنا إن الكلام على القاضي عياض من قبيل تحصيل الحاصل فكذلك الكلام على الشريف الادريسي الجغرافي والرحالة العظيم وكما سبق فما يلفت نظر الدارس لسبتة آنذاك أن سبتة أصبحت مركزا للتصوف ورجاله سلوكا وفكرة وقد وضع اللبنة الأولَى له في الواقع القاضي عياض نفسه فإن ابن العريف ما ظهر بتصوفه في شرق الأندلس حتَّى كان القاضي عياض يتصل به ويكاتبه ويذاكره ولعل تناوله للسيرة النبوية بتلك الاشراقة الروحية التي لم نعهدها قبله لعل ذلك كان منبثقا عن هذه النزعة الصوفية التي لم تهتم بالغزوات ونحوها اهتماما بالسلوك السامي والقدسية الالهية لنبي البشرية كافة بشيرا ونذيرا وما كان كتاب أبي العباس العزفي في المولد النبي على ما نعتقد إلا منطلقا من كتاب الشفا وهو عمل انفردت به سبتة لذلك العهد فما وجدنا له ضريبا لا في الأندلس ولا في المغرب فالعزفي هذا حدثه أبو القاسم ابن عباس الجذافي عن عياض في السبع وسمع كتاب الشفا على أبي ذر مضعف بن مسعود وغيرها من كتب الحديث لعياض كما سمع الشفا على أبي عبد الله محمد ابن غاز الأنصاري وغيرها لعياض

ومن تلاميذ القاضي عياض المتصوفين أبو عبد الله الفخار السبتي المتوفى سنة ست وثمانين وخمس مائة فهو من أصحابه كما نجد بالاستقصا وهذا المتصوف الزاهد هو دفين تطوان وضريحه مقصد للزوار [1]

من تلاميذ هذا المتصوف الشيخ أبو العباس أحمد بن جعفر الخزرجي

---

(1) وفي منتصف هذا القرن، شاعت في المغرب شائعة تحدث بها الخاصة والعامة بالمغرب وسألني فيها عالم فاس آنذاك، مولاي عبد الله الفضيلي في جماعة من العلماء بفاس وقامت لها السلطات المخزنية على رأسها الوزير الصدر الفقيه بن عزوز للتحقيق فيها ونحن مع رفضنا لوقوعها (مسخة خلقية) لمن دنس ضريحه بارتكاب جريمة تحت سقفه، لا نهمل ما تحمل هذه الشائعة من تقديس عظيم لهذا الزاهد

السبتي دفين مراكش التي توفي بها سنة 611 وقد اشتهر هذا القطب العالم بسلوكه الانساني كما اشتهر بآرائه وأفكاره في الاحسان تلك التي انبثقت من قوله تعالى « ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وقد أدركنا الأسفنجية » لا يبيعون إسفنجهم إلا بعد الاحسان « بالمقلاة » الأولَى على من يقصد دكاكيهم وكان « المحاضرة المبكرون « بتيبيس ألواحهم في أفران الأسفجنية ينالون نصيبهم من هذه « العباسية » التي إن لم تجد أصحابها حاضرين بقيت في « بيجانها » تنتظرهم ولا جزاء ولا شكورا عليها

فنظرية الاحسان التي أوجبها أبو العباس السبتي صارت تسترعي نظر الفلاسفة لعهده إذ وجدنا الفيلسوف أبا الوليد ابن رشد يوجه خصيصا إليه الفقيه أبا القاسم عبد الرحمن بن ابراهيم الخزرجي ليخبره بمذهبه ويعلمه بأهدافه وما صدع بأمره وما عاد إليه بما خبر حتَّى قال الفيلسوف أبو الوليد كلمته « هذا رجل مذهبه أن الوجود ينفعل بالجود »

انها فلسفة اشراقية اسلامية حقا دعا إليها أبو العباس السبتي ولم يدع إليها كفكرة مجردة بل كسلوك خلقي اجتماعي يهدف إلى أكثر من هدف باحسانه الذي دعا إليه منطلقا من الآية الكريمة فاستجيب دعاؤه حيا وميتا وصار قبره بباب تاغزوت من مراكش مأدبة تعرض عليها أطعمة تأتي إليها من كل فج عميق كما قال صاحب الاستقصا

ومن متصوفة سبتة لذلك العهد أبو الحسن علي المسفر ، الذي ذكر له الحاتمي من شعره هذه الأبيات

يا أيها المبتلى بذمي قد علم الله ما تقول
فالقول ان خف في لساني أخافني وزنه الثقيل
وحافظ كاتب شهيد يكتب عني الذي أقول
من حاسب النفس كل حين لم يتهاون بما يقول

وكما كانت سبتة تطفح بعلمائها فقد كانت تهدر بشعرائها الذين كانوا يعقدون فيما بينهم ندوات وجلسات ومساجلات مثلما ينقل المقري في نفح الطيب وغيره فقد ذكر أنه اجتمع جماعة من الأدباء فيهم أبو الحسن سهل بن مالك والمهر ابن الفرس وغيرهما بمدينة سبتة سنة 581 فتذاكروا محبوبا لهم يسكن الجزيرة الخضراء أمامهم فقالوا ليقل كل واحد منكم شيئا فيه فقال سهل بن مالك

لما حططت بسبتة قتب النوَى والقلب يرجو أن يحول حاله
والجو مصقول الأديم كأنما يبدي الخفي من الأمور صقاله
عاينت من بلد الجزيرة مكنسا والبحر يمنع أن يصاد غزاله
كالشكل في المرآة تبصره وقد قربت مسافته وعز مناله

فقال الجماعة والله لا يقول أحد منا بعد هذا شيئا

ومما قيل في رجالها لهذا العهد ما ورد لأبي موسى الطرياني الذي هاجر إلى المغرب ، وسكن قصر عبد الكريم (القصر الكبير) وتوفي سنة 639 وهو أنه رفع إلى القائد أبي السرور صاحب ديوان سبتة قصيدة يتعرض له فيها بزاد ، وقد عزم على سفر فأنعم عليه بذلك ثم اتبعه بتحف مما يكون في الديوان مما يجلبه الافرنج إلى سبتة ولم يكن التمس منه ذلك ولا خطر بخاطره فكتب إليه

أيا سابقا بالذي لم يجل بفكري ولم يبد لي في خطاب
ويا غائصا في بحار الندَى ويا فاتحا للعلا كل باب
كذا فلتكن نعم الأكرمين تفاجي بنيل المنَى والطلاب
ولم أر أعظم من نعمة أتتني ولم تك لي في حساب
سأشكرها شكر عهد الرضَى وأذكرها ذكر غض الشباب

ومما ذكر ابن سعيد لهذا الشاعر ، قوله في « المدينة » التي يعملها أهل المغرب من العجين بأصناف الألوان ، في النورز المعروف عنهم بينير

مـديـنـة مصورة تحار فيهـا السـحـرة
لم تبهـا إلا يدا عــــذراء أو مخدرة
بدت عروسا تجتلي مـن درمك مـزعـفـره
ومـا لها مـفـاتـح إلا الـبـنـان الـعشره

ولعل شوقي رحمه الله اطلع على هذه الأبيات ضمن قراءته بالأندلس فقال قصيدته المعروفة في مملكة النحل على وزنها ورويها

مملـكـة مـدبـره بـــامـــرأة مؤمـــرة
تحمل في العمال والصنـ ـــاع عبء السيـطرة

إلى أن يقول

كـأنها جـاندرك في كـتـبـة مـعسـكـرة

فقد كان شوقي رحمه الله في منفاه بالأندلس لا يفتر عن قراءة مدخراتها وكنوزها الأدبية ودواوينها العديدة(1)

وفي نفح الطيب أن الطرياني كان قد أعجب بهذه « المدينة المتخذة من العجين في دار لبعض الأكابر فقال له صفها وخذها فقال الأبيات

ومن أدباء سبتة وفقهائها في القرن السادس وأوائل السابع أبو عبد

---

(1) لا شك أن ديوان ابن زيدون كان منها ، وأنه قرأه وأعجب بصاحبه . ولهذا نجده يصدر هذا الديوان لأول طبعته بقصيدة يستهلها بقوله

يـا ابن زيـدون مـرحـبـا قـد أطـلت الـتـغـيـبـا

وقال لي بعض الزملاء الاسبان من برشلونة انه كان يصعد إلى الربوة المعروفة الآن باسم «تيبي دابو» مصطحبا دائما معه كتابا وربما كان يقيم في هذا الموقع الذي يقصده زوار المدينة للنزهة والفرجة وكنا قد أشرنا في تعاليقنا على ديوان أبي الربيع الموحد إلى ما له من نظرات إلى هذا الديوان . في بعض قصائده أحسنا بذلك احساسا قويا

الله محمد بن حسن الفهري المعروف بابن المحلي ومن شعره قوله في المناجاة

يا من أناجيه والأشواق توهمني نيل الوصال كأن الشوق يوجبه
كم طيبة لك بالألطاف توجدها عند اللقا ومنأى منك أطيبه
فارحم تقلب قلبي فهو شيمته حتَّى تكون بما ترضَى تقلبه

ومن نسيبه الرقيق الصوفي قوله

أبوح بما ألقاه فهو مباح
فقبلي أرباب المحبة باحوا
إذا باح من قبلي ولم يلق بعض ما
لقيت فإني ما علي جُناح
وإن فنيت أجسادنا وقلوبنا
فتلك العهود السالفات صحاح
سمحت لكم بالنفس كي أربح الرضى
على ثقة أن السماح رباح
فؤادي منقاد اليكم مذلل
فما لي إذا لحَّ العذول جماح
وهل من سبيل أن أطير إليكم
وقد قص لي ريش وقص جناح
تغير وقتي بعدكم فكأنما
صباحي مسائي والمساء صباح

إلى آخر القصيدة التي نجدها كغيرها بالاعلام لابن إبراهيم[1] ومن شعره قوله من قصيدة كذلك

(1) تناوله بالترجمة وذكر كثيرا من أشعاره ، مصرحا بنقله عن الذيل والتكملة ، ورجعنا إليها فلم نجد بها ذكرا لذلك فيما طبع منها .

واني لأستحييه أن أشكو الهوَى
وما لي بما حملت منه يدان
ومن فضله وجدي به وتولهي
ومن جوده ما أشتكي وأعاني
ظهرت على حبي له فكأنما
براني لمعنَى الحب حين براني

ويبدو من نونيته التي منها الأبيات ، أنها في المناجاة الإلهية أيضا

وبعدما كانت المساجد والجوامع في سبتة تؤدي مهمتها في التعليم وكان منها — غالبا — مسجد عياض الجد ثم مسجد ابن عبيد الآتي ذكره فقد صارت المدارس تبنَى بالإضافة إليها لهذه المهمة

والغالب أنها كانت تقوم بمهمة التعليم والاسكان للطلبة الآفاقيين ، الواردين على سبتة للتعليم على أساتيذها كما كان عليه الحال التي أدركنا عليها العاصمة العلمية فاس

ويذكر صاحب الكتاب « قيام دولة المرابطين » أن المدارس كانت منتشرة بسبتة في العهد المرابطي وقد أحال في بعضها على كتاب التكملة » لابن الأبار ، ولكننا لم نعثر على هذا ولما نتحقق منه حتَّى الآن وكل ما انتهَى إليه علمنا أن أبا الحسن الشاري ، تلميذ ابن عبيد الله المذكور ، بنَى مدرسة بسبتة ووقف عليها أوقافا من كتب وغيرها واشتهرت هذه المدرسة اشتهارا عظيما وتردد ذكرها في عدة كتب ذكرت سبتة أو صاحبها عليا الشاري ، رحمه الله

والشاري هذا من أصل أندلسي درس بسبتة وأخذ عن أعلامها مثل ابن الكاد الخشني السبتي وابن عبيد الذي اعتمده كثيرا وكان هذا أستاذ الجيل لعهده ، ولا شك أنه أوحَى إلى تلميذه ببناء مدرسته العريقة الأصيلة ، وتوفي سنة 641 .

بعد هذه النبذة فهذا استعراض لبعض العلماء الذين كانوا بسبتة لذلك العهد

فيهم السبتيون أصالة وفيهم الواردون عليها والنازلون بها

فمنهم ابن القاضي عياض أبو عبد الله محمد ، الذي تولّى القضاء كأبيه بغرناطة أخذ عن أبيه وأبي بكر ابن العربي وقرأ على ابن بشكوال كتابه « الصلة » بالأندلس وتوفي سنة 575

وولده أبو الفضل عياض روَى عن أبيه وابن عبيد الله وأبي بكر ابن الحداد قاضي سبتة وكان أديبا شاعرا مشاركا في العقليات والنقليات وتوفي سنة 630

وابنه عبد الملك محمد قرأ بسبتة وأسند بها كما في « الإحاطة » فأخذ عن القاسم عبد الرحمن ابن القاسم القاضي المتفنن كتاب « سيبويه » ودرس على آخرين يطول ذكرهم وتوفي سنة 654

ومنهم ابن الجميل (بوزن قبيط كما في القاموس) وهو حسن بن فرج الداني من أهل النباهة والفهم والادراك توفي سنة 571

وولده الحافظ المشارك أبو الخطاب عمر ابن دحية صاحب كتاب « المطرب من أشعار أهل المغرب » توفي بمصر قبل سنة 640

وأخوه أبو عمر عثمان الحافظ اللغوي ، أخذ كأخيه بسبتة عن ابن عبيد الله كثيرا كما أخذ عن ابن زرقون الآبّي ، وتوفي بمصر كذلك

ومنهم يحيَى بن الصائغ أخذ بسبتة عن الأستاذ ابن عبيد الله وغيره ، وتوفي سنة 600

ومنهم ابن خروف الشاعر القرطبي أبو الحسن علي بن محمد بن يوسف ، نزل بسبتة ومدح والي الناصر عليها — كما استظهرنا فيما سلف — ، واجتمع بعلمائها كابن دحية ، وتنقل في المغرب ، ثم هاجر إلى المشرق وتوفي بحلب سنة 606 .

ومنهم ابن خروف النحوي نزل بسبتة وتنقل في مدن المغرب تاجرا ومعلما وهو أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن محمد الاشبيلي من أساتيذه أبو بكر الخدب الذي درس عليه كتاب « سيبويه » فشرحه في أربع مجلدات ورفعه إلى الناصر فأجازه بأربعة آلاف درهم توفي قريبا من وفاة سميه فقد وقع الخلاف من 605 إلى 610 وذكر كذلك في وفاة الشاعر أنه توفي بعد 610 وهذا أتّى من اختلاط الترجمتين للرجلين

ومنهم عمر بن مردود الفارسي السلماني سكن سبتة مدة وانتقل إلى مراكش وأقرأ الفقه وعلم الكلام وسمع عنه الحديث. توفي سنة 639

ومنهم علي بن أحمد الجذامي الكفيف المقري روَى عنه بسبتة ابن المعذور السبتي أحمد وأبو القاسم ابن الخراز وقال فيه كما في صلة الصلة علي بن محمد بن الغماد الضرير المالقي وقد اعتمد ابن الزبير. على الأستاذ أبي علي ابن سعيد الطراز ولاشك أن هذا غير علي بن أحمد الجذامي من أصحاب أبي علي الصدفي وذكر في معجم ابن الأبار وصلة ابن بشكوال وبغية الضبي

وعلي بن محمد ابن العمادية أبو الحسن وهو من شيوخ أبي القاسم عبد الرحمن بن علي الجذامي حدث عنه أبو العباس العزفي في السبع قراءات

ومنهم الحسن بن ابراهيم الخزاعي الخضراوي أقرأ بسبتة العربية وكثر عنه الأخذ فيها وكان محققا في علمه وتوفي سنة 595

ومنهم يحيى بن محمد بن رزوق الألمري الحافظ المحدث الزاهد قال الضبي شارك أشياخي في أكثر شيوخهم وتوفي سنة 560

ومنهم ابن الدباج وهو علي ابن جابر الاشبيلي أخذ عن ابن عبيد الله من اشبيلية وتوفي باشبيلية قبل أخذها بتسعة أيام

ومنهم عبد الله بن محمد الحجر الألمري نزل بسبتة وأقرأ بها ولقيه

الضبي وقرأ عليه كتاب مسلم وكان معظما في سبتة توفي سنة 591

ومنهم القاضي محمد بن الحسن النباهي المالقي كان قد اتهم بالقيام على ابن هود فهاجر وابن عمه واستقرا بسبتة وتوفي 631

ومنهم حيان بن عبد الله بن حيان الأنصاري الأوسي من أهل بلنسية روَى عن عبيد الله بسبتة وكان لغويا شاعرا توفي 609

ومنهم محمد بن محمد التجيبي من أهل اليسانة » من عمل قرطبة اقرأ القرآن والعربية وأخذ عن الشلوبين وغيره توفي سنة 644

ومنهم علي ابن الحصار الخزرجي اقرأ البرهان لأبي المعالي وموطأ مالك بسبتة وحضره على الغافقي وهو سبتي الأصل كما يراه ابن الزبير

ومنهم أحمد ابن شبرين والد القاضي أبي بكر الاشبيلي الأصل انتقل من شلب لما أخذت إلى سبتة وبها ولد ابنه كما سنذكره فيما بعد

ومنهم يحيى الهوزني الاشبيلي المقري أخذ الناس عنه من سبتة وكان منهم أبو العباس العزفي توفي سنة 602

ومنهم مرجى بن يونس الغافقي من تواليفه شرح على قصيدة الحصري في القراءات وهو من شيوخ العزفي أيضا والشاري وعياض ابن محمد وغيرهم من السبتيين والطنجيين وعمر حتَّى التسعين

ومنهم محمد بن عبد الله السلمي المرسي سمع بسبتة من ابن عبد الله كان حيا بعد الأربعين والست مائة

ومنهم محمد بن الفضل بن مهيب اللخمي الشلبي توفي بسبتة سنة 645

ومنهم محمد بن عامر ابن شامة الأنصاري الخزرجي الاشبيلي سمع منه بسبتة أبو العباس العزفي في سنة 580

ومنهم محمد ابن هشام اللخمي سكن سبتة وأخذ عن أبي بكر بن

العربي كان قائما على اللغات والآداب وله تآليف توفي 557

ومهم محمد بن أحمد بن عبد الملك اللخمي الباجي الاشبيلي قاضي جماعتها وخطيبها نزل بسبتة وروَى عنه ابن الحصار وصحبه في طريقه إلى الشرق وتوفي بمصر سنة 635

ومهم محمد بن عبد البر الأنصاري الاشبيلي المعروف بابن زرقون كان متعصبا للمالكية فاعتقل بسبتة[1] درس الفقه والآراء والآداب 621

ومهم عبد الجليل الأنصاري الأوسي ، آخر المتصوفين بالمغرب على الطريقة المثلَى ، كما يرَى ابن الزبير ، توفي بسبتة سنة 608

ومهم محمد بن محمد أبو عيشون اللخمي المرسي اليكي من تآليفه تقييد في الوفيات اعتمد عليه ابن الأبار في « التكملة » من شيوخه في سبتة ابن عبيد الله ، وحدث وأخذ عنه ، توفي سنة 614 وهو ابن ستة وسبعين

ومهم أبو بكر بن رزق السبتي كتب إلى محمد بن أحمد الأنصاري الألمري ابن البلنسي المتوفى سنة 621

ومهم محمد بن عبد الرحمن التجيبي اللقنتي ، أخذ عنه بسبتة سنة 574 وله تآليف وبرنامج ورحلة إلى الشرق توفي سنة 610

ومهم الداني شيخ القراء محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن المعروف بالأشقر أقرأ بسبتة كثيرا وكان عالي الرواية توفي سنة 559

ومهم داود بن سليمان بن حوط الله الأنصاري الحارثي الأندي نزل سبتة وسمع بها من ابن عبيد الله وغيره وتوفي سنة 621

ومهم عمر بن عبد المجيد بن عمر الأزدي الرندي ، أخذ بسبتة عن أبن عبيد الله وابن زرقون توفي سنة 616 بعد تدريسه للعربية والآداب

ومهم عيسى بن سليمان الرعيني ، أبو محمد المعروف بالرندي نزل بسبتة

---

(1) يستفاد من هذا أن دعوة الخلفاء الموحدين الأول إلى نبذ كتب الفروع ظلت قائمة بعدهم في سبتة على الأقل ، ولذلك التاريخ

ولقيه بها أبو العباس ابن فرتون وأخذ عنه توفي 632

ومهم سهل بن مَالك الأزدي الغرناطي روَى عن ابن مضا والجراوي الشاعر وأجاز له ابن عبيد الله ، وكان أديبا شاعرا سجنه ابن هود توفي سنة 639 وتقدم له شعر ذكر سبتة فيه

ومهم أبو العباس أحمد بن يوسف السلمي ابن فرتون السالف الذكر حدث من سبتة ابن الأبار مكاتبة

ومهم عبد الله بن الحسن الأنصاري المالقي نزل بسبتة وأخذ بها عن ابن عبيد الله وأجازوا له بها وتوفي سنة 611

ومهم عتيق بن عبد الله الاشبيلي اليابري روَى عنه ابن الدباج وابن حوط الله بسبتة

ومهم محمد بن واجب البلنسي القيسي المحدث المقري خلص إلى سبتة بعد أخذ بلده وتوفي بها سنة 637

ومهم أبو الحسن علي بن محمد بن علي الرعيني الاشبيلي قرأ على الشاري بالجامع الأعظم كما يقول في برنامج شيوخه كتاب الجامع الصحيح للبخاري بخط أبي الوليد ابن الدباغ قال وقرأته على الصدفي وغيره وأمسك على حين القراءة أصل أبي بكر ابن خير رواية أبي ذر الذي بخط أبيه ولد الرعيني سنة 592 وتوفي سنة 666

ومهم أبو حجة أحمد بن محمد القيسي القرطبي المتوفى سنة 643

ومهم ابن مفرج أحمد الأموي المتوفى سنة 637

ومهم عدي بن علي القيسي الاشبيلي سكن سبتة وروَى عن أبي علي الشلوبين ، وتوفي بها

ومهم أحمد بن عبد المومن القيسي الشريشي روَى بسبتة ، عن ابني خروف المذكورين وأبي العباس العزفي وابن عبيد الله وأبي الصبر أيوب وغيرهم وتوفي سنة 619 .

ومهم علي بن أحمد ابن مكثر الخولاني روَى عن أبي عبد الله ابن هشام وأقام بسبتة

ومهم أبو العباس أحمد ابن مضا المتوفى سنة 616[1]

ومهم علي بن أحمد بن يحيى الأزدي الجياني نزل سبتة وروَى عنه أبو عبد الله بن عبد الله الأزدي القرطبي توفي في حدود سنة 628

ومهم علي ابن هشام الشريشي لقي بسبتة وأخذ بها عن ابن عبيد الله وتوفي سنة 616

ومهم أبو الصبر أيوب ابن عبد الله أخذ عن قاسم بن محمد بن مبارك ابن الحاج الزقاق بسبتة وتوفي هذا بعد سنة 559

ومهم أحمد بن الصقر الأنصاري السرقسطي وكانت سرقسطة منزل الأنصار نقله أبوه عبد الرحمن إليها ابن سبع وتوفي في مراكش 569

ومهم فتح بن علي الأنصاري الاشبيلي عبر إلى سبتة عائدا إلى الحجاز فأقام بها للتوثيق وأدركته وفاته بالريف سنة 637

ومهم أحمد بن علي السماتي الاشبيلي تلقَّى بسبتة عن أبي عبد الله بن عبد الله ابن عيسى التميمي السبتي وأجاز له ابن الدباغ وتوفي سنة 614

ومهم يوسف ابن معرور من طريف نزل سبتة وسمع بها من علمائها وتوفي سنة 620

ومهم محمد بن أحمد بن عبد الله ابن سيد الناس اليعمري الاشبيلي له إجازة كتب بها إلى بني العزفي وتوفي سنة 659

ومهم ابن عبد الله الأزدي روَى عنه أحمد ابن خلصة المتوفى 610

---

(1) هو غير أبي العباس أحمد بن عبد الرحمن النحوي المجتهد فيه وصاحب كتاب « الرد على النحاة »

ومنهم يحيى بن مجمل الصنهاجي من شيوخه ابن عبيد الله وأبو الصبر أيوب وتوفي سنة 625

ومنهم أحمد بن محمد بن قاسم الأنصاري الاشبيلي نزل بسبتة ولقي علمائها وتوفي سنة 657

ومنهم صهيب بن عبد المهين الجياني الرومي الأصل الفقيه المحدث القاضي بجيان وغيرها أجاز له ابن عبيد الله وتوفي 631

ومنهم عبد الله القضاعي الاشبيلي أخذ عنه بسبتة أبو العباس العزفي وتوفي في طريقه إلى الرباط بالقصر الكبير وبه دفن

ومنهم عبد الله بن عمرو الخزرجي القرطبي سمع بسبتة من أبي محمد بن وهب القضاعي وأخذ عنه وعن أبي عبد الملك بن عبد العزيز وأبي عبد الله ابن خليل القيسي وأجاز له أبو عبد الله ابن عبد الرزاق وأبو بكر بن رزق توفي سنة 613 وقد نيف على السبعين

ومنهم عبد الله التميمي البجائي قاضيها توفي سنة 620

ومنهم عبد الله بن علي الأنصاري الأوسي من أهل استجة درس الأصول بقرطبة واشبيلية واقرأ بسبتة وأخذ عنه وتوفي سنة 646

ومنهم عبد الله التميمي الفاسي الأصل انتقل أبوه محمد مع والده عيسى المذكور سلفا وحدث عنه محمد بن أحمد العزفي

ومنهم أبو العباس ابن مطرف التميمي لقي ابن الجوزي أبا الفرج ولقيه الرعيني كما يقول في برنامج شيوخه غير مرة وتوفي بسبتة عام 627

ومنهم عبد الرحمن بن علي الجذامي المقري سكن سبتة وهو المعروف بالقراق والخراز توفي بسبتة سنة 581

ومنهم عبد الرحمن ابن الحداد التنسي استقر بسبتة وأقرأ بها وتوفي بمراكش سنة 640 تقريبا .

ومهم عبد الرحيم الأنصاري الشاطبي الأصل السبتي روَى عنه ابن الأبار وتوفي سنة 655

ومهم أبو عبد الله محمد السبتي المقري نزل المرية وأخذ عنه بها أبو عبد الله بن سعيد الداني

ومهم محمد ابن العربي الحاتمي نزل بسبتة وأخذ بها من ابن عبيد الله وهو نفسه سبتي الأصل، وإن ولد باشبيلية

أما ابن عبيد الله الذي تكرر ذكره في غالب التراجم فهو عبد الله ابن محمد بن علي بن عبد الله ابن عبيد الله الحجري الألمري الأصل والنشأة، هاجر إلى سبتة واستقر بها بعد سقوط المرية وبنَى بها مسجدا عرف به كان يلقي فيه دروسه وتوفي سنة 591 وهو ابن خمس وثمانين سنة أخذ عنه بسبتة كثيرون — تقدم ذكر بعضهم — مهم ابن زرقون وأبو القاسم الجذامي وابن حوط الله كما سمع هو عن كثيرين

ومهم علي بن أحمد الأزدي الجياني المتصوف، استقر بسبتة وأخذ الناس عنه فيها وتوفي سنة 623

ومهم ابن دادوش محمد القاضي كما هو برنامج الرعيني سمع من عياض والجراوي الشاعر المغربي قصائد له ولقيه الرعيني بسبتة ولم يذكر تاريخا لوفاته

وبعد هؤلاء الأعلام نتعرض لمن أقضَى بها فمنهم الحجري المذكور ابن عبيد وابن حوط الله أبو محمد عبد الله الأنصاري المالقي ولى القضاء بسبتة وغيرها وتوفي سنة 612 وهو أخو أبي سليمان

ومهم علي بن عبد الله ابن قطرال الأنصاري القرطبي انتقل من شاطبة عند سقوط بلنسية إلى سبتة فأخذ عن ابن عبيد، توفي سنة 651.

ومهم قاصد اليعمري المتوفى سنة 650.

وتقدم مهم عبد الرحمن التيمي البجائي

ومهم محمد بن محاد العجلاني الفاسي استشهد في موقعة العقاب رحمه الله

ومهم عمر بن عبد الرحمن الأنصاري الجراوي أخذ عن عياض وأبي بكر بن العربي وتوفي سنة 576

ومهم محمد بن أحمد ابن الحاج قام على خطة القضاء وتولاها لابن خلاص روَى عن ابن حوط الله وأبي بكر بن العربي وتوفي سنة 694

ومهم ابن عياش التجيبي توفي سنة 629

ومهم أبو العباس أحمد بن القاضي محمد العزفي المتوفى سنة 633 صاحب الدر المنظم

ومهم أبو بكر ابن الحداد السالف الذكر

وسبق منهم ذكر عبد الله بن عمرو الخزرجي

وكما اشتهرت سبتة في عهودها السالفة بأوليائها الذين كانت تشد إليهم الرحال ، فقد كان لها بهذا العهد ولي ذائع الصيت قصده العامة والخاصة ، وألف فيه التأليف ونوه به غاية التنويه

ذلك هو الولي الصالح أبو مروان عبد الملك بن ابراهيم بن بشر القيسي اليحانسي الذي ألف فيه تلميذه أحمد بن ابراهيم بن يحيَى الأزدي القشتالي(1) كتابه « تحفة المغترب ببلاد المغرب لمن له من الاخوان في

---

(1) نشر هذا الكتاب تلميذي وزميلي الدكتور فرنندو دي لاكرانخا والأستاذ في جامعة مدريد ووضع عليه مقدمة مفيدة . كما علق عليه تعاليق كذلك ومما استفدناه منها هذه النسبة إلى بلدة يحانس Ohanes التي تصفحت في عدة كتب ذكرته . فيما أشار إليه المحقق ومنها كتاب اختصار الأخبار . الذي سبق ذكره ، وكتاب صلحاء الريف الذي سننشره في القريب إن شاء الله

وقد ذكر المحقق أن القشتالى نسبة إلى « قشتال » التي قد تكون بلدة Castril في ولاية غرناطة .

كرامات الشيخ أبي مروان » وهذا الشيخ كان من رجال القرن السابع وتوفي سنة 667 وقد ذكر المؤلف فيه شعرا له وهو

ولّـى أبو مروان فذ زمانه فغدا بأطباق الثرَى مستودعا
وغدوت أروي بعده أخباره كيما أكون بطيبها متمتعا
اني لتغريبي شمائله به فأبيت صبا بعده متوجعا
ولو ان نفسي منه توخذ في الفدا لبذلتها في حقه كي ترجعا
هيهات يرجع للدنا ذو همة متبوئ جنات عدن موضعا
لكن من أضحَى غريبا بعده مثلي جدير أن يرَى متفجعا
مالي فقدت الانس في فقدانه ووجدت وجدي بعده متجمعا
ورأيت ما لا أرتضي من بعده وسمعت ما لا ينبغي أن يسمعا
فمن الوفاء بأن تسيل مدامعي ويظل قلبي بعده متصدعا
ولو أنني طاوعت ما بي من أسى لأزلت من كل الجوارح أدمعا
وشققت جيب تصبري لو لم أكن من حزب من لا ينبغي أن يخدعا
تالله لا أنسى جميل فعاله حتَّى أرَى نحو البقيع مشيعا
فلقد نعمت به زمان حياته حتَّى توفي فاغتديت مضيعا
وكذا الدنا ماإن يحل بغيضها حتَّى ينادي بالترحل مسرعا
فكأن ما منها تقضى لم يكن وكأن في الآتي بها لن يطمعا
فكن ابن يومك إن في يوم إذا لم تبك هما مقبلا مستقنعا

ومن المفيد أن نتعرض لما ورد عن سبتة الموحدية مما نجده في كتابين معاصرين كتبا بهذا العهد في أولها كتاب الاستبصار وبه نجد ما يلي

ومدينة سبتة وهي على ضفة البحر وهو بحر الزقاق والبحر قد أحاط بها شرقا وجوفا وقبله وليس لها إلى البر غير طريق واحد من ناحية الغرب لو شاء أهلها أن يقطعوه لقطعوه ولها بابان احدهما محدث ولها من جهة البحر أبواب كثيرة وفي آخر المدينة بشرقها جبل كبير . في شعراء كثيفة يسمَّى جبل المينا وقد كان محمد بن أبي عامر

أمر أن يبى بهذا الجبل مدينة ويتقل إليها أهل سبتة فبنَى سورها ومات ولم يتم ما أراد والسور باق إلى وقتنا هذا كأنه مبني بالأمس وهو يظهر من بر الأندلس لبياضه ومن غريب ما في هذا السور أن فيه شقة مستطيلة بابراجه مبنية بالزيت عوضا من الماء وكان غرضه اتمام عمله على هذا لولا الانفاق الكثير فإن البناء بالزيت أصلب وأبقَى على مرور الدهور. والأزمان فلم يساعده الأجل رحمه الله

ومدينة سبتة مدينة قديمة سكنها الأول فيها آثار كثيرة وكان لها ماء مجلوب من نهر قرية أويات على 3 أميال منها يجري الماء في قناة على صفة البحر القبلي الذي يعرف ببحر بسول وكان يدخل كنيستها التي هي اليوم جامع سبتة

وأمر الخليفة أمير المومنين أبو يعقوب رضه سنة 580 بجلب الماء إليها من قرية بليونش المذكورة على 6 أميال من سبتة في قناة تحت الأرض حسب ما جلبه الأوائل في قرية قرطجنة وغيرها وشرع العمل فعرضت أمور أوجبت التربص إلى حين يأذن الله تعالى بذلك والرجاء الآن مؤمل ونحن في سنة 587 وما ذكره هذا المؤلف المراكشي — كما نظن هو أوفى ما ذكر عنها لهذا العهد واستعان بالإدريسي.

وثانيها كتاب المعجب الذي نجد فيه ما يلي

وبساحل سبتة هذه يلتقي البحران بحر مانطس الذي هو بحر الروم وبحر اقيانس الذي هو البحر الأعظم وهذا أول الخليج المعروف بالزقاق وسعة البحر فيما بين سبته والأندلس ثمانية عشر ميلا ثم لا يزال يضيق إلى أن ينتهي ذلك من عدوة البربر إلى موضع يدعَى قصر مصمودة بينه وبين سبتة نصف يوم

ومن مدينة سبتة إلى مدينة طنجة يوم تام في البر

وهكذا اقتضب عبد الواحد الكلام عن سبتة ، بل لم يذكرها في جغرافيته إلا بالمسافات والموقع لها من البحر والبر ، بالرغم من كونه تعرض لها في عدة أحداث لها أهميتها التاريخية ، التي أشرنا إليها فيما سلف

*

الباب الخامس

سبتة المستقلة

وفيه فصلان الأول ما قبل العزفيين

كان أحمد اليانشتي المذكور من أصل أندلسي فهو ينسب إلى حصن ينشتة وأبوه محمد أو جده مبارك هو الذي هاجر إلى سبتة واغتنى أبو العباس بتجارته التي صار من كبرائها وقد اشتهر بمروءته فأحرز رضى قومه ، الذين بايعوه ملكا عليهم واتخذ لنفسه لقب الموفق وقصده العلماء والأدباء وكان ابن جعفر طلحة العباسي ، من شعرائه المختصين به كما كان أبو العباس أحمد بن محمد الشقري[1] المعروف بابن طلحة وهو من المشهورين بالمجون والخلاعة قد مدحه ولكنه كان كذلك مستهترا بممدوحه اليانشتي ، فكان مما قال فيه

سمعنا بالموفق فارتحلنا   وشافعنا له حسب وعلم
ورمت يدا أقبلها وأخرى   أعيش بفضلها أبدا وأسمو
فأنشدنا لسان الحال فيه   يد شلا وأمر لا يتم

وكان ابن طلحة المذكور كاتبا للمتوكل ابن هود ينوب عنه في غيبته ولكن فسد ما بينهما ، فخافه وفر إلى سبتة فأقبل عليه اليانشتي

ومن الذين مدحوه ابن سعيد ، علي ابن موسى في قصيدة يقول فيها

بالعدل قمت وبالسماح فدن وجد
لا فارقتك كفاية وعطاء

(1) نجد ترجمته في الذيل والتكملة ونفح الطيب .

ما كل من طلب السعادة نالها
وطلاب ما يأبَى القضاء شقاء

وبالجملة فقد أصبح اليانشتي يتخذ لنفسه وقد استبد بسبتة مظهر الملوك فيضم مجلسه الشعراء والعلماء يحادثهم ويفاوضهم

ومن علماء الأندلس الذين دعاهم إليه ابن الجنان فوفد عليه فأجل وفادته وأجزل إفادته وحظي عنده حظوة تامة كما بالاحاطة والنفح وقد تمكن من طاعة القبائل المجاورة لسبتة تجلَّى فيما نجد له كما في البيان المغرب وقد تعرضت سبتة لحادث خطير بعد حكمه لها بسنتين فقد وصل إليها نصارَى جينوة[1] «في مراكبهم برسم محاولات تجاراتهم فاجتمع منهم في ديوانها وربضها عدد كبير . فراموا التغلب عليها بتحيلاتهم ولما علم بذلك اليانشتي كتب إلى القبائل الساكنة عليها والراجعة في الحكم إليها فعرفهم بتلك الأمور . وأمرهم بالوصول إليه والقدوم بجملتهم عليه في يوم معين معلوم وهذا الأمر عنده من الجمهور مكتوم فلما كان في اليوم المذكور خرج للقائهم أبو الحسن ابن اليانشتي فلقاهم في جموع لا يستطاع احصاؤهم وعند خروج ولد صاحب سبتة إليهم فهم النصارَى أن الدائرة عليهم فأبرموا أمرهم طامعين فيما أملوه وزحفوا بجموعهم إلى الباب لعلهم يملكوه فبينما هم بمقربة من الباب يحاولون إليه المسير . إذ لم يبق بينهم وبينه إلا شيء يسير . إذ أقبلت عليهم عساكر البربر داخلين على الباب فكسروهم وقتل كل واحد منهم من قتل من الروم وما صبر ولا دبر فقتل النصارَى في ذلك اليوم قتلا ذريعا وقطعوا تقطيعا وتحكمت السيوف والرماح من كل مفرق لهم ونحر ومن سلم من القتل رمَى بنفسه إلى الأجفان في البحر وانتهبت أموالهم التي في فنادقهم أي انتهاب والتهبت النار في سلعهم وسلاحهم كل التهاب واحتوت البربر والسوقة وغزاة البحر وغيرهم على جميع ما كان في

---

(1) كما في البيان المغرب

الفنادق من أسبابهم وما خلص للنيران من أموالهم وأخذت كل يد ما ملكت من أي شيء وجدت أو عليه سلكت وعلم من كان في تلك المراكب من أهل ملتهم أن المنية قد نزلت بجملتهم فأخذوا في الاقلاع من مرسى سبتة ينادون الفرار الفرار فلما وصلوا إلى اخوانهم أعلموهم بقصتهم وشأنهم فاجتمعوا في نحو مائة مركب ويمموا سبتة لحصارها والمبالغة في اضرارها فلما وصلوا إليها نصبوا المجانيق عليها فنصرها الله وعصمها منهم ثم وقع الصلح بينهم على أن يعطي أهل سبتة للروم مالا معلوما من جملة ما مضى لهم فدفعه لهم اليانشتي من مال المخزن وأقلعوا عنهم وأراح الله بفضله منهم وكان عام جنوة عند أهل سبتة مشهورا وفي تواريخهم مذكورا

أتينا بهذا النص الذي حافظ عليه ابن عذارى كعادته في نصوص أخرَى ولاشك أنه من انشاء أندلسي ولهذا يستعمل البربر بدل المغاربة أو البوادي منهم خاصة وربما كان من كتاب اليانشتي ولكن وروده مجردا هكذا أو باسم الحاج أبي العباس اليانشتي يجعلنا نستبعد صدوره عن أحد كتابه وصنيعه وان تعمد بعض الحلية البديعية وخصوصا السجع فهو متواضع قريب من السوقي وفي بعضه مخالفة لقواعد النحو(1)

وبعد الحصار الذي استمر من سنة 632 إلى سنة 633 كانوا بعد سنتين منه يستقبلون سفن الاشبيليين الذين أتوا مبايعين للموحدين بعد موت المتوكل ابن هود

أما اليانشتي فإن صاحب الروض المعطار يطلعنا على بواعث نهايته فيقول عند تعرضه لينشتة بالذكر

---

(1) مثل « لعلهم يملكوه » ثم إذ » الأولى بدل « ولم ونحوها على أن حذف نون الرفع يمكن أن يكون على الجواز كما في الآية أفغير الله تامروني » كما قال بذلك بعضهم وفيه مجال من القول إن تأتى في الآية فإنه لا يتأتّى في هذا النص

حصن من حصون الملح على مرحلتين من جلجالة التي تعمل فيها البسط منها أبو العباس الينشتي صاحب سبتة كان قيامه فيها سنة ثلاثين وست مائة وتلقب بالموفق ، وما زال أمره مستقيما برا وبحرا يخاف ويرجَى ويمدح ويقصد وتخاطبه الملوك من البلاد ، إلى أن اغتر بحبه ابراهيم بن مسعود الكومي من جهة الزهد ، واطراح الدنيا فكان إذا ورد سبتة يكرمه وينزله معه ويصنع له السماع ويتبرك به ويستريح إليه وفي أثناء ذلك يعلم القلوب المائلة عنه ويبحث عن النفوس المتغيرة عليه ويتأمل الأماكن التي يدخل منها إلى افساد دولته وإعادة دولة بني عبد المومن حتَّى اطلع من ذلك على المطلب وظفر بالغرض ولم يشعر الينشتي المغتر بزهده ، ومهلهل وده حتَّى نثر عليه سلكه وابتز منه ملكه فصبحه مثل راغية البكر ، وجاء مع جيش من قبل صاحب مراكش الرشيد عبد الواحد فخرج جنده القليل ورجاله وعامة أهل سبتة فحمل عليهم الجيش المراكشي حملة فقد فيها من السبتيين نحو ستمائة وتخاذل الباقون ، فملك عليهم البلد ، واستخفَى الأهل والولد وألقَى الينشتي بيده ، فخلع نفسه وقيد مع جماعة من أهل سبتة خيف من كل واحد منهم الوثوب على مثل ما وثب عليه الينشتي وكان له ولدان ، فاختفَى الأكبر محمد ، وجرت عليه خطوب في خلوصه إلى البحر ، ثم حبسه ببجاية ووصوله إلى الاسكندرية ولحوقه باليمن والولد الأصغر حين سار مع أبيه فيقال إن وباء جارفا كان بحضرة مراكش أهلك الجميع من الغرباء المذكورين وقيل إن الوالد والولد هلكا بشربة لبن واستمرت بسبتة دولة الرشيد عبد الواحد وتردّدت عليها ولاته إلى آخر أيامه وكان أبو العباس هذا سلك مسلك الأدباء وتغرب ووصل إلى بغداد وكان موصوفا في أيامه بحسن المجالسة وإكرام الوافدين والاصغاء للمادحين ، وكان بذله على مقدار ما يحتمله بلده أخبر من حضر مجلسه أن أديبا من الأندلس أخذ يحكي من حكايات البرامكة وأمثالها ما استقله فقال يا أهل الأندلس لا تحكوا لنا من الحكايات إلا ما يسعه بلدنا . وجيء إليه بشخص من أهل

مراكش سمع وهو يقول وقد رآه على فرس عتيق وعليه ثياب ملوكية وغفارة كحلاء ، وبين يديه العبيد بالرماح وبجانبه الحجاب — ذا العار ابن العار يريد أن يحكي بني عبد المومن فما زاده على أن قال له العار ابن العار من لا يحكي بني عبد المومن ثم خلَّى سبيله فلم يصبح المراكشي إلا في طريق مراكش خوف أن يتعقب في رأيه وكان من جهة أخرَى في نهاية من الغيرة على الملك ، بلغه أن طلحة بن الشرقي من أكابر دولة بني عبد المومن قد قال لو كان في سبتة رجل ما ملكها هذا وأشار إليه فأحضره وقال زعمت أن ما في سبتة رجل ، وأنا أكذبك ، احملوه وغرقوه في اللجة فحمل في زورق وغرق

وللينشتي شعر في الحنين إلى بلده وخصوصا بليونش وكان آنذاك ببغداد

تذكرت من بغداد أقصَى المغارب	فجال نجِي الفكر بين الترائب
فصبرتها نفسا تكاد من الأسَى	تسرب ما بين الدموع السوارب
وقلت لئن كابدت ترحة راحل	فسوف يريك الله فرحة آيب
فلا تيأسي من بعد قصة يوسف	ولو كنت قد جاوزت سد مآرب
ويا جفن كم تجفو المنام حفيظة	وكم أنت معقود برعي الكواكب
لعل الذي ترعاه ليس بحافظ	لعهدك والأيام ذات عجائب
فكم منزل بدلته بعد منزل	وكم صاحب عوضت منه بصاحب
ولكن سأرعَى من يخون مودتي	ورعي الهوَى في البعد أوجب واجب
وأذكر أوطانا نعمت بظلها	معاهد أحباب ومغنَى حبايب
أبليونش لا جانبت روضك الصبا	وجاد على مغناك صوب السحائب
فما شعب بوان ولا الغوطة التي	زهت برياض بينها ومذانب
بأحسن من مرآك والبحر معرض	وقد جال فيه الطرف من كل جانب
لقد طفت في شرق البلاد وغربها	فجانب طرفي غير تلك الجوانب

وما عهد «اوبات» لدى مذمم   ولا ذكر «ميات» علي بذاهب[1]
فكم لي بها من لذة مع معشر   يحيون بالريحان يوم السباسب
كرام نمتهم للمعالي أكارم   حسان الوجوه والحلي والضرائب
سلام عليهم ما حييت فإنني   أزيد لهم حبا بطول التجارب

فهذه معلومات قيمة طالعنا بها هذا الكتاب الجغرافي الذي ألفه سبتي كذلك وهو أدرى ببلاده وأعرف بأحداثها التفصيلية أما غير هذا الكتاب فلا نجد فيه إلا ايماءة مبتسرة لانتقال الملك من الينشتي أو من عائلته التي كان على رأسها ابن له يقوم بدور هام في الحفاظ عليها كما تقدم لذلك مثال في الدفاع عن المدينة

ويؤكد واقعها ما جاء في البيان كما يلي

«كان أهل سبتة قد خلعوا دعوة الموحدين في سنة ثلاثين ... وقدموا على أنفسهم شيخا من أشياخهم وهو الحاج أبو العباس اليانشتي فقام بأمرهم خير قيام إلى هذه الأيام[2] فهجست في نفوسهم هواجس الاستبصار. لما أحسوا بوصول الاجفان بالوفود والبيعة من اشبيلية إلى الرشيد فاتفقوا على عودتهم وتجديد بيعتهم وصل بها وجوه أهل سبتة وأعيانهم لمدينة مراكش للرشيد وقبض أهل سبتة على اليانشتي وابنه وأدخل أهل سبتة السيد أبا العباس بن السيد أبي سعيد وكان مع ابن عبد الله ابن أبي يلول بأحواز غمارة ووصل مع ابن أبي يلول، وأدخل البلد أيضا ابراهيم بن مسعود الكومي وأعلن أهلها بدعوة التوحيد وكان الشيخ أبو محمد بن ماكسين ... وجه إلى سبتة وديوانها وأعمالها عند وصول بيعتها وولى الرشيد على سبتة أبا علي بن خلاص وعبد الله بن واندين ولاه الرشيد البلاد الغربية، وجعل له النظر فيها والتفقد لأحوالها ولأمور ولاتها

(1) أوبات وميات من أسماء أماكنها.
(2) من سنة 635

واعمالها ووولاه قبائل غمارة كلها سهلها وجبلها وفوض له الرشيد النظر في أحوال تلك البلاد ، وفي اصلاح حالهم وأمرهم وتوجه صحبته واليا على سبتة أبو علي بن خلاص البلنسي وعلى دار الصناعة بها أبو زكريا بن مزاحم الكومي فوصل بالحلة اليها ونزل أياما عليها ثم رحل إلى بلاد غمارة ولما بويع السعيد بعد أخيه الرشيد خالف عليه بسبتة أبو علي بن خلاص وبايع للأمير أبي زَكَرِيًّا الحفصي وبايعه أهل سبتة وطنجة فوصل واليا على سبتة ابن الشهيد الهنتامي ومشتغلا بها ابن أبي خالد البلنسي وهكذا صارت سبتة تلقائيا إلى الحفصيين ، كما حصل منها ذلك تلقاء العباسيين ، فيما قبل ولم تطل مدة التبعية في كلتا الحالتين ، ولهذا لم نعتبر ذلك داخلا في عهد التبعية»

لقد كانت هجرة الأندلسيين إلى سبتة لا تنقطع خصوصا بعدما كبست بلادهم طواغيت النصرانية التي كان في ركابها حتَّى بعض الحاكمين لجهات من الأندلس الاسلامية مدفوعين في ذلك بالانتقام من خصومهم أو منافسيهم كما كان من ابن الأحمر الذي صحب الملك النصراني وهو يحاصر اشبيلية وينازلها فكان أهلها يهاجرون إلى المغرب وسبتة بالذات ، ومن قبل أرادوا أن يعودوا إلى حظيرة الموحدين فوجهوا اسطولا يحمل وفدا منهم لتقديم البيعة إلى الرشيد وما حلوا بسبتة حتَّى كان أهلها يتابعونهم إلى هذه الانابة كما نجد في البيان المغرب « فهجست في نفوسهم هواجس الاستبصار ، لما أحسوا بوصول الأجفان بالوفد والبيعة من اشبيلية إلى الرشيد

وهكذا كان السبتيون قد اتفقوا على عودتهم لحظيرة الدولة الموحدية في هذه السنة وكان وصول الوفد من اشبيلية إلى مرسى مازيغان في جفنين كبيرين من أسطول اشبيلية ووصل معهم أصناف من الناس فلما وصلوا حضرة مراكش وقدموا على الرشيد كان لقدومهم شأن عظيم وشاع الخبر بما كان لسبتة من رجوعها إلى طاعة الدولة الموحدية فامتلأت

النفوس مسرة بانتظام الدعوة بالعدوتين ، وأنشدت الأشعار وكثر الفرح والاستبشار وقد اختفى شبح ابن هود من غرب الأندلس في صرعة فاجأته فذهبت بروحه سنة 634

وابن هود هذا محمد بن يوسف بن هود الملقب بالمتوكل من سلالة أبناء هود السرقسطيين الخائنين ، الذين طالما خرجوا من الجماعة وخلعوا من ربقتهم طاعة الدولة كما تقدم من ذلك ما كان مهم أيام المرابطين وقد انحازوا إلى جهة الصليب في حربه لسلطان المعتنقين للدين الحنيف ، تحقيقا لأطماعهم وخنوعا لأعدائهم ، فما أفلحوا بذلك

ومهما يكن فقد وقع اتحاد بين السبتيين والاشبيليين فصرنا نجد الرشيد يولي عليهم اشبيليا هو أبو علي الحسن ابن خلاص ولعل ابن خلاص كان يستوطن سبتة من ذي قبل كما تفيده عبارة الاستقصا « ولّى عليهم ابن خلاص مهم » ولا غرو ، فقد بدأت هجرة الاشبيليين خاصة إلى سبتة بالذات منذ أوائل القرن السابع كما تقدمت الإشارة إلى عواملها القاسية

وكانت الأمور ستسير سيرها الطبيعي ، ولكن أحداثا ستغير وجهة المسيرة فضغط المسيحية قد اشتد على المسلمين بالأندلس وقيام المرينيين بالمغرب كان ينذر بزوال الموحدين فيه ، وانتقال مركز الثقل إلى افريقية سيكون له شأنه في سير سبتة المضطربة خصوصا « والمجاعة قد اشتدت عليهم حتّى عدم فيها الطعام » فتضاعفت الأحوال سوء وعملت أصابع السياسة الخائنة في تعقيد مشاكلها كما نرَى

إذ كانت افريقية ، قد حزم أمرهم فيها أبناء عبد الواحد بن أبي حفص عمر الهنتاتي وأحفاده بعدما كانت لهم التبعية الاسمية والولاء للموحدين ، الذين عهدوا بحكمها إلى جدهم أوائل القرن السابع وأيام محمد الناصر أما الآن فالدولة الموحدية المركزية في انحدار مطرد ، وشؤونها

لا تنتقل من سوء إلا إلى أسوء ثم الجاليات الأندلسية المتكتلة في جهات من المغرب كمكناس وسبتة ثم رباط الفتح كانت تجد نفسها في حرج من أتباع النظام الرسمي وفي مضايقة من جيرانها خصوصا مهم البدويين وأشباههم كالزرهونيين بالنسبة إلى هؤلاء المكناسيين الأندلسيين

لهذا كله كانت سياسة الانتقال عن محور الدولة تجد لها دافعا قويا ومشجعا نشيطا ولم لا وأبو زكريا يحيى الحفصي قد نزع يده من الموحدين واستقل تماما سنة 625 عهم فكان شأنه عظيما وامتدت إليه الأنظار من الأندلس ، التي كانت تجتاز محنها العسيرة فاستصرخت به ولم يكن المغرب على حالة — كما قلنا سلفا — يحسد عليها بل كانت الفتن تعصف به ، مما جعل بعض مدنه توجه بيعتها إلى أبي زكريا يحيى فكان مها مكناس التي كتب بيعتها ابن عميرة وسبتة التي كان يحكمها ابن خلاص المذكور آنفا فوجه بيعته سنة ثلاث وأربعين ووجه وفده في أسطول يحمل هدية إلى يحيى وكان يترأس الوفد ابنه ، ولكن هذا الأسطول غرق عند اقلاعه من المرسى ، وفيه وفد السبتيين مبايعين

وكان الخليفة الموحدي آنذاك أبا الحسن علي بن المامون ، الملقب بالسعيد ، الذي كان يشاهد احتضار الدولة واضطر لعقد الهدنة أولا مع المرينيين ، ولكنه نقضها بعد سنة وعاد لمحاربتهم

على حين كان يحيى يروم التغلب على كرسي المملكة ، وكان أبو بكر المريني نفسه يدعو إليه أولا

وبعدما توفي السعيد الذي خرجت عن طاعته سبتة ومكناسة التي قتلت عامله ، تولّى الخلافة عمر المرتضَى ابن أبي ابراهيم ابن الخليفة يوسف سنة 646 فلم يصف له أمر مع بني مرين ومع البيت المالك نفسه الذي انتقض منه أبو دبوس ادريس بن أبي عبد الله محمد بن عمر بن عبد المومن واندرست عليه دولة الموحدين

وفي تلك الأثناء كان شَبَحُ المرينيين مخيفا للسبتيين ، فلم يكن من أبي

القاسم بن أبي العباس العزفي إلا أن أعلن سلطانه على سبتة واستقل بها استقلالا تاما وكان ذلك سنة ثلاث وخمسين وست مائة أيام المرتضي وقبل قيام أبي دبوس بنحو عشر سنوات كما سنرَى ذلك مفصّلا فيما بعد

الفصل الثاني دولة العزفيين بسبتة وما يليها

لقد كان الظلم والطغيان دائما ما يجعل هؤلاء السبتيين الاباة يثورون على حكامهم والمتسلطين عليهم ويدفع بهم إلى التقلب بالمبايعة ولهذا فسبتة كان أهلها قد استناموا أولا إلى أبي زكريا الحفصي الذي وجه إليهم أبا عثمان بن خالد كما في الأزهار » أو ابن أبي خالد كما في البيان » مع ابن الشهيد فاستوطن الرجلان قصبتها ثم صار ابن أبي خالد يضر بأهلها فأنكروه

واستحكمت الضغينة بينه وبين قائد البحر أبي العباس أحمد الرنداحي صهر أبي القاسم العزفي على بنته فلما توفي أبو زكريا الحفصي . وبويع ابنه (الذي كان يعاصره المستنصر العباسي وتلقب هذا بلقبه) رأى السبتيون الفرصة للتخلص من طاعة الحفصيين . وكانوا قد ضاقوا غاية التضييق من جور أبن أبي خالد وتغافل ابن الشهيد واجتمع القائد الرنداحي مع الفقيه المعظم أبي القاسم العزفي فحرضه على القيام بأمر بلده وهو يعينه على ذلك بعده وعدده والتزم له أن يقوم بالأمر حتَّى يخلصه فوافقه الفقيه على ذلك وأمره بانجازه في الليلة المذكورة فاستعمل القائد المذكور طعاما في داره وعرضه على بعض عمائر الأجفان من الرؤساء والقواد والرماة والغزاة واستدعاهم لمنزله كأنها وليمة مشهورة ، ولا علم أحد منهم بسره ولا كيفية أمره فاشتغل الناس عنده بالسماع والشطح في الدار ، وهو مع ذلك لا يستقر له معهم قرار . وهو قد بعث زعماء رجاله بالليل بعدما كشف لهم عن الحال وأمرهم أن

يسوقوا له راس «شقاف»(1) وفلان وفلان فاول ابتدائهم بشقاف المذكور فانهم صاحوا في داره وقالوا الوالي بعثنا إليك يريد أن يجتمع بك في بعض الأمور فلما خرج إليهم قطعوا رأسه وقتلوا كل من أمرهم بقتله ورجعوا إليه آخر الليل فأعلموه بأنهم امتثلوا كل ما أمرهم به فاجتمع مع الفقيه المعظم وعرفه بكل ما كان من الأمر وما فعله من قتل القواد والأجناد من الأندلسيين وغيرهم وأنه أمر رجاله بقتلهم فأخرجوهم بالحيلة من ديارهم وقتلوهم فلما أعلمه بذلك تركه قاعدا في اسطوانه بشمعة أمامه مع بعض اخوانه وخدامه وهو يتطاير خوفا مما يتوقع من عاقبة الأمر ورجع القائد إلى داره والعمائر بها يشطحون ويفرحون ولا يعرفون ما وقع وهم لا يشعرون فخرج بهم من داره وتقدم إلى القصبة بعدما ضرب النفير. فاجتمع من عمائر الأجفان الكبير والصغير. وشاع الخبر عند أهل البلد فخرج السوقة والتجار واجتمعوا أجمعين على القائد والفقيه باسطوانه مرتقب لما يتزايد من الأخبار ومتخوفا مما يقع من تصرف الأقدار. والرجال يسيرون إليه مرة بعد أخرى وأهل سبتة مجتمعون على قائدهم يطلبون رأس ابن أبي خالد دون غيره لأنه كان أضر بهم بظلمه وجوره وابن الشهيد معه خائفا أيضا من حاله وعاقبة أمره. وظفروا بابن أبي خالد فقتلوه وقطعوا رأسه وعلقوه على السور وأخرج ابن الشهيد المذكور ونفي إلى الأندلس في زورق إلى أن وصل بعد ذلك إلى تونس بشهور

واستبد أبو القاسم العزفي بملك سبتة وبقي بها مسرورا معظما ميسورا ولم يزل أهل بلده يعظمونه بغاية الاعظام والتقدير لجانبه والاحترام فهو من جلة الفقهاء الأعلام ومن مآثره العظام قيامه بمولد النبي عليه السلام من هذا العام فيطعم فيه أهل بلده ألوان الطعام ويوثر على أولادهم ليلة يوم المولد السعيد بالصرف الجديد من جملة الاحسان

---

(1) هذا كان بسبتة وهو قائد الفحص الذي كان السبب في دخول النصارى مدينة اشبيلية ووصل منها إلى سبتة مع جملة من الأجناد والقواد. فكان شقاف على رأسهم

عليهم والانعام   وذلك لأجل ما يطلقون المحاضر والصنايع والحوانيت يمشون في الأزقة يصلون على النبي عليه السلام   وفي طول اليوم المذكور يسمع المسمعون لجميع أهل البلد مدح النبي عليه السلام ، بالفرح والسرور والاطعام للخاص والعام   جار في ذلك على الدوم ، في كل عام من الأعوام ، وتوفي رحمه الله سبعة وسبعين فكانت مدته نحو ثلاثين سنة على ما سيأتي ذكره(1)

وأهمية القطعة تاريخية وحضارية وسياسية   ويهمنا منها الجانب الحضاري أكثر من الجانبين الآخرين ، فهي تمثل كيفية احتفال السبتيين ، بمثل ما عهدنا الطنجيين يحتفلون بسابع المولد النبوي   وكانت طنجة قد ضمها إليه أبو القاسم كما ضم أصيلة   واحتفالهم بسابع المولد ، يحمل في طيه المعنَى العامي ليوم « السابع   فكأن النبي قد مضى على مولده سبعة أيام احتفل به كما هي العادة في « السابع » منها   ثم استعمال بعض الكلمات العامية التي عايشناها   وهي « المحاضر » ، جمع « محاضري » ، المتعلم بالكتاتيب   وكانت هذه مستعملة كذلك في الأندلس   ويستفاد منها أيضا أن أبا القاسم هو الذي أشهر هذا المولد ، بعدما كان أبوه دعا إليه بما وسعه من الأمر ، ولم تكن له من المُكَن ما يجعل الناس يحتفلون هذا الاحتفال ، الذي وصفه صاحب القطعة ، بالاطعام الكثير ، وتوزيع الصدقات العديدة   وهذا لا يتأتّى إلا لأبي القاسم ومن كان على شاكلته وفيه أن المحتفلين بالوليمة كانوا يشطحون على غناء المسمعين   وهذا أيضا من مثلهم عادة أندلسية ، فنحن نعرف أن الوزير أبا مروان عبد الملك ابن شهيد ، والد الوزير أبي عامر ، اضطر يوما إلى الرقص ، وهو مصاب بالنقرس ، وقد أحضر في محفة إلى مجلس المنصرر ابن أبي عامر ، فأقامه

---

(1) هكذا نجد ابن عذارَى   ينقل هذا النص بحرفه   ولاشك أنه كان لمعاصر شاهد عيان متواضع في عربيته   التي تتخللها ركاكة ولحن خفيف   نجد له تخريجه   وهذه من القطع العديدة المختلفة   التي يضمنها ابن عذارى كتابه   بدون نص على مصدرها   وليس له فيها   إلا الجملتان الأخيرتان « وتوفي رحمه الله » إلى آخرهما   ويمكن أن يكون ذلك من صاحب النص المذكور.

الوزير أبو عبد الله ابن عباس فجعل يرقص وهو متكئ عليه ، ويرتجل ويومئ إلى المنصور

هاك شيخا قاده عذر لكا قام في رقصته مستهلكا
لم يطق يرقصها مستثبتا فانثنى يرقصها مستمسكا
عاقه عن هزها منفردا نقرس أخنَى عليه فاتكا

وكان الطرب قد سما بالوزراء والندماء ، فتهايج القوم ورقصوا وجعلوا يرقصون بالنوبة حتَّى انتهَى الدور إلى ابن شهيد المذكور[1] ومهما يكن فقد تخلص السبتيون من رجال الأمير الحفصي وكأن هؤلاء الأندلسيين كان يعتمد عليهم العامل الحفصي فتخلصوا منهم

وكان قيام أبي القاسم مما أثلج صدر الخليفة الموحدي إذ كان على ولائه للخليفة الموحدى ولهذا نجد المرتضي يوجه رسالة اثر كائنة سلا التي داهمها النصارَى وكان العزفي يكتب من سبتة إلى الخليفة يعرف بخبر العمارة البحرية التي كان ملك قشتالة يعدها في وادي اشبيلية بقصد احتلال سلا وقد بعث إليه يعقوب بن عبد الحق أن يصله ويتخذ من رجاله أجناده كما في البيان المغرب يقول المرتضي في فصل من رسالته إلى أبي القاسم

وإنا كتبناه إليكم كتب الله لكم أحمد عاقبة وأجملها وأكنف كلاءة وأكلأها وان تعلموا انا نعتد بولائكم الخالص ونحفظ ما لكم ولسلفكم من السوابق والخصائص ونشكر نصائحكم التي ما زلتم اياها تبذلون وخدمتكم التي توالون وتصلون ونستمد منكم إلى العلم الذي أنتم له مخلصون والدِّين الذي على سننه القويم لا تعدلون والله يتولاكم بحفظه وصونه ويجزل حظكم من انجاده وعونه

وقد طرأ في مدينة سلا جبرها الله سبحانه واستنقذها ما قد اتصل بكم مما كنتم أبدا منه تحذرون ، وبه لعلمكم بزيادة العدو تنذرون ولكن

(1) عن الذخيرة لابن بسام

لم ترد الأقدار لمن فيها الا انهمالا في الاضاعة واذهالا لمن مهل في أعماله الساعة بعد الساعة حين نفذ المقدور ووقع المحذور ولا حول ولا قوة إلا بالله الذي تصير إليه الأمور والله سبحانه يجري دينه القيم من النصر والظفر ما عوده ويجمع أيدِي عباده المومنين على من اتخذ الاها غيره وعبده وهو سبحانه يكافى سعيكم على ما عرفتم وحذرتم لأهل السواحل وخوفتم من فجأة المخاتل لما ظهر من استعداده ونبهتم في ذلك أقصى مبالغة بنيتكم الصالحة الصريحة ووفيتم منه أوجب حق للمسلم على أخيه من النصيحة لكن قد نفذ حكم الله تعالَى فيما ثبت في الكتاب مسطورا فلم يحذر التحذير محذورا. وكان أمر الله قدرا مقدورا

وثوابكم على الله سبحانه فيما من ذلك توليتم وقضيتم به حق الاسلام وأديتم وإنّا لنشكر لكم ذلكم كما رأى الله عز وجل فيه منابكم وشكر إليه انتدابكم فما قصرتم في عمل سديد ولا تأخرتم في الجد والنصح عن شأو بعيد فعرفوا بكل ما تتعرفون من إرادة الأعداء بعد وطالعوا من محاولاتهم الذميمة ما نتأهب لدفعه بحول الله تعالى ونستعد وهو سبحانه يتدارك بمعهود لطفه ومعتاده ويمد الاسلام وأهله بنصره ونجاده ويعينكم على أفضل ما أنتم عليه من صواب العمل وسداده بمنه

وكتب في ثالث ذي القعدة من عام ثمانية وخمسين وستمائة

فهذه رسالة وردت على أبي القاسم بعد استبداده بخمس سنوات . وفيها من اللت والعجن ومضغ الكلام ما هو عنوان للفراغ الذي كانت عليه الدولة المحتضرة ، والعجز الذي كانت تعانيه ، ولا أيد لها.

في استبداد العزفي بسبتة وغيرها وموقفه من المرتضي في ذلك يقول ابن عذارى « أما الفقيه أبو القاسم العزفي فاستبد ببلده وضبطها لنفسه باشتداده وجده في مصالح أهلها بغاية جده واجتهاده ، فبلغه الله غاية قصده ومراده ، لكنه كان يخاطب المرتضي في كل الأوقات . ويخطط بما

يجب له من التخطيطات والبر والكرامات ويعرفه بجميع الأمور والمتزيدات وكان في أول حاله وأمره طلب منه أن يبعث له شخصا من الموحدين أو سيدا من السادة فبعث اليه ابن أشرقي فأخرجه بعد أشهر وكتب للمرتضيّ بما كان من أفعاله وأعماله فصدق المرتضي في ذلك مقاله وبقي الفقيه مستبدا بأحواله»

«وإن أهل طنجة لما رأت أن المرتضي ضعفت أحواله عن الحركات الى تلك الجهات وقويت أحوال بني مرين فيها بالظهور والبركات في السكون والحركات دخلوا تحت طاعة الفقيه العالم أبي القاسم العزفي فبعث إليهم القائد أبا الفضل العباس وكان شيخا من فضلاء الناس فتوجه صحبة هذا يوسف بن محمد بن الأمين في جملة من توجه معه اليها فقدم أبو الفضل المذكور من سبتة مع جماعة كبيرة من الرماة والرجال عليها فاستوطن مدة قصبتها ثم ترك فيها ابن الأمين المذكور عوضا منه» وبعد أحداث ومحاولة ابن الأمين للاستبداد يذكر ابن عذارى أنه «قد وصل إلى طنجة ثلاث مائة فارس من بني مرين وغيرهم فخرج إليهم صاحب طنجة ابن الأمين فأنزلهم بالقصبة فطلبوا دخول الحمام فأجابهم فلما حلوا بالقصبة غدروا بابن الأمين ثم إن رجال ابن الأمين اجتمعوا فقتلوهم ولما كان من قتل بني مرين ما كان خاف أهل طنجة فخاطبوا صاحب سبتة أبا القاسم العزفي وبعث إليهم القطائع الغزوانية فملكوا طنجة وقبضوا على أولاد ابن الأمين . . .، ووُليّ طنجة ابن حمدان ورجع حكمها إلى صاحب سبتة

ولما ثار القطراني بسجلماسة على الموحدين منحازا إلى بني مرين وتم القضاء عليه وقتله «بأمر أمير المومنين المرتضي ورفع رأس القطراني على رمح واستقامت بسجلماسة الأمور . . .، كتب المرتضي بخبر القطراني إلى الفقيه أبي القاسم العزفي»

وقبل أن داهمت أساطيل الأسبان مدينة سلا ، كتب العزفي يحذر من شرها إلى المرتضي كما تقدم ، وبعد وقوع الحدث الكارث كتب اليه المرتضي ، كما سلف

ولما كان النصارَى يحاولون إخراج المسلمين من مدينة شريش «كان الفقيه أبو القاسم العزفي رحمه الله ، يحرض على التفقد لتلك الأشياء ، والتيقظ للأعداء ، فلما وقع ما وقع كتب المرتضى له كتابا بالشكر»

وهكذا كانت المكاتبات تتردد بين العزفي والمرتضى وفي البيان أيضا أن المرتضى كان يكاتبه ، في بعض الأمور التي نعتدها تافهة وان لم تكن كذلك في نظر الخليفة المرتضى من ذلك أن خادما له وقعت في الأسر ، بعد موقعة كانت بينه وبين أبي يحيَى بن عبد الحق المريني وانهزم فيها الخليفة المرتضى فكتب «من حضرته حين وصوله إليها وقدومه عليها إلى الأمير المعظم أبي يحيَى بن عبد الحق ، راغبا إليه أن يجبر عليه خادمه فأمر بالبحث عليها إلى أن وجدها فدفعها للواصل إليه ،،، فتوجه بها إلى الفقيه المعظم وكسا الخادم المذكورة بكسوة عظيمة وأعطاها دابة وأكرمها وأرضاها وصرفها مع موصلها إليه ، إلى أن وصلها لسيدها المرتضَى فقبلها وارتضَى»

ومن الغريب أن يكون هذا الملك الضغيف ، قد استمر سلطانه . أكثر من باقي الخلفاء الموحدين ابتداء من المنصور إلى آخرهم والضعف في بعض الأحيان قد يبقي على المريض فيطول به حبل الحياة العليلة وهو ما وجدناه للخليفة العباسي الناصر الذي حكم في ملكه ستا وأربعين سنة والدولة في رمقها الأخير . فعاصر من خلفاء الموحدين ستة هم يوسف ويعقوب وابنه الناصر الذي تلقب بلقبه وابنه يوسف الثاني المنتصر وابنه عبد الواحد وعبد الله العادل ابن المنصور الذي بويع سنة 621 وتوفي الناصر العباسي سنة 622 وكانت مبايعته 575 .

ومما يذكر لهذا الخليفة الموحدي أنه كان شاعرا وأن شعره ردد فيه ما دعا إليه أبو العباس العزفي في سبتة من اقامة المولد النبوي والاحتفال به فقال هذا الخليفة

وافَى ربيع قد تعطر نفحه أذكَى من المسك العتيق نسيما
بولادة المختار أحمد قد بدا يزهو به فخرا وحاز عظيما

وفي البيان أيضا أنه «كان يقوم بليلة المولد خير قيام ، ويفيض فيه الخير والإنعام وكان أشار له بذلك الفقيه أبو القاسم العزفي لأنه لما ألف كتابه الدر المنظم في مولد النبي المعظم بعث به إليه وأشار بذلك الرأي عليه»

لقد حكم المرتضي عشرين سنة وهي مدة ما تأتت في الموحدين إلا للخليفتين الأولين ، والدولة في أوج قوتها أما بعدهما فلم يصل أحد مهم في حكمه إلى العشرين كما ذكرنا ذلك سلفا

وقد شاهدت سبتة لأول مرة في المغرب مولد الاحتفال بالمولد النبوي الكريم . وكان الداعي إلى ذلك الاحتفال القاضي ابن القاضي أبو العباس بن محمد العزفي فيما تقدمت إليه الإشارة وهو الذي ألف في الموضوع كتابا سماه « الدر المنظم في مولد النبي المعظم » ولم يكمله فأكمله ابنه أبو القاسم المذكور وتولّى تدريسه بنفسه كما كان يجيز فيه وكان من الذين أجازهم في ذلك الخطيب أبو علي ابن الخطيب أبي فارس بن غالب الجمحي، مع جماعة من أهل سبتة وأعيانها، حين قرأوه عليه بالجامع الأعظم من سبتة سنة سبع وخمسين . كما في « أزهار الرياض » وكان الداعي إلى هذا كما قال أبو القاسم ما كان عليه النصارَى من الاحتفال بعيد الميلاد فقلدوهم في هذا الاحتفال أهل سبتة المسلمون

ومن شعراء سبتة آنذاك مالك بن المرحل المالقي الذي دعا إليه فقال :

فحق لنا ان نعتني بولاده وتجعل ذلك اليوم خير المواسم
وان نصل الأرحام فيه تقربا ونغدو له من مفطرين وصائم
ونترك فيه الشغل إلا بطاعة وما ليس فيه من ملام للائم
ونتبع فيه الصالحين فانهم هدونا بأنوار الوجوه الوسائم

ومهما يكن فهؤلاء العزفيون ورثوا الفضل والعلم أصاغر عن أكابر فأبو العباس والد الرئيس كان عالما قاضيا بها وأبوه عبد الله كان علامة قاضيا كذلك وأبو هذا الحسين ابن للفقيه الامام علي المعاصر لابن أبي زيد القيرواني كلهم فاضل ابن فاضل عالم ابن عالم

لقد تولّى الرياسة منهم — كما تقدم أبو القاسم فحكم سبتة وطنجة مضافة إليهما أصيلة نحو ثلاثين سنة ولما توفي سنة 677 تولّى سبتة ابنه أبو حاتم أحمد الذي خلع بأخيه أبي طالب بعد سنة من توليه فحكم قريبا مما حكم أبوه فاستمر سبعا وعشرين سنة صاحب سبتة ورئيسها إلى أن خلع سنة خمس وسبع مائة ولم يكن خلعه إلا بخيانة من الأمير النصري الذي وجه ابن عمه أبي سعيد فرج بن اسماعيل بن يوسف ابن الأحمر ليداهم البلاد على حين غفلة فتعرض بذلك شمل المدينة للتشتيت وهاجر منها حتّى بعض أولئك الذين نجوا من فتن بلادهم الأندلسية وكان منهم ابن شبرين الأديب العالم المتفنن الذي هاجر إلى الأندلس من سبتة

ولكن هذا الاحتلال الغاشم لم يطل حبله بل سرعان ما عاد العزفيون إلى بلدهم الحبيب فحكمها ابن أبي طالب أبو عمر يحيى سنة عشر وسبع مائة ولم تكن الظروف تساعد على استرجاع مجدها العزفي ولهذا وجدنا أبا عمر هذا لا يمكث إلا سنة حتّى يخلع ثم بعد ثلاث سنوات يعود إلى إمارته فيستمر فيها خمس سنوات أخرَى تنتهي بوفاته

ويوصف أبو عمر هذا بأنه كان شجاعا بطلا عارفا بالأصول والفقه والمنطق والعربية واللغة والحديث ، ويقال إنه أول من ركب بالرمح

والسيف من بني العزفي وجند الجنود وخلفه ابو القاسم محمد ولكنه خلع بعد سنة فهاجر إلى فاس حيث توفي بها كاتبا للحضرة المرينية وكان كذلك مثل أجَداده وآبائه فقيها شاعرا مكثرا وشاحا بز أهل زمانه في الموشحات وكان مولعا في نظمه بالتورية كما في أزهار الرياض وقد أراده أبو عنان على أن يتولّى حكم قسنطينة لما أخذها فاعتذر

وبالجملة فإن دولة العزفيين بسبتة كانت دولة العلم أكثر منها دولة سياسة ان صح هذا التعبير[1] وطال حكمهم لها لأنّها إن استثنينا تلك الفترات القليلة فإن الحكم العزفي لسبتة كاد يغطي قرنا من الزمان من سنة 646 إلى سنة 728 يضاف إليها سلطة قاضيها أبي العباس ولا ننسى ما كان للقضاة من سلطة على هذه المدينة منذ القرن الرابع حينما فتحت سبتة أبوابها لسلطة قضاتها ثم تعرض قاضيها أوائل القرن الخامس لانتقام الحموديين ثم لعبد المومن الموحدي ، واستمر بعد ذلك سلطانهم على سبتة في مد وجزر فاستفحل وضعف في عائلة العزفيين ثم حافظ على رمقه الأخير في عائلة الحسينيين الصقليين

وعلى كل حال فهذا هو نطاق العزفيين عامة وفيه كانت الأحداث المتتالية تواجهها سبتة الصامدة في شجاعة متناهية وضبط ونظام وكلما حال أمر سبتة إلى قوة أو ضعف ، كانت الأندلس لها بالمرصاد فقد تقدم أوائل القرن الرابع ما كانت تلوح به سبتة من خطر العبيديين مما جعل عبد الرحمن الناصر يوجه أساطيله للاستيلاء عليها

وفي أواسط القرن الخامس ارتفع شأنها بحكم سقوط البرغواطي لها فحاول المعتضد بن عباد الاستيلاء عليها بأساطيله العتيدة فما نجحت محاولته

(1) كان في الامكان أن نأتي بثبت لبعض الذين برزوا من العلماء والأدباء على عهدهم ولكننا أدرجناهم فيمن ذكروا بالعهد المريني للتداخل الذي لم يكن فاصلا بين العهدين

وفي الربع الأول من القرن السابع طرأ عليها ما طرأ من ضعف وقوة ، فكان ذلك مدعاة لابن هود الناجم بالأندلس كما تقدم فمد عليها جناحه ودخلت في حكمه ، معوضا صاحبها الأمير

وهكذا وجدنا سبتة وقد أمر الفقيه العزفي فيها تتعرض من جديد إلى الخطر الأندلسي ، فيوجه الأمير النصري اليها بأسطوله الذي كان يتولاه القائد ظافر ، محاولا الاستيلاء عليها فما ظفر ظافر بها كما نجد في البيان لابن عذارى حيث يقول

«في سنة اثنتين وستين . . . ، كان بين الفقيه أبي القاسم العزفي وبين الأمير أبي عبد الله بن الأحمر ، شنآن وفتنة وعداوة في القلوب متمكنة ، فأمر صاحب الأندلس القائد ظافرا أن يخرج بالاجفان الغزوانية فيضيق على سبتة ويحاصرها فاجتمعت ونزلت بالجزيرة الخضراء ، فكانوا يدخلون مرسى سبتة مرة بعد أخرى ويضيقون عليها ويقطعون المرافق الواصلة اليها فأمر الفقيه العزفي القائد أبا العباس الرنداحي ، أن يعمر جميع أجفان سبتة ، كبارا وصغارا فعمرها وخرج بها اليهم ، فكان الغالب عليهم والظافر بما لديهم ، فعكسهم ونكسهم وساقهم إلى سبتة ، ولم تفلت منهم إلا الأقل ، وقتل في جملة من قتل منهم القائد ظافر ، وعلقت جثته في البحر ، على حجر السودان وطيف برأسه سبتة ، ثم علق ويسمى هذا العام بسبتة عام ظافر»

ثم في أواخر أيام الرئيس أبي القاسم كان الملك النصري محمد الفقيه ابن الشيخ محمد بن يوسف المعروف بابن الأحمر يوفد مشيخة الأندلس على يعقوب بن عبد الحق فأنهَى الوفد إلى الملك المريني ما تعرضت له الأندلس من تكالب النصارَى على البقية الباقية منها فعزم يعقوب على نصرتهم ونهض من فاس سنة 673 فوصل إلى طنجة التي بايعته سنة 672 إثر حصارها واستدعَى من أبي القاسم العزفي السفن لاجازة جيوشه

فوافاه منه عشرون أسطولا وهو بقصر المجاز فأجاز العسكر الذي كان على رأسه ابن يعقوب أبو زِيان ونزل بفرضة طريف ، فكان للأندلسيين بهذا الأسطول النصر المؤزر الذي حققه الجيش المريني ثارا بعام العقاب كما يقول المؤرخون

ولكن في سنة 678 كانت العلاقة متوترة بين يعقوب وابن الأحمر ، فنكث هذا العهد وداخل النصارَى الذين نكث ملكهم عهده كذلك ووجه بأساطيله لمحاصرة الجزيرة الخضراء فاتصل بالسلطان يعقوب ما عليه الجزيرة من حصار مطوق وقتال مرير فوجه إلى الثغور في طلب الأساطيل وكان قد بعث بابنه يوسف إلى طنجة فتوافرت همم المسلمين على الجهاد وأجابوا من كل ناحية وابلَى الفقيه أبو حاتم العزفي صاحب سبتة آنذاك لما بلغه الخطاب من السلطان في شأن الأساطيل البلاء الحسن إذ قام فيه المقام المحمود فهيأ خمسة وأربعين أسطولا بسبتة واستنفر كافة أهل بلده من المحتلم إلى الشيخ فركبوا البحر بأجمعهم ولم يبق بسبتة إلا النساء والشيوخ والصبيان

ورأى ابن الأحمر ما نزل بأهل الجزيرة واشراف الطاغية على أخذها فندم على ممالأته اياه وأعد أساطيل سواحله من المنكب والمرية ومالقة ، فكانت اثني عشر أسطولا فبعثها مددا للمسلمين وقدم من بادس وسلا وآنفى خمسة عشر أسطولا واجتمعت كلها بمرفأ سبتة وقد أخذت بطرفي الزقاق في أحفل زي وأكمل استعداد ، ثم تقدمت إلى طنجة وهي اثنان وسبعون أسطولا فشاهدها الأمير يوسف وسر بها

وقد هال النصارَى ما شاهدوا من حماس جيش الاسلام الذي أجاز إلى جبل طارق وقضَى به ليلة المولد الكريم وأسطوله بالمرفأ وقد تظاهر المسلمون في دروعهم وأسبغوا من شكتهم وأخلصوا لله عزائمهم وتنادوا بالجنة وشعارها ووعظ خطباؤهم وذكر صلحاؤهم ثم التحم القتال ونزل الصبر ، فكسروا العدو ، واختل مصافهم وتساقطوا في

عباب البحر فاستلحمهم السيف وغشيهم اليم واستولى المسلمون على أساطيلهم فملكوها واسروا قائدها في حاشيته وفك الحصار عن الجزيرة وانتشر النساء والصبيان بساحتها في سرور وهناء

وفي سنة 683 كان يعقوب يتهيأ للجواز إلى الأندلس فوافته حصة الرئيس العزفي من غزاة ناشبين تناهز خمس مائة ناشب وتقدم الملك المريني معززا بالأسطول وقد جعل على فرقة حافده عمر لغزو حصن كان بالقرب من معسكره في الأندلس إذ كان أهله النصارى يقطعون الطريق على من خرج من المحلة مفردا فسرح إليه من غزاة سبتة من اقتحموه عنوة وقتلوا مقاتلته ونسفوه نسفا ذريعا وفي هذه السنة اتصل الخبر بيعقوب أن العدو أوعز إلى أساطيله باحتلال الزقاق فصدرت أوامر السلطان المريني الى سواحله من سبتة وطنجة وبلاد الريف وغيرها بتوجيه الأساطيل فتوافت له منها ستة وثلاثون أسطولا متكاملة في عدتها

وبذلك أحجمت أساطيل العدو وارتدت على أعقابها خاسرة خاسئة واحتل السلطان بالجزيرة الخضراء سنة 684 ونزل بقصره فبرزت أساطيل الاسلام أمامه بالمرسى وقامت بمناورات فيما بينها فتجاولت في البحر وتناطحت وتطاردت كعادتها ساعة الحروب فسر السلطان من مرآها وهو جالس بمشور قصره

وفي سنة 691 كان ابن الأحمر من جديد يتواطأ مع الملك النصراني ضد السلطان يوسف بن يعقوب وحدثت معركة طريف التي انتصر فيها جيش الملك النصراني بمظاهرة الملك ابن الأحمر الخائن ولكن هذا الرعديد سقط في يده بعد ذلك فصار يخطب مودة السلطان يوسف فأوفد عليه ابن عمه الرئيس أبا سعيد فرج بن اسماعيل ووزيره أبا سلطان عزيزا الداني في وفد لتجديد العهد وتقرير المعذرة عما حصل بطريف الشهيدة فتقبل ذلك يوسف وانقلبوا سنة 692 إلى ابن الأحمر باسعاف غرضه

ثم عزم على القدوم إليه بنفسه مستغيثا به على عدوه النصراني فعبر البحر ونزل بجبل بليونش من ناحية سبتة ثم ارتحل إلى طنجة فوافاه بها السلطان يوسف وتقبلَ منه هديته وهي المصحف العثماني الذي كان بنو أمية يتوارثونه كما يقال وكان السلطان يوسف في السنة قبلها قد أمر بعمل المولد والاحتفال به في المملكة كما كان بسبتة

وفي سنة 703 كان ابن الأحمر محمد المخلوع ابن الفقيه يتواطأ مع النصارَى أيضا ضد يوسف المريني وقد أوعز إلى ابن عمه الرئيس أبي سعيد المذكور وكان صاحب مالقة باعمال الحيلة في مداهمة سبتة واحتلالها بغتة فتم له ذلك واستولَى عليها سنة 705 وتقبض على بني العزفي وعلى حاشيتهم وأركبهم الأسطول إلى مالقة ومنها إلى غرناطة فأقاموا بها ثم عادوا إلى المغرب كما أشرنا إلى ذلك

وبعد فقد خصصنا هذا الفصل بالحكم العزفي لسبتة لأن ذلك الحكم كان يتمتع بالاستقلال إلى حد بعيد وان كان أولئك الأفاضل من العزفيين لم يريدوا بحكمة منهم ولباقة زائدة أن ينزعوا أيديهم من السلطان الذي كان يعم البلاد ويتخذ العاصمة التقليدية كرسيا له

لهذا وجدنا العزفيين على اتصال بالبقية الباقية من البيت الموحدي يعترفون لخلفائه بما كان معترفا به لهم في عهد السلطان الفعلي فيوجهون إليهم بالوفود تحمل الولاء والطاعة إليهم كما يخاطبونهم بنفس اللهجة التي كان الموحدون قد سنوها لأنفسهم وفيما يتصدر ذكر المهدي المنتظر المعلوم بالرضَى عليه كما نجد في هذه الديباجة[1]

والرضَى عن الامام المعصوم المهدي المعلوم الذي جاهد كل فئة ضالة حتَّى أبصر غاويها واقصر غاليها واطلع من أنوار الهدَى ما عاود به جدته من رسوم السنة باليها

---

(1) انظر رسائل القبتوري التي نشرها الدكتور محمد الحبيب الهيلة بالمطبعة الملكية الرباط

والدعاء لحضرة سيدنا ومولانا الخليفة الإمام المرتضي أمير المومنين أبي حفص ابن سيدنا الإمام الطاهر أبي ابراهيم ابن سيدينا الامامين أميري المومنين باطراد السعد الكفيل بذل مناويها وعز مواليها وانجاد العضد المسنّى لها من جليلات الفتوح ما لم يتسن في سالف العصور وخواليها

فكتب كتب الله لمقامكم الأسمى سعدا لا يزال الدهر منه مبتسما وقصدا للأجر في العناية بمصالح عباد الله وبلاده مغتنما ، وحمدا لا يبغي بطيبه بديلا من ظل لارجه متنسما

من سبتة كلاها الله ، وبركات الدعوة المرتضية التي عمرت بها ارجاؤها وحق في الاعتلاق بها ظن النفوس وصح رجاؤها وإلى هذا والى الله سعودكم ، وحرس وجودكم فقد تقدم خطاب معظمكم في هذه الأيام بذكر ما هدَى الله تعالى له من الاعتصام للدخول في دعوة الحق والركون لحرم الامامة التي ارضت الخالق قياما بمصالح الخلق ولمراعاته ما يشمل الأمة من المصالح لا ما يخصه وكونه لا يرضَى أن يكون إلا الله سبحانه لا لغرض ذميله في هذه الوجهة ونصه فاختاروا من صلحائهم وفضلائهم ومن وقع عليه اجماع البائهم وعقلائهم وعينوهم لهذا المهم الذي لم يسغ إنظاره والأكيد المبني عليه من كريم النظر لهم ما رجوا أن لا يطول انتظاره يمن الله سفارتهم وأمن سفرهم

إلى آخر الرسالة الصادرة عن أبي القاسم إلى أبي اسحاق الموحدي أخي الخليفة المرتضي وكبير وزرائه معلما فيها أن يوجه إلى الخليفة أعلاما من السبتيين لتقديم البيعة إليه[1]

هذا ما كان في العهد الأخير للموحدين ، ولما ظهر عليهم المرينيون وجدنا العزفيين يضعون أيديهم في أيديهم فنجد أبا القاسم يكاتب أبا

---

(1) الرسالة نشرها ضمن أخرَى من انشاء القبتوري ، الدكتور محمد الحبيب الهيلة ، بالمطبعة الملكية – الرباط .

يوسف برسالة ورد فيها

المقام الكريم الذي أعز الله تعالى به ملة التوحيد واعلاها وأذل بعد تخمطها وصيالها فئة الصليب بمتابع غزواته وموالاة الدعاء لمقامكم العلي المستلذ نصب الاجتهاد في الجهاد من سبتة — حرسها الله — وقد امتزجت ارجاؤها بما أهداه جلالكم من بشرَى الفتح الذي صح في مسى سنيه رجاؤها ومسير الصنع الذي آذن فئة الصليب الطاغية بأخذة الله الرابية المعوزه منها نجاتها ولو جد بها في الفرار ولا فرار من أمر الله نجاؤها والحمد لله كفاء ما أولاه أولياءه المومنين حين علم سبحانه أن نفوسهم قد خلصت في الافتقار له نياتها وصدق استمداد نصره التجاؤها وعند شيعتكم الذي أسعدته بادراك مدتكم المجددة فيها دوارس معالم الايمان

وإلى هذا والى الله تعالى لمقامكم الأعلى تتابع الخيرات التي أولاه منها ما لا يتناوله تعديد ولا يأتي عليه تحديد فإنه وصل كتابكم المعظم المبارك الأسنى واصفا ما تسنَّى لجلالكم في تلكم الحركة

وتعريفكم معظمكم بهذه الصنائع الرائقة الجمال والفتوح الفائقة الكمال بقدره تنويه ولجانبه تشريف (1)

هذه الرسالة طويلة وهي كغيرها من الرسائل العزفية الموجهة إلى هؤلاء المرينيين ، لا تتسم بتلك السمات التي كانت عليها رسائلهم إلى أولئك الموحدين فقد كانت في لهجتها لا تختلف كثيرا عن الأخرَى التي وجهت إلى يغمراسن صاحب تلمسان أو ابن الأحمر صاحب غرناطة مما يتسم بروح الغيرة الاسلامية أكثر مما يكون فيها منبئا عن التبعية

هذا ما كان من هؤلاء العزفيين ، وهم قابضون على زمام الأمور ببلدتهم سبتة ولكنهم بعدما تعرضت امارتهم لاغتصاب بني الأحمر ثم ارتدادها منهم بوساطة بني مرين، صارت تبعيتهم تفرض عليهم لهجة

(1) المصدر السالف.

خاصة بالرغم من كونهم قد حاولوا التحرر من هؤلاء فيما بعد فلم يوفقوا واسلموا الزمام إليهم وقد استسلموا

ومهما يكن فإن عهد سبتة أيام العزفيين كان يضاهي عهدها أيام الحموديين في الازدهار الذي قوي عند البرغواطيين فقد شاهدت نشاطا علميا حافلا لا يختلف عما سلف إلا بالتطور الذي يقضي به النشوء والارتقاء وهذه أبيات من قصيدة لابن خميس التلمساني قالها وهو في سبتة يحن إلى وطنه ويشيد فيها بالعزفيين ويقول

تركت لمينا سبتة كل نجعة
كما تركت للعز أهضابها الشمخ
وآليت الا ارتوى غير مائها
ولو حل لي في غيره المن والمذخ
وألا أحط الدهر إلا بعقرها
ولو بوأتني دار امرتها بلخ
فكم نقعت من غلة تلكم الأضا
وكم ابرأت من علة تلكم اللبخ
وحسبي مها عدلها واعتدالها
وأبحرها العظمَى وأريافها النفخ
وأملاكها الصيد المقاولة الألي
لعزهم تعنو الطراخمة البلخ
كواكب هدى في سماء رياسة
تضيء فما يدجو ضلال ولا يطخو
ثواقب أنوار تري كل غامض
إذا الناس في طخياء غيهم التخوا
وروضات آداب اذا ما تأرجت
تضاءل في افياء أفنانها الرمخ

مجامير ند في حدائق نرجس
تنم ولا لفح يصيب ولا دخ
وأبحر علم لا حياض رواية
فيكبر مها النضح أو يعظم النضخ
بنو العزفيين الألى من صدورهم
وأيديهم تملا القراطيس والطرخ
إذا ما فتى مهم تصدّى لغاية
تأخر من ينحو وأقصر من ينخو
رياسة أخيار وملك أفاضل
كرام لهم في كل صالحة رضخ
إذا ما بدا منا جفاء تعطفوا
علينا وان حلت بنا شدة رخوا
نزورهم حذا نحافا فننثني
وأجمالنا دلح وأبداننا دلخ
يربوننا بالعلم والحلم والنهى
فما خرجنا بزولاً حدنا برخ
وما الزهد في أملاك لخم ولا التقى
ببدع وللدنيا لزوق بمن يرخو
والا ففي رب الخورنق غنية
فما يومه سر ولا صيته رضخ
تطلع يوما والسدير أمامه
وقد نال منه العجب ما شاء والجفخ
وعن له من شيعة الحق قائم
بحجة صدق لا عبام ولا وشخ
فأصبح يجتاب المسوح زهادة
وقد كان يوذى بطن اخمصه النخ

وفي واحد الدنيا أبي حاتم لنا
دواء ولكن ما لأدوائنا نتخ
تخَلَّى عن الدنيا تخلي عارف
يرَى أنها في ثوب نخوته لتخ
وأعرض عنها مستهينا بقدرها
فلم يثنه منها اجتذاب ولا مصخ
فكان له من قلبها الحب والهوَى
وكان له من كفه الطرح والطخ
وما معرض عنها وهي في طلابه
كمن في يديه من معاناتها نبخ
ولا مدرك ما شاء من شهواتها
كمن حظه منها التمجع والنجخ
ولكننا نعمى مرارا عن الهدى
ونصلج حتَّى ما لآذاننا صمخ
وما لامرئ عما قضى الله مزحل
ولا لقضاء الله نقض ولا نسخ
أبا طالب لم تبق شيمة سؤدد
يشاد بها إلا وأنت لها سنخ
لسوغت أبناء الزمان أياديا
لدرتها في كل سامعة شخ
وأجريتها فيهم عوائد سؤدد
فما لهم كسب سواها ولا نخ
غذتهم غواديها فهي في عروقهم
دماء وفي أعماق أعظمهم مخ
وعمتهم حزنا وسهلا فأصبحوا
ومرعاهم وزخ ومرعيهم ولخ

بني العزفيين ابلغوا ما أردتم
فما دون ما تبغون وحل ولا زلخ
ولا تقعدوا عمن أراد سجالكم
فما غربكم جف ولا غرفكم وضخ
وخلوا وراء كل طالب غاية
وتيهوا على من رام شأوكم وانخوا
ولا تذروا الجوزاء تعلو عليكم
ففي رأسها من وطء أسلافكم شدخ
لافواه أعدائي وأعين حسدي
إذا جليت خائيتي الغص والفضخ
دعوها تهادى في ملاءة حسنها
ففي نفسها من مدح أملاكها مدخ
يمانية زارت يمانين فانثنت
وقد جاء فيها الزهو واستحكم الزمخ

وهي طويلة كما يقول المقري في أزهاره ولا شك أن صاحبها تعمد هذا الحرف الذي ينبو عنه الذوق في بناء القوافي ويتعسر على من يراوده. كما يعسر فهم الكلمات التي وجدنا هذه الأبيات تنتهي به، إلا قليلا منها والشاعر مزهو بهذا متحد فيه كما رأينا في الأبيات الثلاثة التي انتهت بها القصيدة وكان للشاعر منافسون وحاسدون امتحن بهم وبتلاميذهم كما هو مذكور في كتب التراجم والآداب عندنا[1]

(1) بحق فإن هذه القصيدة ، يمكن أن تكون مصدرا لغويا ذا بال في مادته . ولا نعرف من المعاجم التي تتبع نظام الحرف الأخير من الكلمات ما يحتوي على جميع هذه الحروف ونعجب لأستاذنا مصطفى السقا رحمه الله . كيف تأتّى له تفسيرها جميعا وان كنا على معرفة بما كان عليه المرحوم من سعة في العلم وقدرة على حفظ اللغة وشواهدها وسمعت أن أستاذنا الدكتور طه حسين ، رحمه الله ، غم عليه ذات يوم في بعض الأبيات ، فلم يجد من يفرج عنه هذه الغمة إلا مصطفى السقا فرحم الله أساتذتنا جميعهم رحمة واسعة .

وقبل ان نودع العهد العزفي نتعرض لما ورد عن سبتة في كتابين معاصرين الأول كتاب البيان المعرب لابن عذارى والثاني كتاب الروض المعطار لمحمد الحميري المتوفى أواسط القرن الثامن

فنجد في البيان مدينة سبتة على بحر الزقاق من بر العدوة التي هي نظام باب المغربين ومفتاح باب المشرقين وهي على ما قيل مجمع البحرين قاعدة البر والبحر واللؤلؤة الحالة من الدنيا بين السحر والنحر

(إلى أن يقول) فشكها أمير المومنين الناصر بالرجال واتقنها بالبنيان وبنَى سورها بالكدان والزم فيها من رضيه من قواده وأجناده وصارت مفتاحا إلى العدوة قال عريب(2) وبابا إليها وثقافا على المراسي في ذلك الجانب وكان الحكم تمم بناء سور سبتة في عام 351 وفي سنة 353 كتب سجلا إلى أهل سبتة رفع عنهم فيه جميع الوظائف المخزنية في المغارم السلطانية

وهذا وصف نقله ابن عذارى عن أندلسي متقدم كما يبدو من لهجته ولكنا ذكرناه هنا اعتبارا لتاريخ ناقله ابن عذارى وان لم يكن فيه كبير فائدة بخلاف الكتاب الثاني الذي أطال في وصفها جغرافيا وخططيا وتاريخيا وما قيل في اشتقاق اسمها والنسبة اليه وغير ذلك من الفوائد الكثيرة فهو بهذا وصف شامل وان كنا نجده يستعين بما ورد عنها في كتابي البكري والادريسي بالنص كما نرَى فيما تقدم للرجلين . ولكنه زاد عليهما وذكر فوائد تاريخية سبق ذكر بعضها كما استعان بكتاب الاستبصار المذكور ولم يرد فيه ذكر للعزفيين بالرغم من كونه عاصرهم

وهذا أهم ما ورد فيها من كتابه

---

(2) هو عريب بن سعد المتوفى عام 369 كان من قرطبة كاتبا للحكم المستنصر المرواني وقد لخص تاريخ الطبري . وأضاف عليه أخبار المغرب والأندلس كما في تاريخ الفكر الأندلسي لانخل كونثالب بالنبتيا وترجمة حسين مونس .

سبتة مدينة عظيمة على الخليج الرومي المعروف بالزقاق وهو اول البحر الشامي المنتهي إلى مدينة صور من أرض الشام وهي تقابل الجزيرة الخضراء والمعروف أنها مفتوحة السين والنسب إليها بكسرها مثل بصرة وبصري والبحر يحيط بسبتة شرقا وجوفا وقبلة وليس لها إلى البر غير طريق واحد من ناحية الغرب لو شاء أهلها أن يقطعوه قطعوه ولها بابان أحدهما محدث ولها من جهات البحر أبواب كثيرة وفي آخر المدينة بشرقيها جبل كبير فيه شعراء كثيفة يسمًّى جبل المينا وقد كان عبد الملك ابن أبي عامر أمر أن تبنى بهذا الجبل مدينة ينقل إليها أهل سبتة فبَنَى سورها ومات ولم يتم له المراد والسور باق إلى الآن كأنه بني بالأمس وهو يظهر من بر الأندلس لبياضه ومن غرائب ذلك السور أن فيه شقة مستطيلة بأبراجها مبنية بالزيت عوضا من الماء وكان غرضه اتمام عمله على هذا النعت لولا الانفاق الكثير فإن البناء بالزيت أصلب وأبقَى على مرور الدهر فلم يساعده الأجل

وسبتة سبعة(1) جبال صغار متصلة بعضها ببعض معمورة طولها من المشرق إلى المغرب نحو ميل ويتصل بها من جهة المغرب وعلى ميلين منها جبل موسى وهذا الجبل مسوب إلى موسى بن نصير الذي على يديه كان افتتاح الأندلس في صدر الاسلام وتجاوره جنات وبساتين وأشجار وقرى كثيرة وقصب سكر وأترج يتجهز به إلى ما جاور سبتة من البلاد وهو الموضع المسمَّى بليونش وبه مياه جارية وعيون مطردة وخصب زائد ويلي المدينة من جهة المشرق جبل عال أعلاه بسيط في أعلاه سور بناه محمد ابن أبي عامر حين جاز إليها من الأندلس وأراد أن ينقل المدينة إلى أعلى هذا الجبل عند فراغه من بناء أسوارها وعجز أهل سبتة عن الانتقال فمكثوا في مدينتهم وبقيت المدينة خالية وأسوارها قائمة قد

(1) فهي Septum اللاتينية بمعنَى سبعة ولعل النسبة بالكسر اعتبار لهذا والا فتكون لأمن اللبس كما حصل في البصرة التي اشار إليها المؤلف سابقا ومما لا شك فيه أن سبتة فنيقية قبل الاحتلال الروماني وبذلك يقع إشكال في هذه التسمية لدرجة أن ادعى أنها محلية لا علاقة لها باللاتينية ولكن قد يمكن الجمع بين الأقدمية والتسمية الحديثة

نبت حطب الشعراء فيها   وهذه الأسوار تظهر من عدوة الأندلس لبياضها

وسبتة مدينة قديمة سكنها الأول   وفيها آثار كثيرة وكان لها ماء مجلوب من نهر على ثلاثة أميال منها   يجري إليها من قناة مع ضفة البحر القبلي فكان يدخل كنيستها التي هي الآن جامع سبتة وكان يوسف بن عبد المومن سنة ثمانين وخمس مائة أراد أن يجلب إليها الماء من قرية بليونش على ستة أميال من سبتة في قناة تحت الأرض على حسب ما فعله الأوائل في قناة قرطجنة   وشرع في عمل ذلك ثم اقتصر عليه   وعلى قرية بليونش جبل عظيم فيه القردة   عبر من تحته موسى بن نصير إلى ساحل طريف   وكان عليه حصن هدمته مصمودة المجاورون له   ثم بناه الناصر عبد الرحمن المرواني فهدموه ثانية   وتحته أرض خصيبة فيها مياه عذبة وعليه قرية تعرف بقصر مصمودة (القصر الصغير)   ولها نهر يصب في البحر عذب   والبحر يحيط بسبتة من جميع جهاتها إلا من جهة الغرب   فكان البحر يكاد يلتقي ولا يبقى بينهما إلا أقل من رمية قوس   وبسبتة مصايد للحوت ويصاد بها منه نحو مائة نوع   ويصاد بها   التن » زرقا بالرماح وفي أسنتها أجنحة تثبت في الحوت ولا تخرج   وفي أطراف عصيها شرائط القنب الطوال ولهم في ذلك دربة وحنكة   ويصاد بها أيضا شجر المرجان الذي لا يعدله مرجان   وبها سوق لتفصيله وحكه وثقبه وتنظيفه   قالوا وتظهر سبتة عند صفاء البحر من الجزيرة الخضراء   ولذلك قال بعض المتأخرين [1]

لما حططت بسبتة قتب النوى   والقلب يرجو أن يحول حاله
بصرت من بلد الجزيرة مكنسا   والبحر يمنع أن يصاد غزاله
كالشكل في المرآة تبصره وقد   قربت مسافته وعز مناله

---

(1) هو سهل بن محمد بن سهل الأزدي 639 كما تقدم   وسقط من الأبيات الثاني — كما بالإحاطة — وهو

والجو مصقول الأديم كأنما   يبدي الخفي من الأمور صقاله

ويذكر من الأماكن المتصلة بها أصادة قال مدينة أصادة قرب سبتة من أرض المغرب فيها آثار الأول وهي ذات أعناب وأشجار كثيرة وهي بقبلي يجاجن هنالك بينهما ستة أميال

ويجاورها على الطريق أربعة أصنام وماء الحياة موضع على ضفة البحر قريب من سبتة فيه عيون نابعة بين أحجار من تحت رمل طيبة عذبة يصل إليها الموج وينبط الماء العذب في هذا الرمل بايسر حفر

ويذكر أنه بهذا الموضع نسي فتى موسى عليه السلام الحوت ويوجد في هذا الموضع دون غيره حوت ينسب إلى موسى عليه السلام عرضه مقدار ثلثي شبر. وطوله أكثر من شبر ولحمه طيب نافع من الحصى مقو للباه

يجاجين بمقربة من سبتة وهي مدينة جليلة مفيدة على نهر عذب وبها جامع وأسواق وحمام وهي لمصمودة

كما يذكر معلومات عن قرية بليونش وما قيل فيها من أشعار تقدم بعضها

❋

الباب السادس

سبتة في عهد المرينيين

وفيه فصلان الأول حكم المرينيين المستقر بها

بالرغم من امتداد سلطان بني مرين على جميع المغرب، فانهم لم يريدوا أن ينحوا عن سبتة حكم العزفيين المستقل أو شبيه به أما الآن وقد تعرضت سبتة للغزو الخارجي فإن موقفهم فرض عليهم أن يثبتوه بها ولهذا ما سقطت في يد الخيانة والغدر واستبد بها أبو سعيد الذي كان ولا شك عينا لسيده في تلك الوفادة الكاذبة وبلغ الخبر إلى السلطان يوسف المريني العظيم حتّى حمي أنفه وعظم الأمر عليه فبعث ولده أبا سالم ابراهيم في جيش كثيف لحصار هذا الغادر بها وقد حشد إليها عساكر الريف وتازا فلم يوفق لاستخلاصها وعاد إلى أبيه مهزوما فسخطه لأن الحصار البري لا يغني في فتح المدينة كما قلنا فيما قبل

ومن المؤسف الذي كان يقع مثله كثيرا لذلك العهد ان الأمير عثمان بن أبي العلاء ادريس بن عبد الحق كان في صحبة أبي سعيد النصري عند استيلائه على سبتة بالغدر والمكر لأن هذا الأمير كغيره كان قد اقصي عن المغرب إلى الأندلس لسياسة جرت عليها الدولة واستمرت معمولا بها من الجانبين وكان من أخطارها ما نجم بالفعل كما سنرى بعد

وما كان اتيان هذا الأمير ينحصر على مصاحبة هذا الغازي اللئيم بل انه كان خطوة للثورة على الدولة أو سلطانها في قبائل من غمارة التي

دعا لنفسه بها وتنقل في ربوعها حتّى استطاع أن يمد سلطانه على مدن ذا أهميتها مثل أصيلا وتكساس وانتهى إلى قصر كتامة ثم وقع التغلب عليه وأعيد إلى الأندلس على ترضية له بتوليه مشيخة الغزاة هناك فكانت له مواقف شكرت فيما بعد

وفي سنة 707 عاود المرينيون استخلاص سبتة من يد النصريين فغزا السلطان أبو ثابت بلاد غمارة حيث كان ابن ادريس المذكور قد استفحل أمره وصارت دعوته تلج عليه دار ملكه وصمم على استخلاص سبتة لأنها كما يقول صاحب الاستقصا صارت ركابا لمن يروم الخروج على السلطان من القرابة المستقرين وراء البحر ليكونوا غزاة في سبيل الله فتوجه السلطان إلى سبتة حيث كان ابن ادريس قد لجأ إلى ناحيتها ثم تحصن فيها مع أوليائه النصريين ثم ضيق السلطان على سبتة الخناق وسرح على اكتساح أموالها وغزو جهاتها

وفي هذا القصد أمر باختطاط تطوان أو تجديدها لنزول العسكر بها والأخذ بمخنق سبتة منها وكانت قصبتها قد بنيت أيام يوسف 685 واستمر العمل على استخلاص سبتة سنة لم يفلح فيها الحصار البري وتوفي السلطان في آخرها بطنجة وهو يفاوض صاحب سبتة في التنازل عنها وعودتها إلى حظيرة الدولة الأم وكانت وفاته سنة 708

ولما كان أبو الربيع سليمان بن أبي عامر عبد الله بن يوسف قد بويع من أهل الحل والعقد وارتحل نحو فاس فاصلا عن طنجة تبعه عثمان بن ادريس المذكور وقد نهض إليه من سبتة في جيش كثيف فكانت الهزيمة عليه وتمكن السلطان بعدها من احكام الصلح مع ابن الأحمر فانتهى ذلك بعودة ابن ادريس إلى الأندلس ومغادرته المغرب كما أشرنا سابقا

ولكن سبتة بقيت خارجة عن سلطان المرينيين حتّى ثار بها أهلها على النصريين الذين سئموا مملكتهم الدخيلة وثقلت عليهم سيطرتهم فبادر

السلطان بتوجيه تاشفين بن يعقوب الوطاسي على رأس جيش قصد به نحو سبتة وما شعر بذلك أهلها حتّى تنادوا بشعار بي مرين وطردوا حامية بي الأحمر ودخل تاشفين سبتة 709 وتقبض على قائد القصبة أبي زكريا يحيى بن مليلة وعلى قائد البحر أبي الحسن بن كماشة وعلى قائد الحرب بها من القرابة عمر بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق

وبذلك تكون سبتة قد حكمت بين قائد حاميتها برا وقائد بحريتها للدفاع بحرا وجيش يحمي حوزتها ويهاجم عند الاقتضاء بالاضافة إلى حاكمها المدني الذي كان من أمراء النصريين ، كما رأينا

وقد عم السرور جميع البلاد بعودة سبتة السليبة وضاق ابن الأحمر ذرعا وكان عاقبة أمره خسرا فجنح إلى السلم صاغرا ونبذ يد الكفر مذعورا فبادر أبو الجيوش نصر بن محمد المخلوع وأوفد إلى السلطان راغبا في احكام عقد الصلح ومتنازلا عن الجزيرة الخضراء التي صارت إليهم كما تنازل عن رندة وحصونها الشاهقة واتماما لهذه المصالحة أنكحه السلطان أخته التي خطبها وحسنت الاحوال بين الدولتين ، وظلت جيوش المغرب تحمي حمَى النصريين ، طيلة سلطان هذا الملك المريني

وكأن المرينيين أرادوا عودة العزفيين إليها فبعد أربع سنوات على خروج سبتة من يد العزفيين ، نجدهم وقد عادت إلى سلطان بني مرين يتوقون إلى العودة إلى المغرب بالرغم مما شملهم به ابن الأحمر المخلوع من رعاية وعناية فاستأذنوا السلطان أبا الربيع المريني في العودة إلى بلادهم فعادوا واستقروا بالحضرة فاس فكان أبو زكريا يحيى وأبو زيد عبد الرحمن ابنا أبي طالب عبد الله بن أبي القاسم الرئيس من سراة هذا البيت وأهل المروءة فيهم كما كانوا يغشون مجالس العلم بجامع القرويين . لما كانوا عليه من انتحاله كما يقول صاحب الاستقصا وتقدم مضمونه وقد ربطت الزمالة العلمية بين السلطان أبي سعيد أيام الطلب وبين أبي زكريا المذكور إذ كانا يحضران مجلس الشيخ أبي الحسن الصغير فلما افضَى

إليه الملك رعَى هذه الزمالة والمودة القديمة فأنعم على بني العزفيين ، وعقد لأبي زكريا منهم على سبتة وردهم إلى موطن سلفهم الأصيل فأقاموا بسبتة منذ سنة 712 ولاة لبني مرين وداعين لسلطانهم أبي سعيد

غير أن تحولا حدث بتفويض السلطان لأبنه أبي علي الأمر ، فعزل هذا أبا زكريا العزفي وولَّى مكانه أبا زكريا حيون ابن ادريس القرشي أبا العلاء واستقدم أبا زكريا العزفي إلى الحضرة فقدمها هو وأبوه أبو طالب وعمه أبو حاتم واستقروا في جملة السلطان وحاشيته وتوفي أبو طالب أثناء ذلك

ولما انتقض أبو علي على أبيه لحق أبو زكريا وأخوه أبو زيد بأبي سعيد نازعين إليه ومفارقين لابنه الثائر عليه فاستمروا عنده إلى أن مرض أبو علي الثائر فزحف إليه أبوه فأخرجه من فاس وهام على وجهه ثم عقد السلطان أبو سعيد لأبي زكريا على سبتة مرة أخرَى وترك ابنه محمدا معه رهنا تحت يده على الطاعة كما قال المؤرخون إذ كيف لا يحتاط هؤلاء من عمالهم وأولادهم يثورون عليهم ؟

وعلى هذا استقل أبو زكريا بحكم سبتة هذه المرة لمدة سنتين ، ثم توفي عمه أبو حاتم بها سنة 716 وفي هذا التاريخ نجد ما كان يحذره السلطان قد وقع فعلا فقد أعلن أبو زكريا استقلاله أو انتقاضه على أبي سعيد زميله وصديقه القديم وصاحب نعمته عليه وعلى أفراد عائلته

وكان قد حكم المدينة بطريقة الشورَى كما كان جده قد فعل مع طنجة لما صارت إليه من يد ابن الأمير المذكور سلفا ولم يكتف بهذا بل استقدم من الأندلس الامير عبد الحق بن عثمان الذي سبق له أن ثار على السلطان أبي الربيع مع الوزير عبد الرحمن الوطاسي ولما قدم عليه جعله قائد جيوشه ومتولي حربه ليوهن به بأس بني مرين الذين كان يخافهم

وعلم أبو سعيد بهذا فقام وقعد ، وخف بتجهيز العساكر وتسريحها على

سبته وجعل عليها الوزير ابراهيم بن عيسى اليرنياني فحاصرها هذا مدة واعتذر إليه أبو زكريا بحبس ولده عند السلطان ووعد بأنه إن سرحه إليه عاد إلى طاعته له وكانت هذه خدعة منه ماكرة فإن هذا الوزير انخدع له وطير بالخبر إلى السلطان فأسرع بتوجيه ولده إليه بعد أن يقتضي منه موجبات الطاعة وأسبابها وجاء الخبر إلى أبي زكريا بأن ابنه قد قدم وأنه كائن بفسطاط الوزير بساحل البحر حيث تتأتى الفرصة في أخذه فبعث أبو زكرياء إلى عبد الحق ابن عثمان قائد الحرب وأعلمه بمكان ابنه فواطاه عبد الحق على انتزاعه منهم ثم هجم ليلا في جماعة من حاشيته على فسطاط الوزير فاحتمل الولد وأصبح به عند أبيه ووقعت التهمة على الوزير وتقبض عليه وحمل إلى السلطان الذي ظهر له اخلاصه وصدقه فبرأ ساحته وسرحه

انه موقف من أبي زكرياء لو أخذنا بظاهره لحكمنا على صاحبه بما لا يحمد ذكره ولكنها السياسة لها وجوهها المقنعة لا يعرف كنهها إلا من يواجهها على حقيقتها فأبو زكرياء سليل الفضل والنبل والمثالية ربما رأى في تصرف أبي سعيد وابنه ما يعرض مدينته للفوضى والفتن من جديد وربما تراءى له شبح المصير المظلم في زاوية هؤلاء المتناطحين الذين لا يرعون بيهم إلاً ولا ذمة وقد فقدوا الثقة من أنفسهم وذويهم والا لما كان هناك مبرر لاتخاذ ولد العزفي رهينة وما كان العزفيون في يوم من الأيام خونة لعهودهم مخلفين لوعودهم ثم لربما كانت هناك أشياء أخرى تدور على محور الشخصية المتوارية دفعت بأبي زكرياء إلى هذا المجال

أما من ناحية أخرى فأبو زكرياء جعل مقاليد مدينته في يد أهلها يتولوها حسب ما يفرضه مجلس الشورى الذي شكله لادارة الأمور كما شكل جده فيما مضى مجلسا آخر لحكم طنجة فيما سبقت الإشارة إليه

بعد هذا كله نجد أبا زكريا يسعى لرضا السلطان أبي سعيد وقد حصل ابنه في حوزته وكأن أبا سعيد ساورته الريب فيه فرأى أن يعجم

عود الحقيقة عن كثب وبهض سنة 716 إلى طنجة لاختبار نوايا ابي زكرياء وأثبت الاختبار أن الرجل صادق في موقفه مخلص في مهمته فعقد له من جديد على سبتة متعهدا بأن يحمل الجباية إلى السلطان مع هدايا سنية ينالها كل سنة واستمر الحال على ذلك طيلة السنوات الأخيرة إلى أن توفي أبو زكريا سنة 720 فخلفه على حكم هذه الفرضة الجميلة ابنه محمد إلى نظر ابن عمه محمد بن علي ابن الفقيه أبي القاسم شيخ قرابتهم وكان هذا قائد الأساطيل بسبتة وهو أهم الوظائف بالنسبة إليها وكان قد تولّى هذه الإمارة البحرية بعدما نزع القائد يحيى الرنداحي إلى الأندلس وقد كانت قيادة الأساطيل بيد عائلة الرنداحي إذ نجد ذكرا لأبي علي الرنداحي قائدا للبحرية لهذا العهد

ثم تغلب محمد بن علي على شؤون سبتة واشتط —كما يبدو— في استعمال أو استغلال نفوذه فاختلفت عليه الكلمة وثار في وجهه الغوغاء مما عرض سمعة العزفيين إلى الاضطراب والفوضى

وكان أبو سعيد يرقب الوضع من بعيد ولعل أصبعا له كانت تتحرك في الخفاء فجاءت الفرصة السانحة لتحركه إلى سبتة فهض إليها سنة 728 ونزل عليها فوافته بيعة السبتيين وطاعتهم تلقائية وقبع محمد بن أبي زكريا في عقر مكانه وتهور محمد بن علي في ثلة من الاوباش ظن أنه بهم يستطيع المناهضة والممانعة فتصدّى له أهل سبتة بأنفسهم واقتادوا العزفيين إلى السلطان أبي سعيد منقادين إليه فحل السلطان بقصبة المدينة وضبط شؤونها وأقر النظام بها وثقف جهاتها ورم منثلمها وأصلح خللها واختار لها رجالا ذوي الكفاءة والثقة من خواص مجلسه فعقد لحاجبه عامر بن فتح الله السدراتي على حاميتها ولأبي القاسم بن أبي مدين العثماني على جبايتها والنظر في مبانيها واخراج الأموال للنفقات فيها وأسنى جوائز الملأ من مشيختها ووفر اقطاعاتهم وجرياتهم وأوعز ببناء البلد المسمّى أفراك على سبتة ـ فشرعوا في بنائها سنة 729 وانطوت

بذلك صفحة العزفيين بسبتة، التي تولوها نحو قرن من الزمن كما قلنا وكان انطواؤها هذا بسبب محمد بن علي المتغلب على ابن عمه محمد بن أبي زكرياء، الذي نقل صاحب الاستقصا في حقه ما قاله ابن الخطيب، في كتابه الاكليل «فرع تأود من الرياسة في دوحة، وتردد بين غدوة في المجد وروحة، نشأ والرياسة العزفية تعله وتنهله، والدهر ييسر أمله الأقصى ويسهله حتَّى اتسقت أسباب سعده وانتهت إليه رياسة سلفه من بعده فألقت إليه رحالها وحطت ومتعته بقربها بعدما شطت ثم كلح له الدهر بعدما تبسم وعاد زعزعا نسيمه الذي تنسم وعاق هلاله عن تمه ما كان من تغلب ابن عمه واستقر بهذه البلاد نازح الدار بحكم الاقدار وان كان نبيه المكانة والمقدار» وابن الخطيب يريد بالبلاد الأندلس وكان عبد الحق بن عثمان الذي خرج على أبي الربيع وبايعه عبد الرحمن الوطاسي قد حضر انتقاض العزفي سنة 716 كما تقدم

وبالرغم من انقضاء سلطة العزفيين فإن المرينيين كما تقدم لم يريدوا لهذه السلطة أن يقضى عليها تماما فمحمد العزفي المذكور صار في خدمة المرينيين فكان في دولة أبي الحسن يعقد له على الأساطيل بها فيقوم بذلك خير قيام

وفي عهد أبي الحسن تمشت النميمة بينه وبين ابنه أبي عبد الرحمن فتقبض عليه وسجنه

وكان رجل مرتب في مطبخه يعرف بابن هيدور الجزار. يشبهه في الصورة فادعَى أنه أبو عبد الرحمن ولحق ببني عامر بن زغبة المنحرفين على أبي الحسن فبايعوه وبعد قتال هزم فيه هرع إلى بلاد العرب فبعث أبو الحسن إلى صهره أبي بكر الحفصي بإشخاصه فوجهه إليه مع بعض حاشيته فلحق به بمكانه من سبتة وهو يريد الجهاد. فأعدم بها وانحسم داء فتنته بالمغرب

وفي حلول أبي الحسن بسبتة وافت مرساها أساطيل كان منها أسطول

زيد بن فرحون قائد أسطول بجاية جاء بستة عشر أسطولا من أساطيل افريقية كما كان فيها أساطيل من طرابلس وقابس وتونس وجربة وبونة إلى جانب بجاية وبذلك كانت بمرسى سبتة أساطيل تناهز المائة

وأخرج طاغية الاسبان أسطوله إلى الزقاق ليمنع اجازة السلطان فعقد أبو الحسن على الأساطيل لمحمد بن علي العزفي الذي ذكر آنفا ثم وقعت معركة بحرية انتصر فيها حزب الاسلام على حزب الطاغية النصراني وقتل قائد الأسطول الذي أسروه واتوا به مجنوبا إلى سبتة فبرز الناس لمشاهدته مستبشرين فرحين . ونظمت أصفاد الاسرَى بدار الانشاء وجلس السلطان أبو الحسن للتهنئة وأنشد الشعراء قصائد التهنئة بهذا النصر المظفر بين يديه سنة 740

ثم شرع أبو الحسن في اجازة العساكر وانتظمت الأساطيل سلسلة واحدة من العدوة إلى العدوة فأجاز في أسطوله بخاصته وأناخ بساحة طريف وقد التحق به أبو الحجاج النصري فحاصرها أبو الحسن ونازلها وطال الحصار وحدثت الفاقرة إذ زحف الطاغية يظاهره طاغية البرتغال فكانت الدائرة على أبي الحسن 741

وقد لحق ابن الأحمر أبو الحجاج بن يوسف بغرناطة بعد الهزيمة وخلص أبو الحسن إلى الجزيرة الخضراء فجبل طارق ومنه عبر إلى سبتة وتوجه بعد ذلك النصارَى إلى الجزيرة الخضراء فحاصروها وأمر أبو الحسن أسطول سبتة بالتوجه لفك حصارها ولكن ذلك لم يغن شيئا

ثم عبر ابن الأحمر إلى أبي الحسن وهو بسبتة يفاوضه في شأن التسليم وانتهَى الأمر باحتلال المدينة سنة 743

وقد كتب أبو الحسن رسالة إلى اسماعيل بن محمد بن قلاوون بما كان منه في سبتة من الدفاع قال فيها لما وصلنا من الأندلس الصريخ أنبأنا أن الكفار قد جمعوا أحزابهم .وفرض عليهم « باباهم » اللعين

التناصر وان تقصد طوائفهم البلاد الأندلسية ليمحوا كلمة الاسلام منها فقدمنا من يشتغل بالاساطيل من القواد وسرنا على اثرهم إلى سبتة منتهى المغرب الأقصى وبلد الجهاد فما وصلناها إلا وقد أخذ أخذه العدو الكفور وسدت أجفان الطواغيت على التعاون مجاز العبور وأتوا من أجفانهم بما لا يحصى عددا وأصدروهم بمجمع البحر حيث المجاز إلى دفع العدا واجتمعوا إلى الجزيرة الخضراء أعادها الله بكل من جمعوه من الاعاد لكنا مع انسداد تلك السبيل حاولنا امداد تلك البلاد وجهزنا أجفانا مختلسين فرصة الاجازة حتَّى تلف منها سبع وسبعون قطعة

وفي أواخر أيام أبي الحسن كان ابنه أبو عنان قد انتقض عليه وبايعه معظم جهات المغرب إلا سبتة فإنها تمسكت بطاعة أبي الحسن ولم تسارع بمبايعة أبي عنان

ولما تحققت من الأمر بآخرة ثارت على عاملها عبد الله بن علي بن سعيد من طبقة الوزراء وجاءوا به إلى أبي عنان مبايعين وتولَّى كبر ذلك فيهم زعيمهم الشريف أبو الحسن أحمد بن محمد الصقلي الأصل

وفي سنة 756 صدرت الأوامر إلى أسطول سبتة بالتوجه إلى القبض على عامل جبل طارق عيسى ابن منديل لقيامه فجاء به وبابنه وهو من شيوخ المرينيين

وفي سنة 757 كان أبو عنان يفتح قسنطينة ويقبض على صاحبها أبي العباس الحفصي ويوجه به في أسطول إلى سبتة ليعتقل بها

ويبدو أن سبتة اختيرت في الدولة المرينية — كما كانت فيما مضى — لاعتقال ذوي الاخطار الذين يخشَى منهم حشد الناس لهم لانقطاعها عن الجمهور

ولما توفي أبو عنان . كان أخوه أبو سالم بغرناطة . فأجاز إلى أزمور

بمعاونة ملك قشتالة بيدرو الثاني والتف حوله غمارة فملك طنجة وسبتة سنة 760

وبعد سنة نزل بها الغني مخلوعا مع وزيره ابن الخطيب فأقاما كما هو معلوم — مدة بالمغرب إلى أن واتت الفرصة التي أتاحها المرينيون لهذا المخلوع فاسترد ملكه وسيكون له شأن خطير فيما يخص سبتة بالذات كما سنرَى بعد

وفي سنة 763 كان أبو زيان محمد بن أبي عبد الرحمن يعقوب بن أبي الحسن يأتي من اشبيلية حيث كان لاجئا عند طاغية النصارَى فنزل بسبتة بقصد مبايعته وبسبتة آنذاك سعيد بن عثمان من قرابة الوزير عمر الذي كان حاجب أبي زيان

وكان لما التبست عليه الأمور طلب من الطاغية السماح لأبي زيان بالاتيان . فسمح به بعد اشتراط اشتطاط كما يقال فلما علم بحلول أبي زيان في سبتة خلع عمر تاشفين الموسوس وبعث إلى أبي زيان بالبيعة ثم بعث عسكرا تلقوه في طنجة فساروا به إلى كدية العرائش ومنها أغذوا السير حتَّى وصلوا الحضرة فدخل القصر

وهناك وردت عليه قصيدة لابن الخطيب الذي كان بسلا آنئذ مطلعها

يا ابن الخلائف ياسمي محمد يامن علاه ليس يحصر حاصر
أبشر فأنت مجدد الملك الذي لولاك أصبح وهو رسم داثر
من ذا يعاند منك وارثه الذي بسعوده فلك المشيئة دائر

إلى آخر القصيدة مع الرسالة التي تصرخ بلؤم ابن الخطيب فقدما قال في أبي سالم ما قال ولما قتل رأيناه يقول فيه جاحدا ما هو معلوم

وفي سنة 770 كان السلطان عبد العزيز بن أبي الحسن يوعز إلى أسطول سبتة باسترجاع الجزيرة الخضراء فتم استخلاصها من النصارَى

الذين نزلوا عنها على صلح فدخلها المسلمون وأقيمت بها الصلوات ومحيت عنها كلمة الكفر ، وسلمت لابن الأحمر ثم ارتُوي هدمها خشية استيلاء النصارَى من جديد عليها فهدمت أعوام الثمانين

وفي سنة 773 كان ابن الخطيب ينزل بسبتة نازعا عن سلطانها الغني بالله محمد بن يوسف ابن الأحمر المخلوع فأركب السلطان عبد العزيز خاصته لتلقيه حينما أشرف على تلمسان حيث كان وأخرج لوقته كاتبه أبا يحيى بن أبي مدين سفيرا في طلب أهله وولده

الفصل الثاني بعد ذلك إلى سقوطها

وكان لجوء ابن الخطيب إلى المغرب طالعة شؤم عليه وعلى سبتة بالذات التي ستسقط بسببه في يد ابن الأحمر الخائن الناكر كما نرَى فان هذا الملك صار يطالب بوزيره ويتحين الفرص للايقاع به وقد واتاه الحظ العاثر ، حيث تسلط على الحكومة الضعيفة المتطاحنة برجالها فشتت شملها بين ملكين إذ كان الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن في حجره ، كما جرت به العادة في هذه الدولة فأنزله ببطوية وكان ابن غازي أبو بكر قد ولَّى ابن عمه محمد بن عثمان مدينة سبتة خوفا عليها من ابن الأحمر كما نجد ذلك في تاريخ ابن خلدون على حين كان أبو العباس أحمد بن أبي سالم بطنجة محتاطا عليه في جملة من القرابة وهذا الاجراء كان من عمل ابن الأحمر الذي أغرَى محمد بعدما طلب من ابن غازي تسليم ابن الخطيب فأبَى ذلك وأساء الرد على رسول ابن الأحمر وكان ابن عثمان القائم على السلطان أبي زيان ، فداخله ابن الأحمر في البيعة لأبي العباس المذكور على أن يتنازل له عن جبل طارق ويبعث إليه بالقرابة الذين كانوا بطنجة ليكونوا تحت يده يصرفهم

وعلى هذا تقبل ابن عثمان شروطه وركب من سبتة إلى طنجة واستدعَى أبا العباس من مكان اعتقاله فبايعه واستقدم أهل سبتة للبيعة وكتابتها ففعلوا وخاطب أهل جبل الفتح فبايعوا لابن الأحمر، الذي كان يحاصر الجبل وتبعا لذلك خرجت من حكم المرينيين بقية المدن التي كانت لهم من وراء البحار بالأندلس .

وغرب أبو زيان إلى الأندلس بعد خلعه وحصاره بحضرته من قبل عبد الرحمن وأبي العباس ورجالهما من الأندلس وغيرها فقال ابن زمرك اللئيم من قصيدة يخاطب سيده

أركبته في المنشآت كأنما جهزته في وجهة لمزار
لما قصدت بها مراسي سبتة عطفت على الأسوار عطف سوار
أعطيت أحمد راية منصورة بركاتها تسري من الأنصار

ولم يقف الأمر عند هذا الحد من النكران للجميل والخيانة للصنيع بل ان هذا الملك الوقح ما لاحظ على صنيعته أبي العباس بعض الطموح لاسترجاع سيادة مملكته حتَّى انتهز فرصة غيابه عن الحضرة وبادر بتسريح موسى بن أبي عنان فأجازه إلى المغرب وخلع أبا العباس وغربه إلى الأندلس

وبويع لأبي فارس موسى المذكور وهو الذي نزل بسبتة وسلمها إلى ابن الأحمر حسب الاتفاق بينهما

ومن قبل كانت سبتة معبر هذا الملك « المخلوع » في عودته إلى الملك الذي كان قد خلع منه وأعاده إليه ملوك المغرب كما تقدم ولكنه اللؤم المتاصل الذي يجد بجانبه من يسميه ، كما فعل ابن زمرك ، ببركات الانصار

وهكذا أصبح ملوك بني مرين ألعوبة بيد ابن الأحمر . أو دمى متحركة في خيوطه كما أصبح وزراء هؤلاء بيادق يحطها بحيث يرَى مكانا لها ومثلا لهذا استوحش الوزير مسعود بن عبد الرحمن بن ماساي الذي استوزره ابن الأحمر لموسى بن أبي عنان من سلطانه موسى هذا فبعث ابنه يحيى إلى ابن الأحمر . يسأل منه اعادة السلطان أبي العباس إلى ملكه بعدما كان قد وضع في القيد وبعث به إلى ابن الأحمر فأخرجه ابن الأحمر بناء على طلب الوزير المزيف . ووجه به إلى جبل طارق يروم اجازته إلى العدوة فتوفي موسى مسموما من الوزير كما قيل

وبدا لهذا الوزير آنئذ أن يطلب من ابن الأحمر رد أبي العباس إلى معتقله وأن يوجه بدله بأبي زيان محمد بن أبي الفضل بن أبي الحسن وكان الأمر كذلك فرد الآخر ووجه بهذا إلى جبل طارق حيث عبر به إلى سبتة فبويع ملقبا بالواثق فكان القتال بين رجال الدولة

ومع هذا الاستسلام والخضوع لابن الأحمر اللعين فإن الوزير مسعود بن ماساي المذكور يعن له أن يطلب من ابن الأحمر إعادة سبتة إلى بني مرين فأحدث هذا الطلب النفرة في قلب ابن الأحمر من هذا العميل وبالرغم من أن طلبه كان على سبيل الملاطفة كما في الاستقصا فإن ابن الأحمر أساء في الرد له

وعلى هذا تنبه ضمير الوزير فوجه الرجال والعساكر لاستخلاص سبتة من يد الملك الأحمري وكانت الجيوش تحت قيادة العباس بن عمر الوسناني ويحيى ابن علال بن امصمود والرئيس محمد بن أحمد الأبكم من بني الأحمر فاستولَى على سبتة بفضل الحصار البحري الذي طوقها به « الرايس » الأبكم

ولا شك أن ثورة أهلها آنذاك على عاملها مما سهل الاستيلاء على المدينة أواخر سنة 788

فما كان من ابن الأحمر إلا أن حرك قطعه فأخرج منها أبا العباس الملك المعتقل واركبه إلى المغرب في طلب ملكه الذي ألبسه إياه ثم خلعه عنه بخيانة في الحالين فعبر أبو العباس المذكور واحتل بسبتة مستوليا عليها ثم تابع سيره إلى فاس فخلع الواثق وغربه كما هي العادة إلى الأندلس سنة 789 ولكن الواثق لم يكتب له أن يصل موثقا إلى منفاه بالأندلس بل قتل —كما تقدم— في طريقه إليها بطنجة

وبعد فإن سبتة لم تعد إلى بني نصر بل صارت نهائيا إلى أبي العباس ثم غمرتها الكوارث وظلت في غمرتها حتَّى أسدل عليها الستار بالاحتلال البرتغالي كما سنرَى

(1) كما يذكر هذا ابن خلدون في تاريخه

ويذكر منويل[1] أن الملك النصري سئم أهل جبل طارق حكمه ودعوا أبا سعيد لحكم بلادهم وأنه وجه إليهم أخاه فدخل الجبل المذكور

ومما يجدر ملاحظته أن سبتة كانت تعاني مآسي منذ نصف قرن أو يزيد وقد فتكت الطواعين بها مما أودَى بحياة كثير ممن تأتي ترجمتهم

ومن حسن الحظ أننا وجدنا مؤلفا ضم كثيرا من علماء العهد المريبي بسبتة وهو كتاب « بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب » وهو يحتوي سبعة وأربعين رجلا وامرأة كنا نشرناه ونذكر هنا من لم يرد لهم ذكر في الكتاب المذكور كما يلي

محمد بن ابراهيم بن محمد السبتي المالكي النحوي يكنَّى أبا الطيب قرأ على ابن أبي الربيع واختصر شرح الايضاح توفي سنة 695

ومحمد بن أحمد بن محمد الشريف الحسي السبتي يكنَّى أبا عبد الله وأبا القاسم قرأ على أبيه وأبي عبد الله بن هانى وابن رشيد توفي 760 أو 761 من تآليفه شرح الخزرجية ومقصورة حازم وله نثر وشعر فائق

ومحمد بن أحمد بن ابراهيم بن الزبير الغرناطي أخذ من أبي اسحاق الغافقي وابن الشاط وابن أبي الربيع وغيرهم بسبتة

ومحمد بن قاسم الشديد — بالتصغير أخذ عن أبي العباس الحسي بسبتة واختص بابن هانئ المذكور سلفا

وابراهيم بن أحمد الغافقي المذكور شيخ النحاة والقراء بسبتة قرأ على أبي بكر بن شبلون وابن أبي الربيع من تصانيفه شرح الجمل توفي سنة 710

وعبد الله بن محمد بن أحمد بن محمد العزفي أبو طالب كان في جملة

(1) ونقله صاحب الاستقصا.

من غربوا إلى غرناطة اثر احتلال سبتة كما سبق

ومحمد بن عمر ابن رشيد الفهري السبتي قرأ على ابن أبي الربيع وغيره من فطاحل عصره وله الرحلة العظيمة إلى الشرق توفي سنة 721

وعبد الله ابن عبيد الله . أبو الحسين ابن أبي الربيع امام نحاة زمانه استقر بسبتة لما استولَى النصارَى على اشبيلية له مؤلفات توفي سنة 688

ومحمد التيمي التسلي الفاسي أخذ من ابن رشيد وأبي عبد الله الغماري وابن هانئ وغيرهم بسبتة كما في الإحاطة

ومالك بن وهيب الله ابن المرحل العالم اللغوي النحوي والشاعر المفلق وقع بينه وبين ابن أبي الربيع جدال في «كان ما ذات» توفي سنة 699

ومن أمداحه لسبتة قصيدة طويلة كما يقول المقري منها

سلام على سبتة المغرب أخية مكة أو يثرب

وله أيضا

اخطر على سبتة وانظر إلى جمالها تصبو إلى حسنه
كأنها عود غناء وقد ألقِي في البحر على بطنه

وعثمان بن محمد العبدري البياسي استقر بسبتة روَى عنه جماعة كأبي عبد الله ابن الحصار الضرير وأحمد بن فرتون أم بمسجد القفال توفي سنة 663

وعدي بن علي بن عبد الله القيسي الاشبيلي سكن سبتة وروَى عن أبي علي بن الشلوبين . وكان حافظا للمذهب بفروعه . توفي بسبتة .

ومحمد بن علي الغساني ابن العربي من عمل المرية كان مقيما بسبتة مكبا على قراءة القرآن والعربية وأخذ عن الغافقي وابن حريث وابن شهيد وغيرهم

وعلي بن أحمد بن عبد الله ابن مكثر الخولاني أبو الحسن وروَى عن أبي عبد الله بن هشام كان مقيما بسبتة

ومحمد ابن الفخار الجذاف الاركشي الشرشي عبر إلى سبتة لما أخذت شريش فقرأ بها وروَى عن ابن أبي الربيع وغيره كثيرين ذكروا بالاحاطة

ومحمد بن أحمد بن سيد الناس فصل عن الأندلس إلى سبتة وأقام بها ثم استدعي إلى تونس سنة 654 وتوفي سنة 659

وعبد الله ابن سلمون الكناني الغرناطي أخذ بسبتة عن ابن الطيب والدراج وغيره كما يأتي بالإحاطة

وأحمد بن راشد المالقي رحل إلى سبتة ونزل بها وتوفي سنة 702

ومن علماء سبتة في العهد المريني أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميري صاحب كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار والمتوفى عام سبعة وعشرين وسبع مائة كما في الدرر لابن حجر وسبق ذكر معلومات قيمة من كتابه في وصف سبتة

وعبد الله ابن أبي جمرة جاز إلى سبتة وانعقدت بينه وبين رؤسائها المصاهرة وهي في حكم بني الأحمر كما تقدم ثم عاد لما عادت إلى أهلها

وأبو اسحاق التلمساني نزيل سبتة من تآليفه أرجوزة في الفرائض وكان أديبا لغويا اماما في الفرائض توفي بسبتة سنة 690

وعبد الملك القيسي اليحانسي ترجم له في صلحاء الريف وتوفي بسبتة كما يأتي

وعبد الله بن محمد ابن الحاج النميري الغرناطي ولي الأشغال بسبتة عند

تصيرها إلى بني نصر أوائل القرن الثامن وهو من شوظر والمنظر أصل قومه المختصين بتلك الجهات من وادي آش

وابراهيم بن محمد بن أبي العاص التنوخي الطريفي قرأ بسبتة على امام المقرئين ابن زرقون الضرير وأبي اسحاق الغافقي وله شعر

وداود الأندي رحل إلى سبتة واستقضى بها أوائل القرن السابع

والشريف أبو العباس المعروف بصاحب سبتة لمكانته العظيمة فيها ولما اجتاز المخلوع صنع له ولوزيره ضيافة ملوكية وهو من أصدقاء ابن الخطيب وبيت الشرفاء الصقليين بسبتة ، بيت نباهة ورياسة وعلم وآداب يضاهي بيت عياض وبيت العزفي

ومحمد ابن أرقم النميري قرأ بسبتة على أبي بكر بن عبيدة وابن حريث وابن الخضر وابن الشاط وغيرهم

ومحمد بن محمد بن ابراهيم ابن سعد الخير بن عياش قاضي ألقنت والمرية وغيرهما نظم شعرا وهو بسبتة في وصف حاله أخذه عنه أبو عبد الله بن هانئ وأبو القاسم الحسيني وأبو القاسم بن حزب الله وزاد عليها وكثر ذلك بوادلو » أولها « تأسفت لكن حين عز التأسف » عاصر ابن الخطيب

ومحمد الأشعري المالقي أجازه من أهل سبتة شيخ الشرفاء ابن ربيع وأبو عبد الله الأنصاري وابن رشيد وابن الحصار وغيرهم توفي سنة 741

ومحمد بن أحمد ابن حيون ابن الحسن بن علي قرأ بسبتة بلده على أبيه الشريف أبي القاسم وأبي عبد الله بن هانئ والغافقي توفي سنة 760

ومحمد بن أحمد ابن شبرين العالم الأديب والكاتب الشاعر الشهير توفي سنة 747 وهو من شيوخ ابن الخطيب حلاه بالفقيه المؤرخ الكاتب وهو من قضاة سبتة ذكر في المرقبة ضمهم وقال انه تولى القضاء بكثير من الجهات يعني من الأندلس من شيوخه ابراهيم الغافقي

ومحمد بن محمد بن محارب الصريحي ابن أبي الجيش الملقي قرأ بسبتة على جماعة منهم أبو اسحاق الغافقي كما بالاحاطة

ومن أعلام سبتة الفقيه أبو عبد الله محمد بن علي بن فرج

وابن الشاط أبو القاسم قاسم بن عبد الله الأنصاري السبتي اقرأ بسبتة الأصول والفرائض وقرأ على ابن أبي الربيع وغيره توفي سنة 723

والشريف أبو علي حسن بن يوسف أبي يحيى الحسيي السبتي أدرك ابن أبي الربيع وأبا القاسم العزفي واختص بابن عبيدة وابن الشاط توفي سنة 754

والحضرمي من الأسر التي اشتهرت بالعلم في سبتة والمراد هنا الرئيس الكاتب عبد المهيمن الذي طبقت شهرته الآفاق وله في سبتة من قصيدة في مدح ابن الحكيم هاته الأبيات [1]

سقى ثرى سبتة بين البلاد	وعهدها المحبوب صوب العهاد
وجاد مهل الحيا ربعها	بوبله تلك الربى والوهاد
وكم لنا في طور سينائها	من رائح للأنس في اثر غاد
وعيها البيضاء كم ليلة	بيضاء فيها قد خلت لو تعاد
وبالمنارة التي نورها	لكل من ضل دليل وهاد
نروح منها مثلما نغتدي	للأنس والأفراح ذات ازدياد
في فتية مثل نجوم الدجى	ما منهم إلا كريم جواد
ارتشفوا كأس الصفا بينهم	وارتضعوا أخلاف محض الوداد
ويا لأيام ببنيولش	لقد عدت عنها صروف العواد
أدركت من لبنى بها كلما	لبانة وساعدتني سعاد
ونلت من لذات دهري الذي	قد شيته وللأماني انقياد

(1) الإحاطة.

منازل ما ان على مبدلـ ـها، مكان اللام فيها انتقاد
سلوتها مذ ضمني بعدها نادي الوزير ابن الحكيم الجواد

توفي عام 749

وأحمد بن ابراهيم بن الزبير العاصمي الجياني أخذ بسبتة عن شيوخها حين رحل للرواية عنها مثل ابن مشلبون مولده سنة 628

وأحمد بن علي بن أحمد الأنصاري أبو العباس الماردي الاشبيلي الأصل استقر بسبتة وأقرأ بها وكان حيا سنة 666 كما بالذيل

وأحمد بن أبي الحسن نبيل الرومي مولى أبي القاسم التجيبي المستوطن بسبتة كان فقيها نبيلا واستقضى بسبتة وغيرها توفي سنة 669

وأبو محمد عبد الحق الشهير بابن سبعين المرسي انتقل إلى سبتة وانتحل التصوف فمالت إليه العامة وفي اقامته بسبتة وردت عليها المسائل الصقلية التي هي عبارة عن جملة من المسائل الحكمية وجهها علماء الروم تبكيتا للمسلمين فيها فانتدب للجواب عنها على فتاء من سنه وبديهة من فكرته توفي سنة 669

وأبو القاسم خلف بن عبد العزيز الغافقي القبتوري مقرئ نحوي كبير مترسل تولّى كتابة سبتة توفي سنة 704

وأبو عبد الله بن قاسم الأنصاري المالقي نزيل سبتة وعرف فيها بابن حكم وابن أخت أبي صالح حدث عنه ابن العشاء وعن هذا ابن مرزوق

والمقري الجد حل بسبتة في رحلته ولا شك أنه حدث بها وأخذ عن رجالها شأن العلماء آنذاك، في رحلهم الممتعة الحافلة بالمعرفة

وأبو عبد الله محمد ابن الفخار، شيخ الشاطبي الذي حدثه بما جرَى بين ابن خميس وطلبة سبتة من تلاميذ ابن أبي الربيع

وأبو الحضرمي الكاتب المذكور ، كان بسبتة كما في الاحاطة وغيرها قطب مدارها ومقام حجها واعتمارها وكان جده عبدون النازل بسبتة وفي المرقبة أن محمدا هذا ولّى القضاء بسبتة لقرابته من رؤساء بني العزفي فلما تصيرت لبني نصر صرف إلى غرناطة معهم توفي بسبتة سنة 712

وأبو سعيد بن عبد المهيمن المذكور طلب منه أبو عنان أن يرتسم من جملة كتابه فأبَى وقال لا أكون تحت حكم غيري وعاد إلى سبتة توفي سنة 787

وقاضي الجماعة أبو البركات ابن الحاج البلفيقي الأنصاري كان بسبتة ولما أراد الانصراف عنها قال له أبو العباس الشريف ، متَى عزمت على الرحيل ؟ فأنشده

أما الرحيل فدون بعد غد فمتَى تقول الدار تجمعنا

فأنشد الشريف

لا مرحبا بغد ولا أهلا به ان كان تفريق الأحبة في غد

ومن نظم أبي البركات في حلقة بعض الشيوخ بسبتة معتذرا عن استدباره لبعض الفضلاء الحاضرين بها

ان كنت أبصرتك لا أبصرت بصيرتي في الحق برهانها
لا غرو اني لم أشاهدكم فالعين لا تبصر انسانها

وأبو جعفر ابن عبد الملك العذري السبتي ، كان فقيها أديبا شاعرا كتب إلى ابن الخطيب في بعض الأغراض

إني بمجدك لم أزل مستيقنا الا يهدم بالتغير ما بنَى
إذ أنت أعظم ما جد يعزَى له صفح وأكرم من عفا عمن جنَى

وكتب أيضا

ان كان دهري قد أساء وجارا فذمام مجدك لا يضيع جارا

فلانت أعظم ملجأ ينجي إذا   ما الدهر انجد موعدا وأغارا

ومن الذين نزلوا بسبتة القاضي النباهي   الذي خاطب منها ابن الخطيب وكان في سلا برسالة مذكورة في الاحاطة ونقلها المقري بالنفح

وابن الجنان الناظم الناثر   وهو محمد بن محمد بن أحمد الأنصاري المرسي دعاه ابن خلاص إلى سبتة فحظي بها حظوة تامة عنده

وعتيق بن محمد بن علي ابن الغساني المقري الجنان   عرف بذلك لتحرفه بعمل الجنان   وحدث عنه المقري الضرير أبو الحسن الخضار بسبتة توفي في عشر السبعين وستمائة بغرناطة كما في « صلة الصلة »

ومن قضاة الأندلس الوافدين على سبتة أو المقيمين بها لهذا العهد من ذكروا في تاريخ قضاة الأندلس للنباهي   وهم

ابراهيم الغافقي الاشبيلي   هاجر بعد تغلب العدو فلازم ابن أبي الربيع وقام مقامه   وتولى قضاء سبتة   وعليه اعتماد شيوخ في القراءة   توفي سنة 716

محمد بن محمد اللخمي القرطبي القاضي بسبتة والخطيب بمسجدها والمدرس به الفقه وغيره   أخذ عن ابن أبي الربيع وابن الخضار أيضا وتوفي سنة 723

محمد بن يحيى الأشعري المالقي   من أهل الدراية والرواية   أخذ بسبتة عن طاهر بن ربيع وعبد العزيز الهواري وابن الخضار وغيرهم   توفي سنة 741

أبو اسحاق ابراهيم بن يحيى بن زكرياء   أخذ بحظ من النظم والنثر ، وأخذ سبتة عن الغافقي   كان مولده سنة 751 وكتب للنصرين

ويلاحظ أن المذكورين بالمرقبة   بعضهم لم يتول القضاء الا بسبتة كما رأينا أول من سردناهم   فلعل النباهي ذكرهم ضمن قضاة الأندلس

باعتبار أصلهم منها ولم نأت بباقيهم في المرقبة مثل قاضيها ابن شبرين وابن الحاج البلفيقي وأبي القاسم الشريف لغرناطي ومحمد بن الحسن بن محمد بن الحسن النباهي لتقدم ترجمتهم فيما قبل وان كانت ترجمة الشريف في المرقبة أوفى تراجمه ومن شعره قصيدة يقول فيها

أبلغ بسبتة أقواما ودونهم عرض الفلا وذميل الاينق الرسم
ولج ذي ثبج طام كان به أعلام لبنان أو كثبان ذي سلم

وكان بنو مرين يستدعون من سبتة من يقرئ بحاضرتهم علوم العربية كما يقول ابن خلدون إذ لم يتصدر من الفاسيين من يقرئ الكتاب كما هو متداول بين أهل الأندلس مثل ابن أبي الربيع والشلوبين وغيرهما كما في أزهار الرياض منقولا عنه

وقد ورد في القرن الثامن ذكر بعض الرحالين من سبتة في رحلة ابن بطوطة فنجد فيها ابن بطوطة وهو بالصين، يذكر ما يلي

وبينما أنا يوما في دار ظهير الدين القرلاني (من شيوخ المسلمين بالصين) إذ بمركب عظيم لبعض الفقهاء المعظمين عندهم فاستوذن له علي وقالوا مولانا قوام الدين السبتي فعجبت من اسمه ودخل إلي فلما حصلت المؤانسة بعد السلام سنح لي اني أعرفه فأطلت النظر إليه فقال أراك تنظر إلي نظر من يعرفني فقلت له من أي البلاد أنت؟ فقال من سبتة فقلت له وأنا من طنجة فجدد السلام علي وبكَى حتَّى بكيت لبكائه فقلت له هل دخلت بلاد الهند؟ فقال لي نعم دخلت حضرة دلهى فلما قال ذلك تذكرت له وقلت أأنت البشرى؟ قال نعم وكان وصل إلى دلهي مع خاله أبي القاسم المرسي وهو يومئذ شاب لا نبات بعارضيه من حذاق الطلبة ويحفظ الموطأ وكنت أعلمت سلطان الهند بأمره فأعطاه ثلاثة آلاف دينار، وطلب منه الإقامة عنده فأبَى وكان قصده في بلاد الصين، فعظم شأنه بها واكتسب الأموال الطائلة.

أخبرني أن له نحو خمسين غلاما ومثلهم من الجواري وأهدَى إلي منهم غلامين وجاريتين وتحفا كثيرة ولقيت أخاه بعد ذلك ببلاد السودان فيابعد ما بينهما ؟

وقد أشرنا إلى أن ابن الخطيب كان يتردد على سبتة فكان ينزل على عائلة الشرفاء الصقليين غالبا ومن قوله — مطلع قصيدة يقرض بها شرح ابن مرزوق للشفا — في سبتة هذه الأبيات

حييت يا مختط سبت بن نوح بكل مزن يغتدي أو يروح
وحمل الريحان ريح الصبا أمانة فيك إلى كل روح
دار أبي الفضل عياض الذي أضحت برياه رياضا تفوح

ومن مقاماته في البلدان ما نجده عن سبتة كما في أزهار الرياض

قلت فمدينة سبتة ؟ قال تلك عروس المجلى وثنية الصباح الأجلى تبرجت تبرج العقيلة ونظرت وجهها من البحر في المرآة الصقلية واختص ميزن حسناتها بالأعمال الثقيلة وإذا قامت بيض أسوارها وكان جبل بليونش شمامة ازهارها والمنارة أنوارها فكيف لا ترغب النفوس في جوارها وتهيم الخواطر بين أنجادها وأغوارها إلى الميناء الفلكية والمراقي الملكية والركية الزكية غير المنزورة ولا البكية ذات الوقود الجزل المعد للأزل والقصور المقصورة على الجد والهزل والوجوه الزهر السحن المضنون بها على المحن دار الناشبة والحامية المضرية للحرب المنشبة ، والأسطول المرهوب المحظور الالهوب والسلاح المكتوب المحسوب والأثر المعروف المنسوب كرسي الأمراء والأشراف ، والوساطة لخامس أقاليم البسيطة فلاحظ لها في الانحراف ، بصرة علوم اللسان وصنعاء الحلل الحسان وثمرة امتثال قوله « ان الله يأمر بالعدل والإحسان » الأمينة على الاختزان ، القويمة المكيال والميزان محشر أنواع الحيتان ومحط قوافل العصير والحرير والكتان ، وكفاها السكنَى بليونش في فصول الأزمان ووجوه المساكن النبيهة بأرخص الأثمان ، والمدفن

المرحوم غير المزحوم وخزانة كتب العلوم والآثار المنبئة عن أصالة الحلوم إلا أنها فاغرة الأفواه للجنوب للغيث المصبوب عرضة للريح ذات الهبوب عديمة الحرث فقيرة من الحبوب ثغر تنبو فيه المضاجع بالجنوب وناهيك بحسنة تعد من الذنوب فأحوال أهلها رقيقة وتلفهم ظاهر مهما ظهرت وليمة أو عقيقة واقتصادهم لا تلتبس منه طريقة وأنساب نفقاتهم في تقدير الأرزاق عريقة فهم يمصون البلالة مص المحاجم ويجعلون الخبز في الولائم بعدد الجماجم وفتنتهم ببلدهم فتنة الواجم بالبشير المهاجم وراعى الجدب بالمطر الساجم فلا يفضلون على مدينتهم مدينة الشك عندي في مكة والمدينة

فهذا الوصف من ابن الخطيب نستفيد منه فوائد شتَّى وأهمها ما يتصل بالحياة الثقافية والاجتماعية والموارد الاقتصادية فهي من الناحية العلمية تحرز مكانة عالية في الدراسات العربية فهي بصرة علوم اللسان تتوفر على خزانة لكتب العلوم المختلفة وهي في حياتها تنعم بسكنَى القصور المقصورة على الجد والهزل وتتبدى في الحلل الحسان وسكانها صبح الوجوه ومع هذا فهم احلاس حرب وأبطال نزال يحميهم أسطولهم العتيد وهم على خلق قويم واعتدال في السلوك فموازيهم ومكاييلهم قويمة ولاحظ للانحراف فيهم وهم على معيشتهم المقتصدة في رقة من الحال يعدون لما يستهلكون عدته من الاختزان والقصد في النفقات والاحتراز من التبسط حتَّى في الولائم والأفراح ولئن كانت الأرض تشح عليهم بالحبوب فإن البحر يسخو لهم بأنواع الحيتان التي ينعمون باصطيادها كما أن البحر الذي تتوجه إليه يسعفها بموارده ومصادره فهي محط هام للتجارة وخصوصا ما يعصر من الزيت وما ينسج من الحرير والكتان وأهلها بلغ حبهم لها مبلغ الفتنة بها فهم يفضلونها على ما عداها من البلاد وتقدم من ابن المرحل أنه ينزلها منزلة مكة والمدينة وهو ما أومأ إليه ابن الخطيب في جملته الأخيرة

وبعد أولئك الأعلام نأتي بذكر من ترجموا في كتاب البلغة الذي تقدم ذكره وهؤلاء المذكورون هم هكذا على التوالي

أبو علي ابن رشيق التَّغلبي[1] المرسي الأصل عالم مصنف بارع الخط انتقل من المرية إلى سبتة فولى قضاءها لأبي القاسم العزفي توفي سنة 696

أبو عبد الله ابن هانئ اللخمي الشهيد السبتي عالم مصنف بارع الخط كان يقرئ بمسجد القفال بسبتة استشهد بجبل الفتح سنة 733 (له لحن العامة)[2]

أبو عبد الله بن عبد المنعم الصهاجي السبتي حافظ للغات العرب متفنن يقول الشعر وفد مع أهل سبتة على أبي الحسن المريني[3] توفي سنة 750

أبو عبد الله بن هرون الأموي السبتي أستاذ المدرسة الجديدة بها متفنن في المعارف يقرض الشعر من مشايخه أبو عبد الله الكتاني توفي سنة 750

أبو عبد الله ابن خميس الأنصاري الجزيري الخطيب بجامع سبتة مصنف بارع الخط متفنن شاعر توفي بالوباء سنة 750 كسابقيه

أبو عبد الله الزرعي الجدميري السبتي التاريخي الحافظ المتصرف الشاعر البارع الوراقة يقع تاريخه في أربعين سفرا بأخبار العلماء يعاصره أبو القاسم

(1) ذكرت ترجمة التغلبي في الإحاطة ، ضمن مشيخة أحمد بن محمد بن عيسَى الأموي ، المعروف بالزيات ، في ذكره هناك حلي بالكاتب الأديب ، وفي الأصل ، أنه توفي بتازى وأنه كان في وفد أهل سبتة المتوجه للقاء السلطان أبي سعيد وهذا خطأ فإن الملك المريني آنذاك وفي تلك الجهات كان أبا يعقوب يوسف بن أبي يوسف يعقوب

(2) ترجمه في الإحاطة وذكر له شعرا وفيه مرثية ووصف كيف أصيب بحجر منجنيق

(3) له في الأصل قصة عن التوكل على نحو ما يذكر لصاعد البغدادي ، مع ابن أبي عامر وترجمه في الإحاطة وذكر أنه توفي بتازا منصرفه من باب سلطان المغرب.

التجيبي السبتي الراوية الرحالة حسن الخط متقن للضبط يقول الشعر توفي بسبتة سنة 730 كما كان يعاصره أخوه المكتب أبو عبد الله بن حريث العبدري الفقيه المشارك الامام بجامع سبتة ، خلفه على الامامة أبو الحسن ابن وشاشّ وتوفي هو بمكة إماما بمسجدها قبل سنة 750[1]

وأبو الحسن المذكور ، هو الفقيه الورع كانت تشد إليه الرحال وكان المفتي أبو الحسن الصغير يعظمه فيمتنع من الافتاء لوجوده ويقدمه[2] أبو عبد الله الغافقي السبتي ابن الشيخ القاضي الأستاذ النحوي أبي اسحاق شارح الجمل والأستاذ بالمدرسة القديمة الشارية توفي قبل سنة 750

أبو القاسم بن عمران الحضرمي السبتي المقرئ الراوية المصنف العارف بالعربية كان ناظرا لخزانة الجامع الأعظم في امامة ابن وشاش توفي سنة 750

أبو عبد الله بن زيد السمار السبتي الفقيه المشارك الموثق المدرس بالمسجد الأسفل من زقاق أبي يحيى ثم تزهد وصار يسمر الدواب توفي بعد سنة 750

أبو محمد الزكندري القاضي بسبتة والأستاذ بالمدرسة الجديدة مها وهو مراكشي البلد ولما صرف عاد إلى بلده من شيوخ ابن أبي حجة

وأبو مدعينة الذي كان يقرئ بمسجد مقبرة زجلو

وابن النكي الذي كان يقرئ بمسجد الغزالين ، وكان يشترط ألا يحضر مجلسه إلا من يكون شاعرا خطاطا ولا يرتدي حلية الطلبة

---

(1) ذكر بالأصل أن موضع اقرائه كان بمسجد زجلو ، وضبط هذا في احدَى المخطوطتين اللتين اعتمدنا عليهما ، بفتح الزاي وتسكين الجيم وضم اللام

(2) ذكر له في الأصل قصة مع الشيخ أبي يعقوب البادسي وعرف بهذا صاحب «المقصد الشريف في التعريف بصلحاء الريف».

وابن قاسم النحوي الذي كان يقرئ بمسجد رحبة الوزان حيث كان يدرس أبو بكر بن عبيدة شارح جمل ابن القاسم في سفرين

وابن نبيل الحسابي أخذ عنه علم الحساب من أهل فاس الشيخ أبو العباس ابن الشماع أحد أشياخ الشريف أبي بكر الحسني السبتي

هؤلاء الأربعة كانوا في طبقة السابقين عليهم في الذكر وبهم وبأخي أبي عبد الله الزرعي تكون التراجم تامة في هذه المخطوطة التي نشرنا وتأتي بعد هؤلاء الطبقة الثانية فيها

أبو عبد الله ابن بيبش[1] العبدري النحوي اللغوي الحافظ الراوية أجازه ابن الخطيب وذكره في الكتيبة الكامنة وأتى بشعر له أقرأ بمسجد زقاق الفضل

أبو عبد الله عامر الأنصاري أستاذ المدرسة الجديدة وخطيب جامع الربض الأسفل ، كان اماما في العربية والأصول وغيرهما ناظما ناثرا توفي سنة 765

أبو عبد الله الجناني الفقيه المفتي الحافظ القاضي بسبتة والمدرس بمدرستها بعد الأستاذ أبي عبد الله ابن عامر توفي قبل عام 780

أبو عبد الله الوادي لاوي السعيدي الغماري الفقيه المتفنن الشاعر كان يدرس المدونة في مسجد مقبرة زجلو ، توفي عام 772 ببليونش

أبو محمد ابن مسلم الأنصاري القصري قاضي سبتة وأستاذ مدرستها وخطيب القصبة بها فقيه مقرئ راوية كثير الاطلاع والاجتهاد توفي سنة 773

أبو عبد الله الطرطوطي الحافظ المتفنن والفقيه المدرس بمسجد مقبرة زجلو وغيره اشتهر بالعدوتين ، وتوفي خطيبا بربض مالقة حوالي سنة 767 .

---

(1) في الاسبانية Vives ترجمة له في الإحاطة

أبو عبد الله ابن المجراد الفنزاري[1] السلوي الحافظ المحدث الراوية انتفع به كثيرون منهم الخطيب أبو عبد الله ابن عدل السبتي توفي حوالي سنة 778

أبو عثمان الصهاجي الأنجري امام المدرسة بها كان فقيها مفتيا مقيدا مجتهدا يدرس الفقه والحديث بمسجد القفال والجامع الأعظم توفي سنة 799

أبو العباس التاميسي أستاذ المدرسة المذكورة كان نحويا فرضيا حيسوبيا متفننا صدرا في سماط الموثقين بسبتة توفي بالطاعون سنة 792

أبو العباس أحمد بن أبي الحسن علي الشريف الحسيبي كان نحويا مشاركا يقوم على اقراء ألفية ابن مالك قياما حسنا، ولأول مرة تذكر الألفية به فتكون بذلك الألفية قد درست بسبتة قبل أن تدرس بفاس من قبل المكودي الذي أحضرت إليه فترك بها تدريس الكتاب لسيبويه

أبو عبد الله المهي الشاعر النحوي المدرس بمسجد القفال توفي بفاس أواخر المائة الثامنة وقد بلغ من السن خمسا وتسعين

أبو الحسن الأنجري المدرس بمسجد مقبرة زجلو ومسجد زقاق الحرة وبجامع التبانين من الربض الأسفل توفي بفاس سنة 714

أبو عبد الله ابن الأصفر السبتي النحوي كان يدرس لأولاد الكبراء بسبتة

أبو سرحان الزواوي النحوي الأصلي المشارك في الفقه والفرائض تصدر للاقراء بمسجد القفال وتولّى قضاء سبتة والتدريس بمدرستها توفي حوالي سنة 803

أبو عبد الله البطيني اللخمي المكتب النحوي المقرئ بالمسجد المحاذي

---

(1) نسبة إلى فنزارة، قرب سلا.

لزقاق أبي الفضل وبالمسجد الأعلَى من زقاق ابن عيسى توفي عام 792

أبو عبد الله العباسي الخطيب بجامع افراك وجامع القصبة من بني العباس بن عبد المطلب نحوي انتفع به كثيرون ودرس بمسجد عياض وحضر عليه المؤلف

أبو يوسف يعقوب القصري المجكسي العارف بالقراءات السبع والمدرس بمسجد القفال توفي عام 812

أبو العباس الشعار الأستاذ بمسجد مقبرة زجلو كان نحويا لغويا مقرئا شاعرا متفننا بارع الخط حضر المؤلف اقراءه للتفسير(1)

أبو محمد قاسم بن أبي حجة الأنصاري أستاذ المدرسة الجديدة بعد أبي العباس النامي توفي بفاس مغربا عن وطنه سبتة عام 802

أبو القاسم محمد الأنجري الفقيه الحافظ المدرس بمسجد القفال الفقه والحديث والعربية والأشعار وغيرها وتوفي عام 803 عن زمانة ومرض

أبو العباس القباب الجذامي القاضي من أهل فاس ، كان اماما في الأصلين(2) قائما على الفروع عارفا بالأحكام تولّى التدريس والقضاء بها توفي سنة 793

أبو يحيى ابن السكاك العياضي القاضي شيخ المؤلف ، كان اماما في الأصول وعلم البيان الذي يذكر بها لأول مرة توفي فاتح سنة 800

أبو يحيى الشريف الحسني القاضي من شيوخ المؤلف كذلك كان اماما في العربية والقراءات السبع يدرس بالمدرسة الجديدة علوما شتَّى

---

(1) في الأصل أنه كان أحد شيوخ الحضرمي صاحب البلغة ، ذكر أنه تدرب في الاعراب بين يديه في أشعار الستة ، يريد بهم أمرأ القيس وعلقمة الفحل وطرفة العبد وزهيرا والنابغة الذبياني وعنترة بن شداد وهم الذين اختار لهم الشنتمري الاسم

(2) يريد بهما أصول الدين وأصول الفقه .

وكان من الأطبــاء

الطبيب الماهر الأشهر أبو عبد الله الشريشي كان أبو عنان يقول اختصت سبتة بأربعة رجال يذكره فيهم توفي عام 771

الطبيب أبو عبد الله ابن مقاتل كانت عيادته (حانوته) بالصفاح من مقربة زجلو أمام المسجد الكبير هناك وتوفي عام 771

الطبيب أبو عبد الله بن مبارك الأزدي تلميذ سابقه في الذكر توفي عام 791 لمرض ألزمه الفراش فكان يقسم أنه لن يعيش طويلا كما قال

الطبيب أبو عبد الله الجياني قدمه أبو العباس المريني ناظرا على البناء بسبتة وتوفي اما في أواخر 789 أو أول عام تسعين

الطبيب أبو عبد الله المعز الصهاجي كان إلى جانب طبه موثقا بسماط العدول وتقدم في أعمال سبتة لأبي عبد الله النصري توفي سنة 792

وكانت العامة قد قامت على عامل النصري يحيى بن شعيب الصهاجي سنة 788 وخلعوا طاعته فنهب منزل المترجم وغرب إلى فاس فتوفي

الطبيب أبو عبد الله بن مروان المعافري تولّى أشغالا بسبتة كان آخرها أحباسها والنظر في الخزانة الشهيرة بالجامع العتيق توفي سنة 817 فتكون وفاته قبل سقوط سبتة في يد البرتغال بسنة واحدة وكان الطاعون جارفا بها

الطبيبة عائشة ابنة الشيخ الكاتب الوجيه أبي عبد الله ابن الجيار المحتسب بسبتة قرأت الطب على الشريشي أدركها المؤلف وكان سنها نحو سبعين سنة فتكون هذه الطبيبة قد قطعت عقدين أو ثلاثة من القرن التاسع ان صح هذا التقدير والغالب أن الحضرمي ألف كتابه بعد الاحتلال الغاشم فإنه ترجم لمن أدركته الوفاة قبل ذلك بسنة ونص هو على تاريخ الوفاة وان لم يشر إلى هذا الاحتلال.

وبعد فقد قال المؤلف بعد هؤلاء المترجمين

وقد كان بسبتة في هذه الطبقة جماعة من الأطباء والشجارين سوَى من ذكرناه لم يبلغوا في العلم والمكانة مبلغ هؤلاء

وكما قيض لسبتة في العهد المريبي أن يسجل لها بعض رجالها اللامعين في ميدان المعرفة والعلم في كتاب البلغة فكذلك قيض لها أن توصف لهذا العهد وصفا شاملا من لدن ابن بار بها وهو الأنصاري أحد الأبناء والأحفاد من أسرة الأنصاريين في وطننا الذين كان لهم ذكر عريض في الحركة العلمية بسبتة بعدما تفرقوا من موطنهم الأول سرقسطة في بلاد الثغر من الأندلس واستقر كثير منهم أخيرا في سبتة والكتاب الذي سجل لنا سبتة لذلك العهد هو كتاب اختصار الأخبار ، الذي كنا قد أعدنا نشره منذ بضع وعشرين سنة وتذيل التراجم السالفة بمحتواه قد ألف كسالفه بعد الاحتلال وسنجد فيه ما سيلقي لنا بعض الضوء على الأمكنة التي ذكرت بهذه التراجم فيما يلي

منها مقبرة التوتة من الميناء شرقي المدينة وبها قبر أبي زرعة الذي أدخل القرآن إلى المغرب كما يقول أبو العباس العزفي راويا عن شيخه ابن عبيد الله . والمقبرة الكبرَى بسفح جبل الميناء حيث قبر أبي الحسين بن أبي الربيع وأبي عثمان بن حكم القرشي المحدث الأديب وأبي عبد الله بن معلَى القيسي صاحب المناسك وأبي العباس الحسني الشيخ المقرئ ، وأبي بكر يحيى بن محمد رزق العالم الورع وأبي العباس الدقاق الشيخ الولي وأبي العباس بن أبي الخير الأنصاري جد المؤلف من قبل أمه وقبر أبي اسحاق المعروف بالتلمساني الأنصاري ، صاحب رجز الفرائض ونظم السير . وأبي بكر بن عبيدة شارح جمل أبي القاسم وأبي القاسم التجيبي صاحب مستفاد الرحلة (تقدم) وأبي عبد الله ابن العد بن الرعيي صديقه وأبي الفضل عبد الرحمن ابنه القاضي الخطيب وأخيه أبي القاسم أحمد الشيخ النحوي العدل وابن عمهما أبي عبد الله محمد وأبي

عبد الله بن عدل الكتاني والقبر السعيدي (المذكور سابقا) وأبي الحسن بن وشاش المجسكي (كذلك) وأبي محمد ابن مسلم الأنصاري القصري (كذلك) وأبي عبد الله بن عدل الكتاني والقبر الشاط سمي بذلك لطوله ويعتقد العامة أنه لسبت مختط سبتة وفي مقبرة المنارة وجد قبر ريحان الأسود المذكور بالتشوف وقبر زينب العابدة وأبي محمد بن عبيد الله (الذي تردد ذكره فيما سلف) حلاه بالشيخ الفقيه القاضي الخطيب البليغ الصالح الورع المحدث الراوية الناقد بقية المشايخ وآخر المسندين (وحق له ذلك) وأبي عبد الله ابن الدراج الأنصاري الفقيه القاضي وأبي العباس ابن الأزرق وأبي عبد الله بن عبد المنعم الصنهاجي (تقدم كذلك بالبلغة) وأبي عثمان الأنجري امام المدرسة الجديدة (كذلك) وقبر تفاحة العابدة السوداء

وفي مقبرة الحافة توجد قبور الشهداء وفي مقبرة زكلو (زجلو) قبر أبي العباس العزفي وبمقبرة المحلة حيث نزل طارق قبر أبي عبد الله محمد بن عبد الله الأموي السبتيّ من أشياخ عياض وبقبور الشهداء قبر العجوز أم المجد مريم المسندة بالبقعة المحبسة على دفن من يموت من طلبة مدرسة والدها أبي الحسن الشاري

وبالربض الأسفل قبر أبي الربيع سليمان بن سبع العجميسي مؤلف شفاء الصدور ، والقبر صحن جامع التباين (سبق ذكره كثيرا) وقريبا منه قبر أبي عبد الله ابن خرزوزة وفي مقبرة الشريعة من الربض الأوسط قبر أبي عبد الله القرموني السبتي الصالح وفي مقبرة الربض البراني داخل سور البحر المعروف بمضرب الشبكة قبر أبي عبد الله محمد بن مسعود العكي المعروف بابن الكنقز وأبي الحسن بن القاري وأبي محمد عبد الجليل الأوسي الأندلسي نزيل قصر كتامة وصاحب شعب الايمان وقبر أبي الحسين ابن الصائغ الأنصاري وأبي الحسن المتيوي القاضي المدرس وشارح رسالة ابن أبي زيد وقبر أبي العباس القنجائري ، وأبي عبد الله بن صالح التجيبي الشيخ المحدث وأبي عبد الله بن سنان

الاستجي وفي مقبرة مضرب الشبكة البراني خارج الباب الأحمر قبور الشرفاء الحسينيين . منها لأبي العباس الحسيي (أشاد به في أزهار الرياض كثيرا وكان ابن الخطيب ينزل في داره وله مكانة عند المرينيين . ويعظمه السبتيون ويجلونه وكان سخيا يهب ما يصطاد يوم مضربه للناس عامة) وأبي الشرف رفيع الحسيي التالي لكتاب الله (وهو غير السابق ذكره فهذا توفي شابا) وفي مقبرة أحجار السودان قبر أبي مروان عبد الملك بن محمد بن بشر القيسي اليحانسي[1] وأبي عبد الله بن خميس الأنصاري الجزيري خطيب جمعها (تقدم بالبلغة) وبالمقبرة الأخرَى أيضا قبر أبي الحجاج المصنفي الأنصاري البلنسي

ومن أشهر المزارات بمقبرة الولجة أول بزبج قرية المؤلف ، قبور الشرفاء الحسنيين . نحو اثني عشر قبرا ثم قبر أبي عبد الله بن الحسن المكتب ومن أشهرها بمقبرة الظهر المشرف على السواني من عدوة عين علي من القرية المذكورة قبر أبي عبد الله محمد بن موسى الحسي

وبمقبرة عين اللوز . من بليونش جماعة من الشهداء استشهدوا يوم دخول النصارَى عام 818 القرية المذكورة وكان يوم الجمعة 3 شوال وكان في يوم الأربعاء منتصف جمادي الأخرَى دخل سبتة (وهذا مهم جدا فالبرتغال بدأ احتلالهم من سبتة واستمر غربها)

ومن قبور الشهداء بمقبرة الجنتل من القرية المذكورة ثلاثة استشهد أهلها قبل الدخلة بسنتين

وبعد ذكره للمقابر والأضرحة والمزارات مكتفيا بمشاهيرها ذكر أن عدد المساجد ألف ، من جملتها المدرستان مدرسة الشاري والمدرسة الجديدة التي ابتناها أبو الحسن المريني وهي كما قال تدل على شماخة الملك وعلو المقدار وأعظم المساجد الجامع العتيق الذي أسهب في وصفه وذكر أنه صنع منبره سنة 408 وكان صنع مقصورته العجيبة سنة 428

(1) وردت بالجيم وصوابها بالحاء نسبة إلى Ohanes من وادي آش بالأندلس كما تقدم

أما الخزائن العلمية فذكر أنها اثنتان وستون كان منها قديما خمس وأربعون دون الأكابر وذوي الأقدار ، مثل بني العجوز أخذ جدهم عن ابن أبي زيد جميع تواليفه وتفقه عليه وكالقاضي أبي عبد الله بن عيسى التميمي، من أشياخ عياض والقاضي أبي عبد الله محمد بن عبد الله الأموي (المذكور في المزارات من أشياخه وأبي العباس العزفي وفي زمن المؤلف كان تسع منها بدور الفقهاء والصدور كبني القاضي الحضرمي وبني ابن أبي حجة وكان ثمان منها موقفة على طلاب العلم أقدمها خزانة الشاري بمدرسته وهي أول خزانة وقفت على أهل العلم بالمغرب وأعظمها احدَى خزانتي الجامع العتيق بشرقي حصنه وبإزاء باب الشواشين من أبوابه لم يشذ منها فن مع تعدد ما ألف فيه ومن باقي الخزانات اثنتان بالمدرسة الجديدة وواحدة بمسجد القفال وأخرَى بمسجد مقبرة زكلو . وهو في كبره يلي الجامع الأعظم وصومعته عجيبة من بناء أبي القاسم العزفي وهناك خزانة أخرَى كانت بجامع الربض الأسفل

أما عدد الربط والزوايا فسبع وأربعون وكانت الربط محاذية للبحر شمالا وجنوبا أعظمها رابطة الصيد وتتصل بها دار يسكنها القيم بخدمتها وقد أسهب في وصفها بالكبر وعظم البناء وإلى جانبها رابطة أخرَى وسطها قبر لجارية موحدية

ومن الزوايا الزاوية الكبرَى التي ابتناها أبو عنان بخارج باب فاس أحد أبواب افراك للغرباء والتجار الجائلين وأسهب فيها

ثم ذكر أن عدد المحارس ثمانية عشر . من المدينة إلى اثني عشر ميلا خارجها من ناحيتي البحر وما وراء ذلك إلى الريف وطنجة سوَى الطالع الكبير ، بأعلَى جبل مينائها المعروف بالناظور ، ابتناه المرابطون حصنا للناظر الراتب وبه قلهرة كبيرة Calahorra بداخلها مسجد وكان ذلك على يد قاضيها عياض وكان يشرف على العدوتين إلى بادس من الريف

وطرف القسيس من مالقة شرقا وإلى ما وراء طريف غربا إلى طرف شنيل من الأندلس

وعدد الأزقة مائتان وخمسون سوى ما دثر . وهي أزقة الخندق الكبير . عرف قديما بخندق ايمن وحديثا بخندق الدجاج

والزقاق الأعظم من أشهرها وأشرفها زقاق ابن عيسى (القاضي المتقدم) يضرب به المثل لأنه زقاق الأكابر وهو فاصل بين شطريها فيه أربعة وعشرون حماما اثنان مبرزان والباقي بدور السادة كالشرفاء والعزفيين ، ومن الأزقة زقاق عياض والقاضي أبي عبد الله من أشياخه وتقدم ذكره وزقاق ابن يربوع وزقاق العزفي أبي العباس وأبي علي ابن الشراط وأبي القاسم ابن الشاط وكل تنغلق عليه دروب

وعدد الحمامات المبرزة للناس اثنان وعشرون أعظمها حمام القائد أبي علي ناصح يسع المئين من الناس وأسهب في وصفه

ومن الحمامات حمام ابن عيسى المذكور بزقاقه وحمام حاكمها اليانشتي السالف الذكر ، وحمام عبود بناحية الميناء يضاهيه وبالقصبة عشرة أبدعها حمام القصر ، ثم قال إن بكل دار من ديار سبتة حماما ومسجدا الا القليل

وعدد الأسواق مائة وأربعة وسبعون تختص المدينة بمائة واثنين وأربعين والأرباض الثلاثة العامرة باثنين وثلاثين ، ومن أشرفها سوق العطارين وسماط العدول حيث المدرسة الجديدة وكلاهما بجوفي الجامع الأعظم والقيسارية خلف ذلك

ومن أسواق الماكول والمطعوم والفواكه والادام وغير ذلك السوق الكبير ، وسوق مقبرة زجلو من الجانب الشرقي للمدينة

ومن الأسواق للآنية الصفرية الخاصة صنعتها بسبتة دون غيرها ، سوق السقاطين .

وعدد الحوانيت أربعة وعشرون ألفا وكانت فيما مضَى أكثر ، كما قال

وعدد التربيعات للقزازين والحرارين فقط احدَى وثلاثون أعظمها التربيعة التي بأسفل زقاق خطاب وفي صحها مسجد

وعدد المنجرات المعدة لعمل القسي أربعون ينسب بعضها لبني القنطري وبني العاقل وبني ابن غالب وغيرهم وفي زمن المؤلف كان خمس عشرة منجرة أدرك من أشياخ الصناع بها أبا عبد الله محمد بن عبد الله الحسني وابنه أبا عبد الله محمدا وأبا عبد الله محمدا المعروف بالعقدة وأبا محمد عبد الله ابن الدليل وأبا الحسن العبادي ومن أنبلهم وأبرعهم الشاب أبو عبد الله الشماني

وعدد الفنادق ثلاث مائة وستون وأعظمها الفندق الكبير المعد لاختزان الزرع ابتناه أبو القاسم العزفي وأفاض في وصفه

يليه من الفنادق المعدة لسكنَى الناس فندق غانم ، وهو قديم البناء لعله من أيام المرابطين ، كما قال وأبدعها فندق الوهراني

وعدد الأفران ثلاث مائة وستون أكبرها الفرن الذي بأعلَى زقاق ابن يربوع (المتقدم) وهو من بناء العزفي كذلك

وعدد السقايات خمس وعشرون أبدعها التي بطرف العطارين وأول سماط العدول وبازاء باب الشواشين من أبواب الجامع (كما تقدم)

ومن السقايات الخاصة بالدواب سقاية جب الميناء من بناء أبي القاسم العزفي ومن ذلك سقاية القبة بالربض البراني

وعدد الميضآت[1] اثنتا عشرة ، منها الكبرَى للجامع الأعظم بإزاء باب الزلاقة ، أحد أبواب بحر أبي السول وأحكمها بناء للمدرسة الجديدة

---

(1) اسم مكان للوضوء والوضاءة النظافة في الأصل ، كما عرفت الكلمة الاروبية Toilet في هذا كتابة كذلك .

وديار الأشراف أربعة ، دار الأشراف على عمالة الديوان ، أمام فندق تجار النصارَى حيث الرحبة العظمَى وهي سبعة فنادق لهم

ودار الأشراف على سكة المسلمين بقصبة المدينة

ودار الأشراف على سد الأمتعة وحلها وهي المعروفة بالقاعة حيث تجار العطر

ودار الأشراف على البناء والتجارة وما إليها

وعدد المطامير لحفظ الزرع أربعون ألفا ما عدا مخازن الفندق الكبير . والاهراء التي بالقصبة وأحسنها ما كان في أعالي البلد كطالعة الميناء وفي اسناد الربى مثل ربوة ظهر الغدير حذاء سمع الطير . وهي الأولى منها والسابعة جنة اليانشتي شرقي العرقوب

وعدد الطواحين مائة وثلاث من أعظمها طاحونة السمارين تليها طاحونة أبي السعد الحضرمي وطاحونة مقبرة زجلو وطاحونة أبي الحسن الشماع وبغربي البلد طاحونة الزياتين وطاحونة الحلفاويين وطاحونة الكمادين جميعها بمياهها

وعدد الأرباض ستة الثلاثة العامرة المتصلة بالبلد والربض البراني حيث الحارة والكسابون الذي هدم سوره أبو سعيد المريني من حافة الغدار إلى مضرب الشبكة وأفراك المدينة المحاذية له حيث القصر الملوكي لبني مرين والميناء من الجانب الشرقي دورها ستة أميال وبها زوايا ونبات ومشاجر وشعارى وغيرها

وعدد الأبواب خمسون منها الباب الأعظم المعروف بالباب الجديد اكتنفته كلقهرة عظيمة قد استقلت على عشر قباب وأربعة عشر قوسا وبابه الأوسط بين قلهرتين ، والباب في السعة والارتفاع يذكر أنه على شكل باب مدينة همذان وعدد أبواب الغدر والخنيزرات

وأبواب الستارات ومسالك السلوقيات ستة عشر وأبواب الربض الرباني الذي هدم سوره خمسة وأبواب أفراك ثلاثة أكبرها باب فاس الذي بناه أبو الحسن على شكل باب السبع (من فاس الجديد) جملة ذلك أربعة وسبعون

وعدد الحفائر أربعة الحفير الكبير المحيط بالربض البراني والحفير الفاصل بينه وبين الأرباض الثلاثة من الشطابين إلى مضرب الشبكة والحفير الهائل المعروف بالسهاج الفاصل بين الأرباض والمدينة وهو الذي عليه القنطرتان قنطرة باب المشاطين وقنطرة باب الفرج والرابع الحفير الفاصل بين جنة اليانشتي من الميناء وبين ما يلي ذلك من البلد من العرقوب إلى باب الحلويين

وعدد المصليات ستة أشرفها مصلّى المدينة ومنها بأعلَى حافة الغدار المصلّى الملوكي المختص بسكان أفراك ، صلّى به أبو الحسن والأمراء وباقيها لأهل الأرباض والقصبة التي بربوة أبي الفضل احدَى ربَى المنارة من الزماميين الحارسين بها نهارا

وعدد المرامي المعبر عنها بالجلسات وأماكن السبق للرماة أربعة وأربعون بالميناء تسع جلسة الحفير المخصوصة بالقاضي والصدور ، إذ الرمى طبع لأهل سبتة ومعظم رميهم بالقوس العقارة ومن هذه الجلسة إلى الهدف مجال من مائة وعشرين خطوة ومنها من أربع مائة خطوة وأخرَى من سبع مائة ، وبالمنارة من داخل البلد اثنا عشر سبعة من ألف وخمس مائة خطوة ومن أبدع الجلسات جلسة بظهر خارج الملعب وبالقصبة جلسة واحدة برحبة الزجاج وبالأرباض الثلاثة سبع جلسات وبالربض البراني جلسة وبخندق القمل خارج الباب الأحمر جلستان وبخارج باب فاس سبقتان وبجوف أفراك جلسة وهذه وأخرَى غيرها مختلفة المدَى

وعدد المقاصر خمسة وعشرون ، وكلها تحت الأسوار والأبراج

والأبواب منها بالميناء ستة عشر ، واحد بجانب القبلة وهو مقصر عش الغراب وخمسة عشر بالجانب الجوفي من قالة الدنيق إلى موضع « ماء يقطر » ولكل مقصر برج خاص تحط به الأمتعة ليلا وتنشر نهارا حتّى تتم قصارتها وتتخلص ومنها بساحة الحافة من داخل البلد ستة وبالارباض ثلاثة وبقرية بزبج مقصر كبير على ساحلها وعدد الغزليات تسعة عشر متصلة بمقاصر الحافة وأماكنها ستة من جملتها قالة البسابس وقالة الصندل وقالة العين (كلمة قالة اسبانية الأصل تعني Cala وهي مسلك لماء ونحوه وعدد المقبرات بخارج المدينة وداخلها ثلاث عشرة مقبرة التوتة مقبرة الميناء مقبرة المنارة تحتوي على ست مقبرة ابن الرامي مقبرة الخواتم مقبرة زكلو ، مقبرة مسجد المجلة مقبرة البلد القديم مقبرة الشريعة مقبرة الحارة مقبرة مضرب الشبكة اثنتان وأحجار السودان اثنتان

وعدد المراسي من طرف قب منت Cabo de monte شرقي جون فراطلة من بحر أبي السول إلى حجر الطفل القريب من قصر المجاز ثلاثون منها مرسى المدينة بحفرة مختار من بحر الرملة يخاف فيها من الريح البراني سيما عند دار الصناعة حيث مضرب الشبكة (لصيد السمك) وهي أمام باب الحلفاويين . وهو من أشرف مراسي المدينة

وعدد المضارب والمصايد تسعة أعظمها مضرب أويات منها ما هو بداخل المدينة ومنها خارجها وعدد المصايد التي وقفنا عليها — يقول المؤلف — مائتان وتسعة وتسعون من طرف قب منت من بحر أبي السول إلى مرسى موسى بل إلى محشر فرديوة على بحر الرملة

بعد هذا يتعرض المؤلف لقرية بليونش فيذكر عيونها وأنهارها وفواكهها ورياحينها ومشموماتها المختلف وغير ذلك مما لا حاجة إليه في بحثنا هذا والا فإن المقام سيطول ويكفي في وصفها وما قيل فيها من أشعار كتاب أزهار الرياض وقد زرتها وبها بقية من عمارة هي الآن في

اندثار ، وكان على مدخل هذه القرية برج رايته منذ عشرين سنة تقريبا ولكنه هدم فلم يبق له أثر ولعل ذلك من طمس المعالم التي أقدم عليها الاسبان كما هم مقدمون على طمس معلم مغربي هام داخل المدينة سبتة هو السور الذي نشرنا صورته قبل[1] فهم الآن يلصقون به مباني يقيمونها ولا يمضي وقت حتّى يختفي بها من غير مراعاة لقداسة التاريخ والماضي المجيد[2]

---

(1) بمجلة تطوان حيث نشرنا الكتاب المذكور

(2) لوحظ أن بعض الكلمات العامية استعملها المؤلف كما كانت مستعملة لوقته ، وما زال منها ما هو معروف لنا في الاستعمال المعماري خصوصا ، وقد نبه على جلها الأستاذ عبد الوهاب بن منصور في نشرته الأخيرة لهذا الكتاب وان كان في بعضها مستظهرا أو ناقلا بدون تمحيص

الباب السابع

سبتة في عهد الاحتلال البغيض

الفصل الأول سبتة في عهد الاحتلال البرتغالي

بدأت المرحلة البرتغالية لاحتلال سبتة سنة ثمان عشرة وثمان مائة وكان ذلك بعد حصار طويل لم يتمكن عدو الله البرتغالي لأول الأمر من احتلالها بالرغم مما كان عليه المغرب ، من تفكك واضطراب وكانت سبتة يفتك بها الطاعون كما تقدم والأندلس آنذاك كان يهيمن عليها نذير الاضمحلال والاحتضار أيام يوسف الثالث

لقد كان البرتغال يهدفون باستيلائهم على سبتة أن يحققوا لهم الامتداد خارج البحار عند عجزهم عنه داخل الجزيرة الايبيرية كما هدفوا به إلى نيل الحظوة عند «البابا» الذي كانت عنده تتأرجح كفتا الميزان بين اسبانيا والبرتغال فيكون ميل هذه مرة إلى ملوك اسبانيا وهم ينقضون على البقية الباقية من بلاد الاسلام بها وكانت تميل آونة أخرَى إلى البرتغال حينما يفتك أسطولهم بالأساطيل الإسلامية آتية من المغرب تجاه السواحل التي تمتد من المضيق إلى مياه (بورتو) البرتغالية

لقد كانت سبتة تتحكم في المضيق كمركز الاغاثة لدول الاسلام بالأندلس كما كانت من الناحية التجارية المركز الأول في هذا المضيق تؤمه سفن التجارة من جل المرافئ الاسلامية الشرقية والأندلسية وغيرها

فكان الاستيلاء عليها يسيل لعاب البرتغال الطامعين في الأسواق الخارجية

وبناء على هذا كله بدأت أساطيلهم تحاول تحقيق هذه الغايات كلها فتوجهت صوب سبتة التي اشتبكت مع رجالها في حرب مستميتة وتمكنت أخيرا من كبت أنفاسها فسقطت المدينة بين براثنهم التي رفعوا بها علمهم على المدينة الفريسة وعهدوا بحكمها إلى قائد اسمه (بيدرو دي منيسيس) معتمدا على حامية عتيدة وعاد الأسطول تحت امارة ابن الملك البرتغالي ، وهو (اينريكي) الذي سنراه بعد يكرر العملية ويصبح بطلها البحرية

وهكذا نجده يقود أسطولا آخر كان الهدف منه احتلال طنجة حيث أخفق حسابهم في الأهمية التجارية التي كانت عليها سبتة فلم يدخلوا فيه الاعتبار الإسلامي الذي بموجبه ، انحسر النشاط التجاري عنها بعد هذا الاحتلال النصراني

وعلى هذا كان رجال الأسطول قد توجهوا برا إلى طنجة بعد ما حط الأسطول بسبتة فواجهوا في طريقهم قريبا مما سيواجهونه بعد قرن ونصف في وادي المخازن فكسروا ووقع في الأسر أخو الأمير وهو « دون فرنندو » Don Fernando

ومهما يكن فقد تم احتلال سبتة على الوجه الذي تقدم وتلا ذلك احتلال لبقية السواحل الغربية المغربية من قبل هؤلاء البرتغال ولم ينج من احتلالهم إلا أقل القليل مما كان داخليا وكان الدفاع عنه متأتيا من متطوعة المغاربة وذلك كمدينتي سلا والرباط اللتين تعرضتا فيما مضى للغزو الاسباني ففشل الغزو بفضل النجدة المغربية التي خفت لخنقه في مهده وبعامل موقع المدينتين من داخل البلاد كما كان تمرس أهلها على قتال الأساطيل في البحر ، ومكافحة النازلين منها إلى البر ، له الفضل الأعظم

كان احتلال البرتغال لمدينة سبتة — كما تقدم — عام ثمان عشرة وثمان

مائة من الهجرة موافق سنة خمس عشرة وأربع مائة وألف وكان ذلك أيام أبي سعيد عثمان بن أبي العباس بن أبي سالم المريني وأيام جوان الأول البرتغالي ولم يكن الملك المريني أخا لعثمان يدعَى عبد الله كما يذكر منويل ونقل عنه السلاوي متحفظا بل نجد وثائق تذكره آنئذ ببعض الأحداث التي نجمت عن هذا الاحتلال للمدينة باعتبارها كانت تحت سلطانه[1] ومن تلك رسالتان من فرنندو الأول ملك أرغون إلى أبي سعيد ملك المغرب فيما ادعَى بعض تجار النصارَى من حيف وقع عليهم وهم بالمغرب حيث كانوا مقيمين فتعرضوا لغضبة الشعب ومصادرته من جراء هذا الاحتلال الغادر لمدينتهم فهو يذكر السلطان بالعلاقة الودية التي تربط بينهما كما تربط بين ابن أخيه ملك قشتالة الذي كان تحت وصايته ووصاية أمه ثم يوصي بأولئك التجار خيرا وأن يرفع عنهم ما يتعرضون له من أنواع الظلم والاذاية من المغاربة وان ترد اليهم أموالهم

والرسالتان مكتوبتان كتابة سقيمة[2] الأولَى مؤرخة بالثامن عشر من نونبر سنة 1415 والثانية مؤرخة بالسادس والعشرين من الشهر المذكور على حين كان يكتب إلى جوان الأول البرتغالي يهنئه أولا باستيلاء قواته على سبتة ثم يكتب إليه في بعض المظالم التي وقعت على بعض رعاياه الصقليين ، الذين كانت جزيرتهم تابعة له[3]

ماذا حصل إثر هذا الاحتلال ؟

كانت المقاومة الشديدة قد استمرت من قبل الشعب والمجاهدين المتطوعين الذين كان ملكهم في شغل شاغل عن إمدادهم بالعتاد والسلاح ولهذا لم نسمع عنه شيئا في هذا الصدد بل سمعنا بعد مقاومة عنيفة يواجهها البرتغال في استمرارهم غربا نحو قصر مصمودة وطنجة

(1) وهي الوثائق النصرانية التي نشر بعضها دكتور « أرياس بالاو »
(2) تمثل ما كانت عليه كتابتهم لذلك العهد من فوضَى لا تتبع قاعدة من قواعد الاملاء
(3) وسنثبت نص الرسائل الأربع أخيرا مع نصوص أخرَى بأرقامها في نهاية هذا البحث وبعض تعاليقنا عليها .

وكانت المقاومة ترتكز على المجاهدين أهل الجبال من القبائل والمداشر المجاورة غالبا من أنجرة والحوز ووادراس وبني يدر وغيرها

ولم نسمع من أهالي المدينة المنكودة الحظ لهم صدًى إلا بعد وفاة هذا الملك واعتلاء ابنه العرش المغربي عام 823 وهو عبد الحق المريني آخر ملوك بني مرين إذ توجهوا إليه برجالهم ونسائهم وبناتهم وولدانهم وتقدموا نحوه بكتاب ذيوله بهذه الأبيات[1]

يا مالكا قد صان بيضة مغرب بضوارم وصوارم وجـنـود
هتك النصارَى علينا حرمة سبتة غدرا بنقض مواثق وعهود
غدرونا فجر عروبة بصنادق حطت صناديد صرعة كقرود[2]
ألفان في ألفين من أبطالهم عظماء أجسام طوال قدود
فقصدنا بابك ضارعين لبوسنا أخمار من شعر ونعل سود
فعساك تجبر صدع قوم خانهم دهر كسا للكل ثوب يهود

ولكن الملك الضعيف عاجز عن إصراخهم فأمر نديمه البجائي بكتاب الجواب تضمن هذه الأبيات التي يفصح فيها بعجزه فيقول

فلقد عجزت عن الدفاع كمن مضَى
من غر آباء وأسمى جدود
هل صيت صولة من تأخر في المدَى
كالسابق السامي لأنهَى جدود
إذ لولا سر الباري في أحكامه
سارت ضباع مقابر لاسود

وهو شعر سقيم خائر كصاحبه الملك الذي صار يركن إلى ما يدلس

(1) كما نجد في الوثيقة التي نشرها الأستاذ السيد محمد ابراهيم الكتاني

(2) يشير هذا إلى ما شاع وأثبته الناصري في « الاستقصا وهو أن البرتغال أتوا في صفة تجار فأنزلوا بالمرسى صناديق تجارية كانت في الواقع تحمل رجالا مقاتلين وكان ذلك يوم جمعة حيث انتهزوا فرصة توجه المسلمين إلى الجوامع لأداء فريضة الصلاة . فخرج أولئك منها واحتلوا المدينة . والقصة تذكرنا بقصة الزباء . . . .

به أصحاب التنجيم كما نجد في نهاية ذلك الشعر

مهما هوَى الفلك الثلاثة فابشروا
بمقامكم فيها مقام خلود
« البوني » و« ابن الحاج في جفريهما
نص إلى الأجل الجلي المعدود
راقبه بعد الألف يا ابن أوانه
تظفر لديه بغاية المقصود
هذا الذي افتت به آباؤنا
وروته أسلاف عن أتقَى جدود
لكن علم الغيب في حكم الذي
ينفي العيان ويأتي بالمفقود

وكما هو معهود في البرتغال من إقامة التحصينات الفولاذية في مواقعها من البلاد التي تتعرض لاحتلالها فقد أقاموا تحصيناتهم في سبتة اثر احتلالهم لها ثم أردفوها ببناء تحصينات أخرَى في القصر الصغير اثر احتلالهم له سنة اثنتين وستين بعدها شأنهم في ذلك شأنهم في تلك التحصينات التي مازالت معالم بعضها قائمة في أصيلة والجديدة وآسفي وغيرها

وعلى حين نجد ملك المغرب يعتذر لأولائك المهاجرين منها اللاجئين اليه بفاس عن عدم القدرة على استرجاع المدينة وانقاذها ويمنيهم بما تقضي به أحكام التنجيم وخرافاته فإننا نجد المتطوعة من المغاربة لا تني تداهم أولئك الغاصبين المغتصبين ، وتكبدهم متاعب عديدة اضطرتهم إلى حفر الخنادق التي امتلأت بمياه البحار

ولم تكن مداهمة هؤلاء تقتصر على المتطوعة المغاربة من الجهات المتاخمة لسبتة بل كان المجاهدون يأتون لاستخلاص المدينة من قبضة الاحتلال الأجنبي يأتون لذلك من مكان سحيق ومن مدن كانت في

مقدمتها العاصمة فاس التي هرع منها مجاهدون جالدوا قوات الغزو البرتغالي وقد استطاعوا أن يأسروا منهم جماعة كان فيهم كما تقدم الأمير دون فرنندو » فجاؤوا بهم إلى فاس سنة إحدَى وأربعين أي قبل امتداد الاحتلال الى القصر الصغير باحدَى وعشرين سنة

وهكذا فإن البرتغال ارتاعوا لذلك وفاوضوا في فك سراح أميرهم ورجاله فشرط عليهم المجاهدون نزوحهم عن سبتة وكادوا يذعنون لهذا الشرط — كما في وثيقة بتاريخ 16 أكتوبر 1437 — إلا أن الأمير مات في سجن فاس فتعطلت المفاوضة واستمرت المقاتلة طيلة الاحتلال

ولم تكن تطوان آنذاك قد بنيت بنيتها كمدينة لها اعتبارها لتقوم بقسطها في محاولة تخليص المدينة أو مداهمة المحتلين لها ولكن ما كان مهاجرة الأندلس يضعون أساس المدينة تطوان الجديدة حتَّى كانوا يشتبكون في حرب البرتغال بجهة سبتة ويستولون على عساكر لهم ويأتون بأسارى منهم يستعملوهم في بناء مدينتهم التي سيستقرون بها نهائيا[1] وأقدم ما بقي من أسوارها السور الممتد من المكان المعروف بالساقية الفوقية إلى الساحة المعروفة بالغرسة الكبيرة وفيه البرج الذي مازال على حصانته[2]

فكان القرن التاسع وأوائل العاشر يشهدان هجوما متواليا على سبتة التي مازالت آثار البناء التي أقامها قراصنتها الاسراء ماثلة على أسوار تطوان وأبراجها كما تقدم ومن ذلك الباب الذي يفضي في السور إلى دار الحاكم المنظري[3] أبي الحسن علي وفي أيام محمد الشيخ الوطاسي

(1) كان بناء تطوان بتاريخ رمز له بتفاحة أي سنة ثمان وثمانين وثمانمائة

(2) يسكنه بعض الفقراء كما يسكنون بيوتا تتصل بالسور وكانت لا محالة مسكنا للحامية به

(3) وهو منسوب إلى المنظر الذي تردد ذكره في الاحاطة على أنه وشوظر من بوادي آش كما في ترجمتي ابراهيم بن الحاج ومحمد بن محمد ابن يوسف . الذي أغزَى جيشه أول أمره ، مدينة المنظر ، هكذا . وما زالت عائلة تنسب إلى «شوظر» وتنطق بالدال في تطوان .

فصارت تطوان إلى ما كانت عليه قصبتها من ذي قبل تأخذ بمخنق سبتة وتحافظ على الجناح الشرقي للمضيق بعدما سقط سائره في يد البرتغال المتجهين غربي المغرب في سواحله كما كان الاسبان الذين اتجهوا إلى شرقيه فاحتلوا مليلية وجهات منه وكان ذلك بناء على التصميم المخطط الذي وضعه لهم البابا كليمنط الخامس فقسم العالم جميعه بينهما لهذه الشرق عامة ولتلك الغرب كذلك

ويذكر الحسن الوزان الأندلسي الأصل الفاسي الدار[1] أنه لما تطوان أيام المنظري الحفيد أوائل القرن العاشر شاهد من أسرَى البرتغال ثلاثة آلاف كانوا يلبسون ملابس صوفية وأنهم كانوا يبيتون في مطامير مسلسلين[2]

ولم تكن تطوان تقتصر على مداهمة البرتغال بسبتة بل كانت تداهمهم بها وبالقصر الصغير وطنجة فكان المضيق لجبل طارق يتعرض للهجمات البرية من قبل حاكم تطوان المنظري الأول ومن أتَى بعده من حكامها كحفيده الذي كان يهاجم حتَّى أصيلة ثم صار يهاجم بحرا كذلك من قبل أحمد النقسيس وأولاده كما سنرَى

ومع هذا فقد أصبحت سبتة مسرحا لفض المعضلات بين المغرب واسبانيا ففي سنة 1476 شاهدت اتفاقا يعقد فيها

وقد ذكر مؤرخ تطوان الأستاذ محمد داود في كتابه تاريخ تطوان » من الأحداث التي اعترت سبتة وتطوان أو كانت بملابسة منهما ما ورد في مستندات تتعلق بافتداء بعض الأسرَى الذين وقعوا في يد التطوانيين فوقع افتداؤهم سنة 1523 توافق 929 هجرية وكان تسليمهم بسبتة حيث حملتهم منها بعض السفن إلى اشبيلية وكان حاكم سبتة آنذاك يدعَى « ضون جوان دي كرونا

---

(1) الذي أصبح يدعَى بعد باسم ليون الافريقي

(2) لعل هذه هي المطامير المعروفة بها سمي الشارع المتصل بالحي الذي كان يسكنه حاكم المدينة على المنظري إزاء جامع القصبة . العتيق في تطوان

كما كانت هناك مراسلات بين المغرب والبرتغال مها ما حصل سنة 1531 بين « جوان » الثالث وابراهيم بن علي بن راشد صاحب مدينة الشاون واستمرت العلاقة الدبلوماسية بين أخته حاكمة تطوان وبين حكام سبتة انتهت بعقد صلح سنة 1538

وذكر دوكستر» في المجلد الأول من سلسلته الأولَى الفرنسية التاريخية أنه في حدود سنة 1542 (948 — 949) وقع بين حاكمة تطوان الست الحرة[1] وبين حاكم سبتة « ضون الفونسو » البرتغالي خلاف أدَّى إلى قطع العلاقات بين سبتة وفاس وكان زوجها آنذاك أحمد بن محمد (الوطاسي) قد كاتب ملك البرتغال « جوان » (الثالث) في التوسط بين حاكم سبتة ضون الفونسو» وحاكمة تطوان الست الحرة وكانت هذه تسمح للسفن التركية بالتردد على ميناء وادي مرتيل الواقع على بعد 10 «كيلومتر» من تطوان وهذا ما أغضب ولا شك البرتغال بسبتة وجيرانهم الاسبان الاعداء الالداء للعثمانيين الأتراك . وكانوا قد تواطأوا على اغلاق ميناء وادي مرتيل

ومن هذا ونحوه نفهم أن المواصلات بين سبتة وباقي المغرب كانت موجودة للاتجار وغيره وهو ما وجدنا له من هذا القبيل سوقا رائجة في القصر الكبير . الذي كان يستقبل التجار الحربيين من سبتة وطنجة وأصيلة وقصر المجاز فأصبح القصر الكبير . محل عناية سلطان المغرب الوطاسي محمد الشيخ ابن أبي زكريا جد السلطان أحمد المذكور آنفا[2]

نعود إلى قضية اغلاق مصب نهر وادي مرتيل فنجد أنه في سنة 1564 موافق عام 972 أمر « فليبي » الثاني قائد الأسطول باشبيلية بافساد المصب الذي كانت السفن تدخل منه إلى داخل الوادي ببضعة كيلومترات وكانت ضمن هذه السفن ما يأتي من البلاد العثمانية والجزيرة

(1) عائشة بنت علي بن راشد من زوجته لالا الزهرة الإسلامية الاسبانية

(2) والد محمد الملقب بالبرتغالي لقب بهذا لأسرهم إياه قبل توليه

البريطانية وكان الأتراك والانجليز أعدى عدو للكاثوليك الذين يتزعمهم فلبي ملك الاسبان إلى جانب ملك البرتغال فجاء قائد المضيق ضون الفارودي باثا Don alfaro de baza بأسطول من طريف وجبل طارق وانضم إليه أسطول برتغالي ساعده به قائد سبتة العام فتمكن بذلك من اغلاق الميناء المذكور في السنة التالية وهذا ما تفصح به رسالته إلى فلبي المؤرخة 10 مارس سنة 1565 وفيها أن تجار الانجليز كانوا يحطرون المغاربة باعتزام « فلبي » على اغلاق هذا المصب وقد أتت سفينتان انجليزيتان من سان لوكار San lucar إلى العرائش وأذاعتا بين المغاربة خبر الاستعداد للهجوم على تطوان أو العرائش

واخطار الانجليز هذا له خطره حيث إنهم كانوا كما قلنا يأتون بسفنهم إلى الميناء التي تقرب من تطوان بنحو سبعة أميال ولهذا نجد في تلك الوثائق[1] رسالة وجهها نيقولا ثروكمرتن Nicholas Throck morton سفير بريطانيا بباريس إلى ولم سيسل William cecil بارون برغلي بتاريخ 29 ينيه 1561 يذكر فيها مصب وادي مرتيل بقوله

أما المرسى الذي سيتجه إليه (القبطان ملتشيور Melchior) البرتغالي الذي يعرض نفسه على الملكة الزابيث ليعمل لها في الاتجار بالمغرب بسفينته لينزل إلى البر منها فهو لا يبعد عن المضيق إلا بخمسين ومائة غلوة ومن هناك يصعد في النهر (وادي مرتيل) نحو أربع عشرة غلوة

وبالنسبة إلى هذا النهر . فإن السفينة التي تجري فيه يجب ألا تزيد حمولتها على مائة طن

وبعد هذا التاريخ وقبل ردم المصب المذكور . بدأ فلبي الثاني يستعد لاحتلال حجر بادس فوجه لذلك أسطولا سنة 1563 فقاومه المغاربة مقاومة عنيفة فلم يكن في مقدور الاسبان أن يتمكنوا لأول وهلة من

(1) التي عربناها عن الانجليزية ثم نشرناها تباعا بمجلة تطوان منذ سنة 1958 إلى سنة 1968 وما زال بيدنا كثير منها بعنوان « من زوايا التاريخ المغربي ».

احتلال الحجر المذكور[1]

وقد ورد في احتلال فليبي لحجر بادس ما ذكره اليفرني في نزهة الحادي كما يلي

وذكر بعضهم أن السلطان مولاي عبد الله[2] لما رأى عمارة تلك الجزائر وسفهم لا ينقطعون من حجر بادس ومرسى طنجة[3] وتخوف مهم اتفق مع الطاغية أن يعطي له حجر بادس ويخليها من المسلمين فتنقطع بذلك مادة الترك عن المغرب ولا يجدون سبيلا إليه فنزل النصارى على حجر بادس وأخرجوا المسلمين ونبشوا قبور الأموات وأحرقوها وأهانوا المسلمين كل الاهانة

وحين سرده بعض ما أخذ على السعديين من اغلاط قال وهذه أمور شنيعة إن صح أنه فعلها ولست أدخل في عهدتها إنما رأيتها في أوراق مجهولة المؤلف »

وقد كان احتلال فليبي يتسم بكونه حملة مسيحية شارك فيها مسيحيون من غير الاسبان ومن غير الكاثوليك ايضا كما نجد في تلك الوثائق التي نشرناها ضمن أوراق من تاريخنا مجهولة »[4]

وتسكت سبتة بضع عشرة سنة فلا نجد لها ذكرا في تاريخنا حتّى ينتقم الله لها من البرتغال الذين اغتصبوها فيقتل آخر ملك لهم « ضون سبستيان في موقعة وادي المخازن التي كسر فيها المغاربة جيشه وسحقوه سحقا فحمل شلوه إلى سبتة في مذلة وهوان وافتداء من أبطال

---

(1) ثم احتلوه أيام عبد الله الغالب وبتواطئ منه كما يقال وما زالوا يحتلونه حتّى الآن (وهذا المكان يعد أقرب ميناء إلى فاس)

(2) الغالب الذي قتل الأتراك أباه غيلة

(3) لعله تطوان فإن طنجة كان يحتلها البرتغال آنذاك فلم يكن من المعقول أن تتردد عليها سفن الأتراك أعدائهم

(4) في مجلة « تطوان » المذكورة . العددين الثالث والرابع

الاسلام فكانت سبتة مقبرته ولم ينقل منها إلا بعد استيلاء فيلبي الثاني على مملكة البرتغال وضمها إلى مملكته وبهذا تنطوي صفحة البرتغال وعهدهم اللعين من سبتة وتبدأ المرحلة الثانية المشؤومة مرحلة الاحتلال الاسباني

الفصل الثاني في عهد الاحتلال الاسباني

عندما تمكنت جيوش فلبي من قهر الملك المزيف « ضون أنطونيو » البرتغالي وضم البرتغال[1] إلى اسبانيا سنة 1580 كان يحكم سبتة للبرتغال آنذاك قائد مهم فقرر مجلس الاشراف بعاصمتهم لشبونة أن تبقَى مهام الدولة على ما كانت عليه من ذي قبل وامتد هذا القرار إلى سبتة بطبيعة الحال وظلت البرتغال تابعة لاسبانيا إلى سنة 1640 حيث كانت الحركة المؤدية للانفصال ولكن هذا الانفصال لم يشمل سبتة بل كانت سبتة المسكينة ضحية الصلح الذي عقد بين الاسبان والبرتغال فكان شرط انعقاده واعادة استقلال البرتغال إلى نصابه أن تظل سبتة في حظيرة الاسبان تابعة لدولة مدريد بدل لشبونة

وكان الحاكم لسبتة آنئذ « فرانسيسكو ديلمايده Francisco de Almeida الذي حاول أول الأمر أن ينضم إلى الحركة الانفصالية وهذا يدل على أنه كان برتغاليا كباقي حكام الممتلكات البرتغالية التي استولَى عليها فلبي الثاني بناء على ذلك القرار الذي اتخذ بلشبونة بأن تبقَى مهام الدولة على ما كانت عليه بالرغم من محو وجودها من الكيان الحقيقي للدول كما تقدم

(1) أقدم فلبي على هذا بدعوَى أنه أحق بعرش البرتغال لأن أخته كانت أما للملك ضون سبستيان » الذي قتل في موقعة وادي المخازن وهو لا عقب له حيث كان أعزب فجلس على العرش راهب من البيت المالك وكان في سن الشيخوخة فتوفي بعد اربع سنوات من توليه الملك ولما مات أجلس على العرش « ضون انطونيو » فلم يعترف به فلبي الثاني وأعلن الحرب عليه فقهره واضطر لمغادرة البلاد فطلب معونة فرنسا التي أعانته فلم تفلح ثم طلب معونة انجلترا فحاولت جر المغرب إلى ذلك فكانت النتيجة الاخفاق ولما تولّى فلبي الرابع نجح البرتغاليون في انفصالهم

لكن هذا الحاكم لم يجرؤ على ما عزم عليه من الانضمام إلى حركة الانفصال وتردد أمام الموقف الذي وقفه سكان سبتة من الاسبان فأحجم عنه

وتزعم حركة الانضمام أو البقاء عليه مانويل أندرا دي موريرا Manuel andra de Moreyra فتقدم إلى قصر الحاكم المذكور الذي اضطره أن يصرح على رؤوس الأشهاد بوفاء سبتة للحكم الاسباني وملكه الذي كان آنذاك فيلبي الرابع

وعليه طار الخبر إلى مدريد يحمله لوبو باربوسا Lobo barbosa فعين حاكما لسبتة سنة 1641 « خوان فرنانديس » Juan fernandez القرطبي واستمرت سبتة منذ ذاك تابعة لاسبانيا

وأثناء تبعية البرتغال لاسبانيا شهدت سبتة أحداثا نجملها فيما يلي

لقد تكونت جبهة قوية من المجاهدين بتطوان كان يتصدرها أولا المقدم النقسيس ، وكان أبو العباس أحمد بن عيسى يتقدم غمارها فكان يهاجم ضواحي سبتة برجاله الأفذاذ وكان يوقع بسكانها النصارَى ويشتبك مع عساكرهم في معارك . كان أشهرها معركة اهتز لها المغرب وملكه أحمد المنصور ، وندع هنا كاتبه عبد العزيز الفشتالي يقص علينا قصتها في كتابه « مناهل الصفا

« كانت هذه الغارة المباركة والغزوة المتداركة في يوم الجمعة الثاني والعشرين من المحرم الحرام فاتح عام سبعة وتسعين وتسعمائة (1588م) وكان من الخبر في ذلك أن العصابة القائمة بفرض الجهاد من المسلمين . بمدينة تطوان حاولوا انتهاز فرصة في المشركين أهل سبتة فاجتمع زعماؤهم الذين مارسوا الحرب على تدبير مكيدة توصل إلى استئصال شأفة العدو ، والاستبلاغ في نكايته وتمنحهم رضَى الله تعالى فانتدب لذلك زعيم الفئة أبو العباس أحمد بن عيسى النقسيس وكان أحد المقدمين على الرجال من حامية الثغر (يريد تطوان) وله في الجهاد والغزو معاهد

مشهورة ومشاهد مذكورة وتقدم في جماعته الذين عركتهم مشاهدة الحروب مع المشركين إلى فحص سبتة وكان أعرف الناس بمكامنه وأخبرهم بمسالكه وأماكنه لطول ممارسته فتنكب عن المكامن التي يعتاد المشركون انبعاث خيل المسلمين منها وطلوع طلائعهم من جهاتها وعدل إلى جهة مأمنهم من جانب الشمال وكان المكان لا يطرقه انسان من كثرة العشب والشجر وكثرة محاماته لاقترابه من العدو وعكف هو وأصحابه على تسوية الطريق وتمهيده ليجوز المسلمون من تلك الناحية بقطع الشجر وتنقية الصخر ورضه بالفؤوس الكهام حتَّى تأتي لخيل المسلمين المجاز منها وبعث في اليوم السادس من مقامهم إلى قائد الثغر يستحثه على المسارعة والوصول إليه في حامية الخيل والرجال فتلقاهم وقص بهم الطريق إلى الجهة التي سواها وارتادها لشن الغارة منها وكان المشركون قد أنسوا راحة من خيل المسلمين في تلك المدة لانكماشهم عن معاورتهم واعراء مكانهم عن الرصد مكرا بالمشركين وخديعة حتَّى أمنوا واطمأنوا وظنوا بالمسلمين الفشل والملل فأجمعوا أمرهم على البروز من سبتة بسائر سوادهم رجالا ونساء وولدانا برسم النزهة والراحة والتقلب في الفحص وسرحوا مع الصباح عيونهم إلى مكامن المسلمين المعروفة عندهم ليكتشفوا خبرها ويأخذوا لأنفسهم بالاحتياط من جهاتها على المعهود من أمرهم في ذلك فلم يتراء لهم شخص بالفحص ولا أنسوا للمسلمين به حركة وكانوا لهم بالمرصاد من جهة مأمنهم من الشمال وهم لا يشعرون

ولما أيقنوا بالبراءة من الفحص ووثقوا بالعافية من جهة المكامن التي يعتادون انطلاق الغارة منها أذنوا لاخوانهم المشركين بالبروز من سبتة فانتشر سوادهم بساحتها رجالا ونساء وولدانا وماج فيها سرحهم وأقبل كل ما بدا له آمنين مطمئنين . فاستبشر المسلمون بالفتح فقرعوا الطبول ونادوا بشعار النصر ، فلم يرع المشركين إلا طلوع خيل المسلمين ، عليهم من حيث لا يحتسبون ، فانطلقت عليهم مغاورة المسلمين عنانا واحدا

فحالت بينهم وبين سبتة وتدافعت الساقة تحت الالوية اثرهم فمنحهم الله الظفر واستولوا على سائر سواد المشركين ما بين الاسر والقتل واكتسحوا سرحهم وكادوا أن يستولوا على سبتة بما أتيح لهم من الظهور باستئصال عامة أهلها وانتهاز الفرصة في حاميتها ولكن الله أملَى لهم حتَّى ينجز فيها وعده الكريم ونظم المسلمون من تخطاه الأجل من المشركين في السلاسل والحبال وحملوا رؤوس القتلَى على عجلات اكتسحوها مع السرح للنصارَى وقفل المسلمون أعزاء ظاهرين فرحين مستبشرين واستاقوا السبي بين أيديهم إلى تطاوين فبرز الناس لمشاهده فكان يوما مشهودا عندهم وكتبوا بالفتح إلى السلطان مولاي أحمد أيده الله فوافاه الرسول بالكتب بمخيمه من ساحة قلعة الكرار وذلك أن السلطان أيده الله لما طال مكثه بحضرة مراكش أمنها الله وغاب بها عن فاس صانها الله نحوا من سبعة أعوام قبل تاريخه وأراد القدوم عليها ضرب عسكره بباب أغمات وخرج إليه يوم الخميس موفي عشرين من ذي الحجة عام ستة وتسعين فأقام هنالك نصف شهر أو نحوه فارتحل منه وعاج على وادي السد وتثاقل في الطريق أياما ونزل بساحة قلعة الكرار أياما فوافته البشارة بما فتح على المسلمين من المشركين أهل سبتة

وكتب لقائد الثغر بالتقائه بالسبي لفاس وارتحل أيده الله لتادلا ومنها لمكناسة الزيتون أمنها الله ومنها لفاس صانها الله مع أحوال وأشغال ثم وصل قائد الثغر والمقدمون على الغزاة بسبي سبتة وشقوا به فاسا على التعبئة والألوية وبرز العذارى والمخدرات لمشاهدة ذلك من وراء حجابها فكان يوما مشهودا عند أهل فاس

وعرض السبي على السلطان أيده الله وسلم عليه أهل الثغر وفرح بهم السلطان غاية الفرح ودعا لهم بأحسن الادعية وحرضهم وكافأهم ووصلهم فكان من الأيام التي أعز الله تعالى فيها الاسلام وأذل فيها عبدة الأصنام وفي ذلك قال صاحبنا وبلدينا أبو عبد الله محمد بن

علي الفشتالي أصلحه الله ببيتين وهما

هذه سبتة تزف عروسا نحو ناديك في شباب وشيب
وهي بشرَى وأنت كفؤ اللواتي كلفت بعدها بفتح قريب

وزجر له مها الفال بأنه يستولي على سبتة وينقاد له ما وراءها من الثغور ويكمل بذلك الفرح والسرور

فهذه القصة تفهمنا أن نصارَى سبتة كانوا يعيشون دائما في هلع وخوف من مداهمة المغاربة فكانوا لا يخرجون إلى ضواحيها إلا بعدما يخرج الربيْ مها ويجوس خلال فحصها ويتفقد الناحية التي اعتادوا مها المداهمة فإذا اطمأن إلى السلامة والأمن في ذلك عاد فأخبرهم فأذن لهم في الخروج

وتفهمنا أن مجاهدي تطوان وحكامها كانوا لا يهدأ لهم بال ولا يستقر لهم قرار إلا وهم يزحفون بجموعهم ويتوجهون بخيولهم ورجلهم إلى مداهمة نصارَى سبتة والانتقام للمسلمين مهم وأنهم في ذلك كانوا يدبرون الخطط التي تمكنهم من فتح سبتة كما يقولون وكان المغاربة جميعا وفي مقدمتهم أهل فاس يجدون في نفوسهم غصة وفي جنوبهم شوكة من بقاء هذه المدينة فريسة بين الوحوش الضارية النصرانية وهذا ما حمل المنصور على أن يطلب من قائد الثغر موافاته بأولئك الاسارَى وعرضهم على أهل فاس رجالا ونساء

ويفهم من المنصور أنه لم يفكر في استخلاص سبتة بالرغم مما كان الشعراء يحرضونه على ذلك في كل مناسبة بموالدهم وتهانيهم ومها هذه المناسبة نفسها التي وجدنا فيها محمد الفشتالي يزجر ببيتيه ولكن كل ذلك كان صيحة في واد فكيف يفكر أحمد السعدي في استخلاص سبتة وهي على باب المضيق الذي لم يكن يسره أن تخترقه الأساطيل التركية التي كانت تهدده وتهدد من سبقوه وهو لا ينسى أولئك الذين وجههم سليمان القانوني لاغتيال أبيه وقد تسللوا إلى عسكره ونالوا منه الرضَى

والتقريب ؟ ان العدو اللدود الحقيقي للسعديين، انما كان الأتراك العثمانيين، ولهذا لا نعجب ان وجدنا أخاه عبد الله يمكن النصارَى من احتلال «حجر بادس»، الذي كان الأتراك ينزلون به وينطلقون منه إلى فاس فساعدوا الملك الوطاسي في محاربة محمد الشيخ أولا ثم تسللوا إليها ثانيا ثم أتوا مرة ثالثة لمحاربة السعديين وضرب رؤوس بعضهم ببعض كما حصل مهم مع عبد الملك على ابن أخيه محمد المتوكل وان كان في الأخير وجد مهم نصرا فإنه لا يأمن مهم أن ينقلب النصر في يوم من الأيام ضده وقد كانوا يلوحون بذلك في عدة مناسبات وحتَّى بعدما فترت قوتهم ووهنت عزيمتهم وقد فقدوا أسطولهم في معركة « ليبنتو » بالمياه الايطالية فكان ملوك السعديين دائما متوجسين من الأتراك وبيهم حب مفقود تستره الدبلوماسية والسفارات أحيانا ولم يعطف عليهم بعد من ملوك المغرب إلا المولَى محمد بن عبد الله العلوي

والحق أن المنصور لم يهتم بالشمال حتَّى الاهتمام المحدود الذي كان من أخيه عبد الله الغالب بل بعد استرداده لأصيلة ترك أمره لمقدمين كانت قوتهم مستمدة من الأهالي أكثر مما كانت مستمدة من السلطان وبهذا كانت تصرفاتهم ازاء سبتة برا وبحرا تستجيب لرغبات تنبعث من اقليمهم المحلي وكانت لهم سفن يمتلكونها ويداهمون بها السفن التي هي في حوزة نصارَى سبتة فكانت القرصنة على أشدها في المضيق وكان الطرفان يتربص كلاهما بصاحبه الدوائر فهذا ابن القاضي المكناسي يركب البحر من ميناء وادي مرتيل فلا تبعد السفينة به كثيرا وتوغل في عرض البحر حتَّى يتعرض لأسطولهم ويقع بين الأسارى ركاب السفينة عند القراصنة الاسبان سنة أربع وتسعين وتسع مائة ويقضي سنة كاملة في الأسر فلا يفتك إلا بعد جهد جهيد وفداء سخي من المنصور . وبذلك كان خروجه من سبتة إلى تطوان وهو في طريقه إلى موطنه فاس

ويذكر أحد أفراد السفارة التي كان يرأسها الكاتب محمد الفشتالي إلى

الخليفة العثماني وهو صاحب الرحلة « النفحة المسكية » على التمجروتي الجزولي أنهم لما أقلعوا من مرسى تطوان (وادي مرتيل) لاحقتهم من سبتة ثمانية سفن نصرانية لتأسرهم فنجاهم الله بالرياح الشرقية التي اعترضت مجراهم وكان ذلك عام سبعة وتسعين وتسع مائة كما ذكر أن أغربة أخرى تحركت بأطراف سبتة لسفينة تركية كانت ستقلهم

وفي أواخر العهد السعدي كان قراصنة الانجليز قد انتهوا إلى المضيق وصار حاكم سبتة يمدهم بسفنه ورجاله للاغارة على سفن الاتراك المترددة على تطوان (1621هـ)

ثم كانت أنظار الانجليز تتجه بقوة إلى مضيق جبل طارق وتبحث عن نقطة ارتكاز فيه وتجتهد في أن تكون بشبه جزيرة يتأتى الاحتفاظ بها والدفاع عنها بحريا مما اعتاده الانجليز وتمرسوا عليه أكثر من غيرهم آنذاك اذن فليحاولوا هذا في مدينة قادس التي تمكنوا من احتلالها في الحرب التي نشبت بينهم وبين اسبانيا سنة 1625 وإذ لم يطل بهم المقام بها فليتوجهوا إلى سبتة وبعدها ستكون طنجة فجبل طارق

لم يكن تحقيق الاستيلاء على سبتة قد اكتسى صفة عملية حققت المطلوب كما كان من طنجة التي تسلموها من البرتغال هدية زواج بأميرة منهم وكما كان من جبل طارق الذي احتلوه بعد أن خرجت طنجة من يدهم ودافعوا عن وجودهم به دفاعا مستميتا ولكن سبتة بقي مشروع احتلالها في طي التقارير التي كان دهاقينها يوافون بها لندن » في الفينة بعد الأخرى

بدأ الانجليز يمهدون لهذا الاستيلاء بالاتصال مع أولاد النقسيس الذين اعتادوا الرباط على أبواب سبتة ومداهمتها مما رأينا له مثالا على عهد المنصور السعدي فكان « جون هارسون » يتصل بأحمد النقسيس ثم بأولاده وكانت المكاتبات تتردد في هذا الصدد كما ورد في تقريره لجون هاريسون وجهه إلى قومندان الاسطول البريطاني أيضا بتاريخ 20 يليه

سنة 1625 (14 شوال عام 1034) فيما يخص احتلال سبتة ورد فيه فان ذلك يكون مناسبا جدا لمصلحة سفننا التجارية المرتبطة بالمضيق حيث إنها ستتقوّى وتزود من أنجلترا[1] إذا امتلك صاحب الجلالة جبل طارق فإنه سيتحكم في المضيق وبقية بلاد البربر التي تقع على تلك السواحل والتي احتلها الاسبان وهناك على الخصوص نقطتان قد سبق ذكرهما وهما سبتة والمعمورة[2] ومن السهل الاستيلاء عليهما بواسطة الطريقة التي سلفت أن نضع باتقان قوة في الداخل وأخرَى في الخارج من المضيق فإذا امتلك صاحب الجلالة جبل طارق أو أي ميناء قريبة إلى تلك الجهات حيث إن كل واحدة تعضد الأخرى فاني لا أشك كثيرا في احتلال اسبانيا أو البرتغال[3]

وهكذا في هذا التاريخ نجد النظر يتجه إلى جبل طارق ولكن احتلاله تم بعد 80 سنة أي سنة 1704 موافق 1116 أواسط العهد الاسماعيلي وبعدما نزحوا عن طنجة بعشرين سنة وكانت — كما تقدم — قد آلت اليهم فأقاموا بها 20 سنة

وفي 3 نونبر من نفس السنة كتب إلى دوق بوكنكهام» Duke Buckingham يقول أبواب سبتة وطنجة مغلقة منذ زمان طويل ولا يسمح لا لمغربي ولا ليهودي بالدخول إليهما أو الخروج منهما وأخيرا أفلتت سفينة انجليزية من مالقة وجاءتنا بخبر عن الوصول الثاني السعيد للأسطول الانجليزي إلى قادس فاستقبل ذلك بالشكر لله

ومن رسالة أخرَى له بتاريخ 8 أكتوبر سنة 1630 يقول في تقريره إن سلا وتطوان يمكن استغلالها لاحتلال جبل طارق وسبتة وإن مقدمي تطوان يعرضون أنفسهم على صاحب الجلالة[4] وانهم سيكونون

---

(1) وكان شارل الأول قد أعلن الحرب على اسبانيا

(2) المحتلة بهم

(3) كانت تابعة لاسبانيا آنذاك

(4) شارل الأول

في خدمته إذا أرسل أسطولا لاحتلال سبتة وجبل طارق ثم يقول ولنا من المغاربة حليف عظيم ليتقدموا بطلائع جيش تمهد السبيل ومقدم أنجرة كذلك يعرض كل مساعداته

هكذا كان أولاد النقسيس المقدمون كما كان مقدمو أنجرة يتحرقون لاسترجاع سبتة إلى حظيرة الإسلام مستعملين كل جهد لذلك ومن المؤسف أن يصبح بعض أولاد النقسيس مقبلين على ما لا يحمد مما جعل الأهالي يثورون في وجههم ويفر منهم من يفر إلى سبتة كما فر آخرون منهم إليها بعد وكما فر أتباع الخضر غيلان أو بعضهم إليها لما قتل رئيسهم في العهد الاسماعيلي

وهكذا فقد انطوت صفحة السعديين ونشرت صفحة العلويين. وسبتة ترسف في أغلالها إلى أن كان عهد اسماعيل العظيم الذي آلى على نفسه أن يحرر كل شبر من رقعة المغرب فكان في حسابه سبتة التي حاصرها حصارا مستميتا وبنَى على حدودها رباطا للتضييق على مغتصبيها استمر به المجاهدون المرابطون أزيد من ست وعشرين سنة تخللتها مناوشات متتابعة ولكنهم لم يتمكنوا من تحرير هذه المدينة الأسيرة من ربقة أسرها وتوفي المولَى اسماعيل والمرابطون المجاهدون على رباطهم وصدق عزمهم

ولا يستغرب من هؤلاء فشلهم في هذا الاسترجاع مادامت سبتة تأتيها الذخيرة والعتاد والرجال من المضيق الذي كان الاسبان مسيطرين عليه وقد تقدم من ذلك أمثلة فيما سبق وهي في حوزة الاسلام فلم يفتحها إلا صلحا لأول الأمر، ولم يستخلصها المرابطون الأول من سقوط إلا بفضل الأسطول العبادي الذي كان يحاصرها من البحر ويساند حصارها من البر، وهكذا فيما تكرر بعد والآن وقد صارت جزيرة بكل معنَى فالحصار الذي يجدى فيها كان الحصار البحري وإلا فلا.

هذا هو الحق وليس منه ما يقال من ان الريفيين المرابطين عليها لم يخلصوا النية في تخليصها بدعوى أنهم كانوا يخشون إن نجحوا أن يوجه بهم إلى استخلاص غيرها لأنه لم يكن غيرها الذي بقي تحت نير الاحتلال النصراني إلا مدينة مليلية الريفية التي تهم الريفيين أكثر من غيرهم والا مدينة « مازكان » الزمورية التي بناها البرتغال حيث كان حصن البريجة وكانت هذه أيضا تتطلب الحصار البحري وان لم يكن بتلك الدرجة التي كان يتطلبها الحصار السبتي منه اما من ناحية البر فلم يكن الرباط عليها بالقوة التي كان عليها رباط سبتة فلم إذن يتهيبه — كغيره — هؤلاء الريفيون الأبطال ؟

ومهما يكن فإن الحصار البري اشتد بالنصارَى فجهز فليبي الخامس حملة سرية لتهاجم الجيش المغربي المحاصر وتحطم حصونه وتجعله مضطرا إلى الانسحاب إلى المواقع الخلفية وعلى ذلك كانت تلك الحملة تتألف من ستة عشر ألف جندي تحت قيادة قائدها الأعلَى الجنرال « ماركس دي ليدو » Marques de ledo وكان الجيش الذي يقوده يضم أربعة فيالق على رأس كل فيلق قائد جنرال وهم كبايرو دي ليدو Caballero de Ledo و« تشافيش » Chaves و« المركيس دي بوس » Marques de bus و« الكونت دي كليمس Alcaude de climas تسند هذه فرقة أخرَى من الفرسان فكانت هذه الفرقة فيلقا خامسا تحت قيادة الجنرال « براكامونطي » Bragamonte

لقد احتشد هذا الجيش بسبتة أواخر أكتوبر سنة 1720 وفي اليوم الخامس عشر من نونبر من نفس السنة هاجم معسكر مولاي اسماعيل وحصلت معركة عنيفة انتهت باحتلال مواقع استراتيجية كان يحتلها جيشنا فالتجأ هذا الجيش إلى جبل بليونشن حيث تحصن بشواهقه وسقط في الميدان قتيلا نحو خمس مائة شهيد ، كما تقول تواريخ الاسبان وتزيد بأن الجيش الاسباني استولَى على عديد من الخيام والمدافع وأسلحة أخرَى كثيرة .

ومع هذا النصر ، كما تقول فإن الجنرال الماركيز دي ليدو » لم يتورط وينتهز فرصة الانتصار الباهر ليتوغل في دحر الجيش المغربي بل اكتفَى بحماية الأماكن التي احتلها من جديد فعسكر بها للدفاع عنها إن هوجمت من جيشنا وفعلا فقد عاود المغاربة نشاطهم وهاجموا بشدة المعسكر الاسباني وكادوا يحطمونه تحطيما تاما لولا صمود قواده في وجههم بمعداته القوية التي كانت كافية للدفاع عنهم فارتد الجيش المغربي عنهم غير محصل على طائل من مواقعهم

ولم تمض إلا بضعة أيام حتَّى كان في اليوم الحادي والعشرين من نفس الشهر ، يكر المغاربة البواسل على الجيش الاسباني فكبدوه خسائر فادحة في العتاد والأرواح فسقط عديد من ضباطه صريعا وتفجرت كثير من براميل البارود من قذائفهم ووقع الرعب في صفوف الجيش الاسباني فهام على وجهه في الشعاب والأودية وتسلق الجبال كما تعترف بذلك تواريخ الاسبان

وبعد (جريعة الذقن) استطاعت فلول الجيش الاسباني أن تنهزم إلى سبتة التي دخلتها تجر ذيول الخيبة في اليوم الثاني من شهر نونبر لسنة احدَى وعشرين ومنها ركبت البحر إلى اسبانيا وقد فقد ذلك الجيش ما احتله من مواقع استراتيجية ، وانتكص على أعقابه خاسرا خاسئا

لقد كان المغاربة يتطلعون في حرقة بالغة إلى تخليص البلاد فكانت الخطب تلقَى في هذا وكانت الشعراء تحرض الملك على فتحها مثل الفقيه عبد السلام جسوس الذي حرض المولَى اسماعيل على استرجاع سبتة وبادس والبريجة[1] بعد استرجاع طنجة والعرائش فقال

رفعت منازل سبتة أقوالها تشكو اليكم بالذي قد هالها
مع «بادس» و«بريجة» فتعطفوا وتنبهوا كي تسمعوا تسآلها
يا ابن النبي الهاشمي محمد قل يا أمير المؤمنين أنا لها

---

(1) هي التي سميت بعد الجديدة .

فلقد قضيتم للعرائش حاجة   مع طنجة فاقضوا لذى آمالها
عار عليكم أن تكون أسيرة   بجواركم وجنودكم تعزى لها
ان لم تكونوا آخذين بثأرها   من ذا يفك من الوثاق حبالها
لا تسمعن من جاهل ومثبط   ومصعب من جهله أحوالها
إن الذين تقدموا قد جاهدوا   بنفوسهم وبمالهم أمثالها
فتملكوا أملاكها وديارها   وتقسموا أموالها ورجالها
فابعث لها أهل الشجاعة عاجلا   حتَّى تراهم نازلين جبالها
وأمدهم بمؤونة ومعونة   كما تقطع بالمدَى أوصالها
ارفع لهذا الغرب رأسا إنه   في الضعف ما دام العدا أنزالها

ومثل أديب فاس ومفتيها أبي محمد عبد الواحد البوعناني الذي قال في قصيدة له بمناسبة فتح العرائش

ألا ياأهل سبتة قد أتاكم   بسيف الله سلطان وقور
إذا ما جاء سبتة في عشي   تناديه إذا كان البكور

إلى أن قال

أيا مولاي قم وانهض وشمر   لاندلس فأنت لها الأمير
وجاهدهم وحاربهم وفرق   جموعهم فربكم النصير
ولا يمنع بفضل الله منها   كما قد قيل بر أو بحور

هكذا يحسب الشريف البوعناني ولكن « البحور » هذه هي التي كانت تقف دون استرجاع سبتة وهي التي كانت الأساطيل الأجنبية — كما قيل — تساند منها القوات البرية في استرجاع بعض الثغور المغربية ، لذلك العهد فكان المغرب فيه تعوزه الأساطيل القوية التي كانت له في العهد المريني ، ولم يسترجعها ، بتلك القوة في العهد السعدي ، ولا في أوائل العهد العلوي

لقد كان المولَى محمد بن عبد الله فيما بعد اهتم بالثغور وعمل على

حمايتها بالأسطول الذي كان على طوله كما كان يرابط بالثغور الأطلسية ويتجول في بحارها ومع هذا رأى الاستيلاء عليها ليس في المستطاع فانصرف عن التفكير فيه

لهذا فإن البيت

ولا يمنع بفضل الله منها كما قد قيل بر أو بحور

له دلالته في كون هؤلاء القائلين يدركون ما يحتاج إليه الجيش من أساطيل لم تخف أهميتها على المولى اسماعيل فطلب من أنجلترا سنة 1696 أساطيل بحرية تساند المعدات البرية التي لم تجد في سبتة واستخلاصها من يد الغصب

وكذلك نظم في هذا الاستخلاص والحض عليه فقيه تطواني في ذلك العهد الاسماعيلي عدة قصائد ومقطعات وهو الفقيه أبو عبد الله محمد بن علي الرافعي[1]، الذي نظم قصائد ورد فيها ذكر لسبتة، كقوله في مفتتح بعضها

يارب سلم ونج كل منتدب	إلى الجهاد وحث فيه واجتهدا
وصار بالحزم يبغي نصر ملته	وعزمه في الجهاد دائما أبدا
داروا بسبتة أهل الصدق وابتدروا	شقوا أخاديد لاستئصال من جحدا
يرجون وعد الاله الحق ربهم	من كونهم في الجنان يحشرون غدا
فكم وقائع في الحرب لهم شهدت	بأنهم في رهان السبق خير هدَى
وكم مدافع في البيداء قد وضعوا	ترمي البلاد فينسي صعقها الرعدا
فارددهم بسلام بعد فتحهم	ما أملوا من ديار الشرك دار عدا
مرادهم سبتة البيضا ومينتها	سهل لهم فتحها يا خير من قصدا
فلا صلاة تقام في مساجدها	ولا قران بها يتلَى كما عهدا

وهكذا كانت القصائد تكتسي صفة التوسلات والأدعية لله أن يشد

(1) اكتشفه لأول مرة مؤرخ تطوان الأستاذ داوود، واختار أشعارا من ديوانه

ازر المجتهدين ويسهل عليهم فتح المدينة السليبة ومن ذلك قوله

الاهي الاهي أنلنا المنَى وسهل لنا كل أمر عسيرا
ومن علينا بفتح وكن معينا يارب لنا ونصيرا
وسلم ونج جيوش الهدَى وصاحبهم كل وقت حبورا
وأيد غزاتك بالنصر يا لطيفا بكل الورَى وخبيرا

إلى قوله فيهم

والآن إلى سبتة سارعوا لهم رغبة فيها منذ دهورا
وألقوا كمائن في خفية وجاشت جيوش وخطوا حفيرا

وعلى هذه الوتيرة يستمر في هذا الغرض داعيا بأسلوبه المخلص المتخلص بعد الاحيان من قيود النحو وغيرها ومع هذا الضعف فهو يسجل خططا ومعدات ومواقف كما أن له رسائل في الجهاد يخللها ببعض الأشعار كقوله في جماعة من المجاهدين قصدوا سبتة جازمين بالظفر والنصر

جيوش وأبطال تسارع للعدا أسود لهم في الحرب أشهَى مرام
يصولون بالسيف المهند والقنا وطعن سنان وامتشاق حسام
وحيث أغاروا في أباطح سبتة كساهم قتاما من خيول سوام
تراهم والبشرَى تعم جميعهم تخالهم نشوَى بشرب مدام

لقد كان الحصار شديدا وكان اسماعيل يستعمل فيه ما يستطيع وقد بدأ ذلك مبكرا فقد جاءت سفينة بمعدات للانجليز الذين كانوا لم يزالوا بطنجة ، فاستولَى عليها المغاربة ، وأمر اسماعيل بحمل مدافعها إلى حصار سبتة وقد ظلت آثار القذائف على أبوابها رآها الغزال

واستمر الجيش المغربي والمجاهدون المتطوعون يرابطون على أبواب سبتة ويشددون عليها الحصار ويداهمونها أحيانا ويطاولونها مدة ست وعشرين سنة –كما تقدم– إلى أن توفي المولَى اسماعيل سنة 1139 توافق سنة

1727 للميلاد بعدما ملك سبعا وخمسين سنة لم نعرف غيره من الملوك ملكها الا المستنصر الفاطمي الذي ولي ستين سنة وشهورا وكأن هذه المدة قد هيأت للانفجار الذي بدأ في حياته بابنه محمد العالم واستفحل بعد وفاته بقيام أبنائه بعضهم على بعض وكل كان له رجاله الذين ترشحوا للقيام إلى جانبه منذ أمد بعيد ولا شك فقد كانوا يتطلعون إلى الملك ويستطيلون حياة أبيهم العظيم ويسمونه بالحي الدائم ، خصوصا منهم الذين كانوا يحكمون أقطارا من المغرب وزعها عليهم

لهذا فليس بعجيب ما وقع بين أولئك الاخوة من تهافت على الملك وتطاحن فيما بينهم على عرشه تطاحنا لم نعهد له من مثيل حتَّى بعد المنصور السعدي حينما استغل ذلك الاسبان واقتطعوا من المغرب العرائش والمعمورة (المهدية)

أما الآن فلم يحدثوا أنفسهم بشيء من هذا وقد جربوه فكان جزاء ذلك الخسران والجلاء ولكنهم تنفسوا الصعداء بفك الحصار عن سبتة وتفرق المرابطين والغزاة والمجاهدين كل عاد إلى قبيله أو معسكره خارج هذا الرباط وكان في أولئك المحاصرين عبيد من البواخرة آواهم حاكم تطوان عمر لوقاش وأحسن إليهم وأقامهم على الرباط بوادي مرتيل

وبالجملة فقد عمت الفتن وطمت وطحنت الحروب بين الاخوة رجالها وانصرفت الهمة عن سبتة وافتتاحها إلى حين ومع هذا فإن الأمير محمد بن عبد الله ، كما أشرنا ظل يفكر في مصيرها فجاء إلى تطوان وحاكمها محمد بن عمر لوقاش وتوجه إلى جهات سبتة وعاين تحصيناتها الشديدة ، فأدرك أن افتتاحها ليس من اليسير ، ولا يدرك إلا بالجد والاستعداد العظيم

ولما أفضَى إليه الملك حاول أن يحسن العلاقات مع ملك الاسبان فأطلق سراح بعض أسراهم مما أدخل السرور على هذا الملك واستعمل

الوسائل الديبلوماسية في حل المشاكل المعلقة وكان منها مشكلة سبتة فعهد إلى حاكم تطوان الحاج محمد عاشر أن يباشر جانبا منها مع حاكم سبتة مثل تجديد الحدود سنة 1767

لقد كان السلطان جادا فيها لا محالة وترددت السفارات بينه وبين ملك الاسبان ولكن ذلك لم يجد شيئا فيما يخص سبتة ثم جاء إلى تطوان مرة أخرى وكرر زيارته لجهاتها وعاود النظر إلى التحصينات التي هي عليها فكان الاستصعاب لفتحها أو الاستيئاس منه يواجهه بصفة قطعية وبذلك توجه العمل لاستخلاص غيرها فكان من ذلك حصار مليلية ومحاولة استنقاذها من الاسبان كما كان منه حصار مزكان » ومحاولة استخلاصها من البرتغال وتأتي هذا الأخير ، ونزح البرتغال عنها وسميت فيما بعد حين جددت باسم « الجديدة »

أما مليلية التي كان استخلاصها سيصبح فاتحة العمل لاستخلاص سبتة فقد احتجت الدبلوماسية الاسبانية بعقد الصلح الذي أبرم بين المغرب وبينها على يد سفير المولَى محمد ، وهو أحمد الغزال كاتبه فكف السلطان عن حصارها بعد اطلاعه على الوثيقة التي وجد الصلح فيها والمهادنة تعم البر والبحر وإن كان قد عهد إلى سفيره بأن يعقد هذه المهادنة في البحر لا البر وعلى ذلك رد المولَى محمد على رسالة ملك الاسبان بأنه لو كانت المعاهدة شاملة للبر ، لكان الدخول والخروج إلى تلك الثغور ومنها مباحين ، ولم يكونا كذلك ومع هذا الايضاح للموقف فإنه لما اطلع على ما عقد سفيره الغزال معهم أذعن للواقع وأمر بفك الحصار عن مليلية والاقلاع عنها وحصل الانصراف عن افتتاح سبتة لذلك إلى أن توفي المولَى محمد وجلس على العرش المولَى اليزيد ابنه

لقد كانت مبايعة المولَى اليزيد بالحرم المشيشي ، فكان من الطبيعي بداية العمل بتخليص سبتة ، التي كان ولاشك يعد بفتحها أو يطلب منه ذلك وهو بتلك البلاد التي تتلظّى من نير احتلالها . ولهذا ما جلس على

عرشه حتى نقض الصلح الذي كان بين «كارلوص» الرابع وبين والده وشرع في الحصار لسبتة وشمر عن ساعد الجد والاجتهاد في استخلاصها فاستنفر الناس إلى ذلك والمرابطة عليها واستصحب معه آلة الحرب من المدافع والمهاريس ونصب عليها سبعة أشبارات كان جلها «لفناشة» سلا وأهرعت إليه المتطوعة من حاضر وباد ونسلوا إليه من كل حدب وواد وأقام على حصارها مدة ثم أفرج عنها وسار إلى ناحية مراكش، لأمر اقتضى ذلك فلما وصل إلى مدينة آنفي بدا له الرجوع فرجع ونزل عليها واستأنف الجد وارهف الحد وأرسل إلى قبائل الحوز يستنفرهم للجهاد والمرابطة فتقاعدوا عنه، بعد أن أشرف على فتحها كما يقول صاحب الاستقصا الذي نقلنا منه هذه الفقرات

وقبل الاقدام على الحرب كان قد وجه إلى حاكم سبتة بما نجده في هذه الرسالة

إلى حاكم سبتة، سلام على من اتبع الهدى وبعد فاعلموا أن كاتبنا الفقيه السيد محمد بن عثمان طلبتم منا بعثه إليكم وقد بعثناه وذكرنا له شروطا ثلاثة وهي التخلي عن مدننا أو دفع الجزية عنها والا فالقتال والمحاربة وقد توجه وأقام عندكم هذه مدة من أحد عشر شهرا وما جاءنا جواب نعتمده وانما يأتينا أنكم تقولون «عند الأمر والنهي» وأفعالكم ما تطابق أقوالكم

والآن فإن أتيتم بمليون من الريال صيرناه على جيشنا السعيد وقبلتم الشروط الثلاثة المذكورة، رفعنا عنكم آلة الحرب والقتال ونحن مسلمون الغدر عندنا حرام وقد أعلمناكم وجعلنا لكم شهرا وعشرة أيام من الثاني من غشت آخرها الحادي عشر من شتنبر، فإما القتال أو المهادنة إن قبلتم الشروط الثلاثة، وجئتم بالمليون من المال المصير عن الجيش ونحن اليوم آخذون في اصلاح الشبارات وفي انزال آلة الحرب فكونوا على علم بذلك، لأن الغدر في ديننا حرام وبيننا وبينكم الشهر والعشرة الأيام

وفي الثالث عشر من ذي الحجة الحرام عام خمسة ومائتين وألف (موافق 13 أغسطس سنة 1791)

فهذه الوثيقة مهمة من حيث الاتصالات الدبلوماسية التي سبقت الحرب التي أعلنت، وأنها كانت اتصالات عديدة مع حاكم سبتة كما تفهم الرسالة وأن المولَى اليزيد انتهَى فيها إلى مطالب مالية كان مضطرا إليها وهو يعد جيشه فكان في هذا الاعداد محتاجا إلى أموال ذكرها بمليون ريال تؤديها الحكومة الاسبانية أو حاكم سبتة علاوة على قبول الشروط الثلاثة المذكورة

وهذه الضائقة المالية كانت تحرج المولَى اليزيد وهو لما يزل أميرا لم يعتل العرش بعد أبيه فقضية التعرض لوفد الحاج والاستيلاء على الأموال التي وجهها مع الوفد أبوه معروفة في التاريخ(1)

بعد هذا الانذار وجدنا لأول مرة ملك المغرب يتولَّى بنفسه حصار هذه المدينة ليستخلصها من براثن العبودية ولكن للأسف كان انتقاض أهل الحوز ومبايعتهم لأخيه المولَى هشام مما أزعجه عن ذلك وقد جعل الحصار الذي أشرف على الفتح يبوء بالخيبة والفشل فيضطر إلى رفع الحصار لمحاربة أخيه ثم يموت المولَى اليزيد برصاصة تصيبه وهو يطارد جمع أخيه المنهزم سنة ست ومائتين وألف ولم يكن قد مضَى على بيعته إلا سنتان ومع هذا فقد ترددت بينه وبين كارلوس خلالهما مكاتبات عديدة ورد في إحداها مؤرخة بسادس شعبان المبارك عام 1204 موافق 21 أبريل سنة 1790 في حق المترجم بسبتة

---

(1) وقد حكَى لي بعض المنتمين إلى العلم من المغاربة، ونحن بالقاهرة، نمثل المغرب أواخر سنة 1957 «قصة» وهي عجيبة أن المولَى اليزيد لما كان منتبذا عن أبيه بالمشرق، اضطر لبيع جارية جميلة وكانت حاملا فاشتراها محمد علي، وكان عقيما فولدت له مولودا ذكرا أسماه ابراهيم
فذاك ابراهيم باشا العظيم فيما بعد، وجد الخديويين وملوك مصر الاخيرين ولسنا متأكدين من صحة هذا والعهدة على صاحبه الذي كنا على ثقة منه آنذاك...

نأمر «الراي» كرل المذكور يزيد له في راتبه مراعاة لجانبنا الشريف

وأرَى أن هذه الرسالة كانت قد وجهت إلى حاكم سبتة لا إلى كارلوس الرابع[1] فإنها تختلف في لهجتها تماما عما عهد في رسائله إليه ولابد أن تكون أولاها هذه الرسالة

من عبد الله المعتصم بالله المتوكل على الله في سره ونجواه محمد اليزيد المهدي الحسي ابن أمير المؤمنين مولانا محمد بن أمير المومنين مولانا عبد الله ابن أمير المومنين سيدنا ومولانا اسماعيل لطف الله به ووفقه وسن له الفتح المبين .ويسره وسدد أقواله وأفعاله آمين. إلى عظيم جناب اسبانية كارلوس الرابع لاص صبانية السلام على من اتبع الهدَى أما بعد فاعلم أن سيدنا ومولانا الوالد قدس الله روحه قد صار إلى عفو الله ورحمته وانتقل للدار التي لابد لكل مخلوق منها ونحن قد ولانا الله تبارك وتعالَى من فضله وكرمه وجوده كلمة الاسلام وانتظم بحمد الله للطاعة القاصي والداني والخاص والعام من غير حول منا ولا قوة بل الأمر لله وحده يوتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء بيده مقاليد الأمور كلها جليلها وحقيرها لا يعزب عن عمله شيء منها وقد تلاقَى معنا قنصوكم أنطونيو بطلب منا أن نكون معكم على ما كنتم به مع والدنا رحمه الله من الصلح والمهادنة فأجبناه لذلك المدة أربعة أشهر من شهر تاريخه يأتي إلينا بشادوركم يجدد معنا الصلح والشروط ولا تروا منا إلا الخير إن شاء الله وقد سرحنا لجنسكم ما كنتم توسقونه من الفريشك[2] من ثغورنا الجهادية تطوان وطنجة والعرائش والسلام في منتصف شعبان المبارك عام 1204 (موافق فاتح مايه سنة 1790).

ويلاحظ على هذه الرسالة أن لقب المهدي أصبح يراود اليزيد، وهو

---

(1) كما أثبتت في «رسائل عربية» للدكتور ارياس بالاو

(2) كلمة «الفريشك» اسبانية وهي Fresco أي الطريات كالخضر والفواكه ونحوها

ما لم نره لملوك هذه الدولة بعدما رأيناه للموحدين والسعديين

وهذه أخرَى إليه

من عبد الله أمير المومنين محمد المهدي اليزيد الحسي كان الله له أمين سلطان مراكش وفاس وتافيلالت ودرعة وسوس الأقصَى وسوس الأدنَى وسائر مماليك المغرب إلى عظيم الاسبنيول الراي كارلوس الرابع ملك قشتالة وليون وسائر مماليك اسبانية والهند(1)

أما بعد فإنه ورد علنا كتابكم وعرفنا ما فيه وما أشرتم فيه من بعث كاتب حضرتنا العلية إليكم الفقيه السيد محمد بن عثمان ليتكلم معكم وتراجعوا معه الكلام فيما هو المراد وفيما عسى أن يكون فيه صلاح ووفاق فقد فهمنا ذلك وها نحن بعثناه «أمبشدورننا» (أي سفيرنا) إليكم وفيه الكفاية في المقصود كتب في رابع ربيع الثاني من شهور سنة خمس ومائتين وألف (موافق 11 دجنبر سنة 1790)

وهذه أخرَى كذلك

من عبد الله تعالَى المستعمل ذاته في طاعة مولاه المجاهد في سبيل الله محمد المهدي اليزيد الحسي أمير تارودانت وما فوقها من الثغور والبلدان وأمير مراكش والرباط وما بيهما من الثغور والبلدان وأمير مكناس وفاس وتازَى وغيرها أظله الله تعالَى بحسن ظله وأمده بتوفيقه وهدايته وجعله من خواص أوليائه وعباده إلى عظيم اسبانيا والهند الراي كارلوس الرابع السلام على من اتبع الهدَى

أما بعد فاعلم أننا كتبنا لباشدورنا السيد محمد بن عثمان يعقد معك الصلح والمهادنة وها كتابنا معلم بخطنا وبطابعنا الشريف يصلك لباشدورك الذي توجهه لنا بحيث يأتي في الامان هو من يرد معه ويرجع

(1) يريد البلاد الامريكية التي كانت تعرف بالهند فنسبنا إليها الفاكهة «الهندية» كما نسبنا إليها القصب المامبو. ومن قبل كانت الملكة الانجليزية «اليزابث» تدعو المنصور السعدي إلى فتحها باسمها الهند ومازال سكانها الأصليون يدعون بالهنود الحمر.

إليكم في الامان ولا يرَى منا إلا الخير، بحول الله لاجل ما تحقق عندنا من محبتك في جانبنا كما كانت مع والدنا رحمه الله فعند ذلك رفعنا الحرب عن أهل سبتة ورحلنا عنها وكتبنا لباشدورنا السيد محمد بن عثمان يمضي معكم الصلح والمهادنة والسلام في 5 من صفر الخير عام 1206 (موافق 4 أكتوبر سنة 1791)

فمن هذه الرسالة نفهم أن المولَى اليزيد لم يذهب لمحاربة أخيه وجماعته من الحوزيين، إلا بعدما عقد الصلح مع «كارلوس» الرابع وفك الحصار عن سبتة التي أوشكت أن تسقط في قبضته وله رسائل أخرَى إلى قناصل اسبانيا وحكامها في قادس وغيرها وقد اعتبر لدَى الاسبان بطل التحرير للمدينة الأسيرة لكن الحظ لم يواته وقد أقيم له كما تقدم، تمثال رخامي نصب في الشارع الرئيسي لسبتة[1]

وبعد المولَى اليزيد لم يقع من سلاطين المغرب محاولة جديدة لاسترجاع سبتة بل على العكس جاءت الفرصة التي كنا نستطيع فيها استعادة سبتة ومليلية وغيرها فأحجمنا عن انتهازها تحت تأثير الديبلوماسية الانجليزية التي كانت تتدخل في بعض الشئون تدخلا يستسيغه الجوار من جبل طارق والاحترام المتبادل بيننا وبين الانجليز وهم الذين لم يريدوا أن يخسروه لصالحهم حتَّى في اللحظة الحرجة التي كانوا فيها سيسلمون هدية زواج ملكهم Charles II طنجة[2]

فإنه لما كان عهد نابليون واكتساحه لأوربا، كان الساسة الانجليز

(1) ومن الكتب الاسبانية التي اهتمت بحركته التحريرية كتاب Espania y Los Paises Musulmanes

(2) كان ذلك وقد أحدق بهم الجد والعزم من جانب اسماعيل، رحمه الله، على استردادها فما إن سمعوا دق جرس الخطر، حتَّى أقلعوا عنها، واستعاضوا من مركزهم المفقود على المضيق آخر في «جبل طارق» وعلى عهد اسماعيل نفسه، كما تقدم

وظل اسماعيل بعد على صلة طيبة بهؤلاء الانجليز، كما يتضح ذلك في الرسالة التي وجهها إلى الملك اللاجئ «Charles» نفسه.

يبحثون عن حلفائهم أو الذين يخشون أن يكونوا في جانب نابليون الخصيم العتيد فكان من هؤلاء الأخيرين المغرب في عهد المولَى سليمان الذي واتته الفرصة المذكورة فلم ينتهزها مراعاة للأصدقاء التقليديين ، غالبا وخشية من المصير الخطير ، ربما

لقد كانت تلك الفرصة التي لا تعوض عرض أخي نابليون Joseph Bomaparte الذي أقامه أخوه ملكا لاسبانيا على المولَى سليمان اعادة سبتة ومليلية وغيرها من المحتلات الاسبانية إلى حظيرة الوطن المغربي وجعلها تحت السيادة المغربية القائمة مقابل الاعتراف به ملكا على اسبانيا ولكن السلطان مولاي سليمان رفض هذا العرض ولو كان به تتم السيادة المنتقصة أطرافها بالاحتلال الأجنبي(1)

كان على اسبانيا وقد استردت استقلالها وارتفع عنها كابوس الفرنسيين الثقيل ، أن ترعَى للمغرب موقفه النبيل منها ولكنها ما فعلت بل وجدناها في عهد الملك عبد الرحمن الذي خلف مباشرة المولَى سليمان تتنمر للمغرب بعد انكساره في موقعة ايسلي اللعينة وتوجه إليه الانذارات والتهديدات بسبب ما تدعيه من مضايقات لها على الحدود السبتية التي أقامت بها مراكز عسكرية للمراقبة وما لفظ الملك أنفاسه وجلس ابنه محمد على عرش أبيه ، حتَّى كانت الأساطيل تقل من سبتة نفسها جحافل من الجيوش بمعداتها الثقيلة لتحارب المغرب في عقر داره وتحتل مدينة تطوان سنة 1860 ثم تستمر في طريقها فتخرج من أحد أبواب تطوان ، وتسميه باب فاس أو تسمِّي الشارع الذي يفضي إليه شارع فاس نية منها أنها ستستولي في خروجها هذا على العاصمة فاس نفسها

وجاء دور الحماية الأوروبية ووقعت أقاليم من المغرب تحت حمايتها وانتفض رجال القبائل لرفضها ومحاربة الاسبان القائمين بها فكانت ملاحم عديدة ، توجت بالملحمة الكبرَى التي شملت أهل الجبال والأرياف ،

(1) انظر كتاب «Morocco» لمؤلفه Nevill Barbour وما جاء فيه عن سبتة .

وبعد أربع سنوات من هذه تدخلت فرنسا إلى جانب اسبانيا فكان الاستسلام الذي تلاه اتيان الفونسو الثالث عشر مع زوجته «إيثابيلا» الانجليزية إلى المغرب، ونزوله بتطوان واستعراضه للقوات العسكرية

ثم عاد الملك إلى حدود سبتة حيث كانت السرادقات العديدة تحيط بنزل الملك الذي تريث هناك لاستقبال القناصل ومراسلي الصحف العالمية وكان منهم مراسل انجليزي شهير في الأوساط المغربية ، وهو ووطر هريز Walter Harris مراسل جريدة «التيمس» الكبرَى الذي كان يرافقه في سيارته أحد «الأصدقاء» آنذاك المرحوم محمد الرزيني فكان — كما حكَى لي — هذا المراسل يتهكم على الاسبان وملكهم الذي سيمثل أمامه ولكنه لما عاد بعد هذه المقابلة وهو يحمل هدية الملك إليه ، تحولت اللهجة وانتهر رفيقه في السفر ، لكلمة بدرت منه في حق الاسبان فلم يعجب منه ذلك السيد الرزيني رحمه الله ، وقد رأَى «العلبة» في يدي المراسل الانجليزي النفعي ووجم مهورا مبهورا

وبعد سنة أو سنتين ، احتفل في سبتة بعهد السلام ودعي لهذا الاحتفال رجال أفاضل من المغاربة وعرض على بعضهم أن يلقي قصيدة في تلك المباراة الأدبية التي تقدم لها فئة من الشباب المغاربة بهذه المناسبة كانت أول ما عرفت عنه وآخر ما عرف من شعر ، وافتتحها أمام المنصة التي كانت تعتليها الملكة ايثابيلا كما سمعت ، بقوله

يا رسول السلم حي الناهضين واذع بشراك بين العالمين

والغالب أن قصيدته الفريدة ، نظرت إلى نونية ابن مقانا التي سلف ذكرها

وبهذا ننهي درسنا عن سبتة في هذا التأليف الذي نأمل أن تتاح له فرصة أخرَى لتناول موضوعه أوفَى وأتم

بعض الوثائق الأوربية المتصلة بسبتة (1)

FERNANDO I DE ARAGON
A JUAN I DE PORTUGAL

18 de Octubre de 1415

(A.C.A., Reg. 2.409, fol. 104 v., l. 23)

Al muyt alto princep Don Johan por la gracia de dios Rey de Portogal nuestro muyt caro e muyt amado Tio. Nos Don fferrando por aquella misma gracia Rey daragon de Sicilia de Valencia etc. Salut como a Rey pora quieu querriamos muyta honor e buena-uentura e pora quien deseiamos tanto bien como pora nos mismo Muyt alto Princep nuestro e muyt amado Tio Vuestra letra hauemos redibido sobre la presa feyta por de Cepta de manos e poder de infieles de la qual hauemos hauido muy singular e asenyalado plazer como sea cosa que toca a seruicio de dios e exaltacion de la fe catholica a que todos los christianos en aspecial Reyes e principes son obligados e augmentacion no poca de vuestra honor e fama. E suplicamos a dios que en todas otras cosas concernientes vuestra honor e loable fama vos endrece como querriamos fizies a nos mismos E por tal muy alto princep e muyt amado Tio que somos ciertos ne hauredes plazer vos notif ficamos que ya sea por algunos dias passados seamos stados muy agreugados de nuestra malaltia Empero agora por la gracia de dios e de la virgen Maria somos en milloramiento e conualescencia de nuestra persona Assi mismo la Reyna nuestra cara muller El princep de gerona nuestro caro primogenito e todos los otros fillos e fillas nuestros en la confeccion de las presentes eran en buena disposicion de sus personas. Por que muyt alto princep e muyt amado Tio affectuosamente Vos rogamos que assin de vuestro buen stamiento e de los infantes vuestros fillos como de otras nouidades en special semblantes de la desuso dita nos querades a nuestra consolacion por vuestras letras certificar E si cosas algunas muy alto princep e muy amado Tio vos son plazientes de nuestros Regnos e tierras embiat las no a dezir car nos las compliremos de buena voluntat. E sea en vuestra guarda e proteccion la santa Trinitat. dada en perpenyan dius nuestro seyello secreto a XVIIIe dias de octobre del anyo de la natividad de nuestro senyor Mil CCCCXV E por indisposicion de nuestra persona signada de mano de nuestro primogenito. Alfonsus primogenitus.

---

(1) يلاحظ أنها لا تلتزم أصول الكتابة المعروفة في عصرنا

FERNANDO I DE ARAGON
A ABU SA'ID 'UTMAN DE MARRUECOS

18 de Noviembre de 1415

(A.C.A., Reg. 2.391, fol. 39 v., l. 10

Garcie lopez de Setzedo et aliorum

Don Fernando por la gracia de dios Rey Daragon etc. Al muyt alto princep Buçayde Rey de benamarin, e de ffez nuestro muyt caro e muyt amado hermano amigo ; Salut como a Rey pora quien querriamos honra e muyta buena uentura Muyt alto princep, etc. Segunt nueuament hauemos entendido, vos no considerando la buena amistat, e paç que agora entre vos e Nos, e el Rey de Castiella nuestro muyt caro nieto, e los nuestros suyos, e vuestros vassallos, e diusmesos hauedes maltractado, e molestado o queredes maltractar, e inquietar contra toda razon, e justicia Garcia lopez de Setzedo, Concaluo marino, e Ysabel fferrandez muller de Gonçaluo martinez de rueda, e otros muytos christianos stantes en aquexos vuestros Regnos, e sus bienes por razon de la presa ques dize nue uament hauer feyta el Rey de portugal de la vuestra Ciudat de Cepta de la qual cosa princep muyt caro etc. nos merauellamos muyto. Car bien sabedes que por muytos greuges, e inquietaciones que sean stadas feytas por moros a vassallos, ni diusmesos nuestros, o del dito Rey de castiella, Nos ni el dito Rey de Castiella no hauemos agreuiado ni maltractado los moros qui stan, o son presentes en los nuestros Regnos e tierras, o del dito Rey de Castiella, antes siempre los hauemos preseruado de todo sinistro, e feyto justicia egualment a todos por que como sea todo muyto contra toda justicia e buena razon inquietar e agreuiar los innocentes por los peccadores, o qui han feyto danyo a vos, o en vuestro Regno. Rohamos vos muyt affectuosament que queriendo fazer pllnament justicia a los sobreditos a e todos otros christianos presentes en exos vuestros Regnos e tierras no maltractedes agrauiedes, o molestedes por la dita razon ni en nenguna otra manera ellos e sus bienes antes guardando los e preseruando de todo scandalo, e sinistro los hayades por amor e contemplacion nuestra en sigular recomendacion e fauor E no res menos vos Rogamos affectuosament que querades dar licencia alos sobreditos e especialment ala dita isabell ferrandez con sus crianças delas quales por otras letras nuestras vos hauemos scripto que franchament e quita e sin embargo sen puedan passar e venir contodos sus bienes en estos nuestros Regnos e tierras, o del dito Rey de Castiella Certificando vos que nos ne faredes muyt assenyalado plazer e en su caso e

lugar fariamos semblantes cosas por vos e cosas vuestras E assi mismo vos Rogamos que el portador dela present non sea detenido ni embargado por vos, o vuestros officiales, o diusmesos antes lo lexedes venir con todo lo suyo franchament e quitia e si de nuestros Regnos e tierras muyt alto princep nuestro muyt caro et muyt amado hermano amigo algunas cosas vos son plazientes embiat les nos a dezir car nos las compliremos de buena voluntad Dada en perpinyan dius nuestro siello secreto E por indisposicion de nuestra persona signada de mano de nuestro primogenito a XVIIIe dias de Noviembre enel anyo de la natividad de nuestro senyor M CCCCXV.
Alfonsus primogenitus.

FERNANDO I DE ARANGON
A ABU SA'ID 'UTMAN DE MARRUECOS

26 de Noviembre de 1415

(A.C.A., Reg. 2.391, fol. 45 v. 1. 1)

nonnullorum mercatorum. Regni Aragonis, et castelle.

Don ferrando etc. Al muyt alto princep bucayde Rey de Benamarin e de fez nuestro muyt caro, e muyt amado amigo. Salut como a Rey pora quien querriamos muyta de honor, e de buenauentura ; Segunt por exposicion a nuestra real dignidat nueuament feyta por part delos mercaderes christianos vassallos, e diusmesos nuestros, e del Rey de castiella nuestro muyt caro nieto hauemos entendido que yasea los ditos mercaderes e lurs fazedores confiantes, e hauientes confiança a la buena paç, e amistat qui es entre nos, e el dito Rey de castella, e los nuestros, e suyos vasallos, e vos, e los vuestros vassallos, e diusmesos vayan, e vengan, e sten con sus mercaderias, e bens negociando, e faziendo sus aferes en exos vuestros Regnos, e terras. Empero vuestros almuxefferes alcaydes, e officiales an tomados, e presos grandes quantias de dineros bens, e ropas delos ditos mercaderes, e sus fazedores no precedent alguna justa razon, o causa sino que dizen los ditos vuestros alcaydes, e officiales que lo an de expreso mandamiento e ordenacion vuestra, e lo que peyor es ya sea los ditos mercaderes, e fazedores sean a uos recorridos supplicando vos que les faziessedes tornar lo suyo, e les faziessedes complimento de justicia, empero de vos no an podido hauer alguna justicia o dreyto de que somos muyto, e no sins razon marauellados si assin es car bien sabedes que en alguna manera por nos ni el dito Rey de castiella la dita buena paç e amistat no es stada infringida ni violada ; Por que como seamos ciertos que por las ditas occupaciones, e prendimiento de bens dineros, e ropas los ditos mercaderes, e sus fazdores vienen en grant, e extrema penuria, e pobreza, e vendrian en mayor sino si prouidia prestament. E por esta razon, e por otras nos embiemos aqui el fiel nuestro maestro alfonso portador delas presentes el qual sobre esto faulara con vos mas largament de nuestra part, vos rogamos assin affectuosament como podemos, e por obseruancia dela dita paç, e amitat e deudo de justifia que vista la present alos sobre ditos mercaderes, e sus fazedores tornedes, e fagades tornar las ditas quantias de

←

dineros ropas, e bens, e les fagades breu, e spatxado complimiento de justicia. E no res menos vos rogamos affectuosament quelos ditos mercaderes, e sus fazedores, e todos otros christianos vassallos, e diusmesos nuestros, e del dito Rey de castiella hayades en singular recomendacion, e faour faziendo les breu, e spatxado complimiento de justicia e los agreugedes, o mal tractedes en alguna manera antes se ruando les la forma, e costumbre dela dita paç, e amistat los fauoreyedes delant todos otros mediant justicia Certificantes (fol 46 r.) vos que vltra que faredes lo aque sodes tenido nos ne faredes muyt singular plazer, E en su caso, e lugar fariamos por vos, e vuestros vasallos semblantes, e mayores cosas mayorment pues son consonantes a justicia, e razon. E si de nuestros Regnos e tierras princep muyt caro, e muyt amado amigo algunas cosas vos son plazientes embiat las nos adezir car nos las compliremos de buena voluntat ; Dade en perpenyan dius nuestro seyello secreto. E por indisposicion de nuestra persona signada de mano de nuestro primogenito a XXVI dias de noviembre del anyo de la natividad de nuestro senyor Mil CCCCXV Alfonsus primogenitus.

FERNANDO I DE ARAGON
A JUAN I DE PORTUGAL

17 de Diciembre de 1415

(A.C.A., Reg. 2.391, 58 r., l. 16)

Anthonili vinilaygua

Al muya alto princep don Johan por la gracia de dios Rey de portogal nuestro muyt caro, e muyt amado Tio. Nos don fferrando por aquella mismagracia Rey daragon de sicilia de valencia etc. Salut como a Rey pora querriamos muyta honor vida, e buena ventura, e por quien fariamos todas las cosas que a vos viniessen en plazer. Muyt alto princep nuestro muy caro, e muy amado Tio. Segunt por veridica, e attentica informacion enla nuestra Ciudat de valencia a instancia e requesta de Anthoni biuilayga mercadero vassallo e diusmeso nuestro de la Ciudat de mecina del Regno nuestro de Sicilia por mandamiento del amado nuestro mossen benet scorna justicia en ciuil de la dita Ciudat de valencia. E assi mismo por deposicion de dos testimonios contenida en vna letra de paper signada de mano de scriuano publico somos informados el noble don fferrando nieto vuestro o sus gentes tomaron por fuerca apres dela bienauenturada victoria que vos obtuuieste, e houiestes dela Ciudat de Cepta de poder de moros, tomo por fuerca de poder del dito Anthoni cierta quantia de trigo e le fizo fazer, e fermar con turmentes vna procuracion, en virtud dela qual el dito don fferrando vuo (fol. 58 v.) cierta quantia de doblas de poder del noble mossen phelip boyl, al qual por tal que fuessen bien guardadas las hauia acomandadas el dito Anthoni e, no res menos le son stados feytos algunos greujes asin porel dito don fferrando como por las ditas sus gentes, menacando le que lo matarian si de aquesto se clamaua, delas quales cosas el dito Anthon se clamo delant de vos e por vos fue remetido al vuestro marescal el qual segund se dize judgo, e condempno el dito don fferrando a dar, e restituyr el dito trigo e otras cosas tomadas al dito Anthon lo que nunqua ha podido aconseguir ni hauer princep nuestro muyt caro e muyt amado Tio, como la ditas cosas sean de mal exemplo e contra justicia, vos Rogamos affectuosament e requirimos por deudo de justicia, ala qual no deuedes fallir, fagades tornar, e restituyr al dito Anthon el dito trigo cosas e bienes. En otra manera

←

Certifficantes vos que no podemos fallir a justicia a nuestros vassallos procediriamos ennrensobrellos ditas cosas segund de dreyto, e buena razon trobariamos seyer fazedero. E no resmenos vos Rogamos affectuosament, que prouidades ala seguredat del dito Anthon que nol sia feyto mal nin danyo en su persona, assin porel dito don fferrando como por otras quales quiere personas, e los hayades en su bien spatchamiento de la justicia fauorablement por recomandado assin como nos fariamos a vassallos vuestros en semblantes cosas, e mayores. E si algunas cosas de nuestros Regnos, e tierras muy alto princep nuestro muy caro, e muy amado Tio vos son plazientes embiat las nos a dezir car nos las compliremos de buen corazon E sea en vuestra guarda, e proteccion el santo sperit dada en la villa de perpinyan dius nuestro siello secreto E por indisposicion de nuestra persona signada de mano de nuestro primogenito a XVII dias de deziembre del anyo dela natividad de nuestro senyor M CCCC Quinze. Alfonsus primogenitus.

ثم نجد لذلك أصداء في رسالة لجون طوبا إلى ووطر أسطون هكذا

The letter from John Tuppa to Walter Aston

My honourable and very good Lord,

I, knowing your Lordship's zealous affection and readiness to further anything which may tend to our countryes good and of his Maties subjects, am bould at this present to acquaint your Lordship with my proceeding and with the treaty which I have lately had with the Muccaden of Tetuan ; wherin, if in anything I have excceded the limits of my commission, I hope it will be imputed to my small experience. and not to any bould presumption in perticuler of myself, who wholly relieth on your Lordships favourable censure.

I have formelly acquainted your Lordship with the commission which Sir Robert Mansel left with Mr Carson and myselfe, about the Andalusaes takem by our fleet and now captives in Cadiz : first that I should redeem them head for head by his Majesties subjects captives in Tettuan ; and in case they could not be so redeemed, that, then, we should ransom them for mony, and, with the mony raised by that meanes, we should redeem, as far as the mony would goe, those of our nation captives as before sayd.

For the first, they have denyed, and as it appeareth impossible by reason of theire poverty and that the English are bought by divers, who with their monies have bought them. Secondly the sayd slaves have bin kept at 20 reales «per diem» for the space of fower months and cannot procure from Tettuan any meanes to ransom them. The cause were all people who lived up in the mountaines neere Tettuan, untill a brother of theires cayme from Argir and sought out thease people, who are most of one family and of his kindred, perswading them to sell theire houses, calle and other revenues and to transport theire money, or what goods they hod left, to Argir ; whose advise these poore people followed, and by chaunce there cayme into Tettuan roade a prise taken by the Turks, bound for Argir, wherein they putt themselves as passengers ; and so, being at sea, they were taken by our English fleet, who presently pillaged them of all the goods and mony they had, not leaving behind them in Tettuan goods or any one of theire kindred which can or is able to releeve them or give them any comfort.

whereupon, considering their poverty, the misery of our English captives, and no authority expressed in our commission to sell them, there being in Cales one Mr Thomas Aston, a marchant of London, bound for Tettuan, I resolved to go with him, hoping that, being in the roede totreat with them, I might make som good conclusion about the liberty of these people.

When being arrived there, the muccaden of Tettuan haveing heard of my being aboard, sent mee his siguro and write me a letter, wherein hee tould mee he would conferre with mee about the conclusion of the redeeming the sayd captives and concerning the benefitt of his owne country and the espetiall good of our English marchants. Which haveing well considered, demanded a pledg to be sent aboard till my returne ; the which they performed. And, the next day, I went up to the towne, when, being come before the Muccaden, he sent for the principall of the Andalusaes of the citty, whom, in the presence of his sonnes, were demanded what answer they would give me concerning the busines I cayme about, which was the liberty of people of theire nation, Andalusaes made slaves by the English

armado. They answered that for those people they were nothing to them, nor had eyther frends or Kindred amongst them, yett out of alms they had procured soe much money as would buy out eignt English captives and that was all they would give. I answered them, if I had known theire resolutions to be such, I had spared my paynes to com thither, and of myselfe had no power to doe otherwise then my commission left with mee would permitt. After which, the Muccaden, by nis interpretor, sayd unto mee as followeth

« In the all time of Queen Elizabeths rayne, and many yeeres before. and likewise cince his Majesties coming to crowne, our country of Barbary hath held peace and good correspondency with the English nation, and have endeavored to continue yt so. Until there cayme into this roade an English ship whose captaine or master was called Touching, who, as the custom is of all marchants demanded my seguro for the trade with us but, one a suddain, there coming downe our King, with an army of Alarbs, they beseeged our citty, whereby he was not able to utter any of his goode, and therefone weyghed ankor and sett sayle for som other port. When, descrying a satty coming from Ceuta Point, took hyr and carred hir to Malaga, where he sould both the men and vessel. This satty defend our coast from the bos of Ceuta and Tanger, as likewise to make prise of them if wee could, but never did any wrong to English or any other nation, but to our sayd enimyes with whome we dayly fought.

This wrong being don us, and haveing lost our best deffence at sea, besides the continuall exclamations of theire wives for the losse and slavery of theire husbands, my sonnes, with the cheefe of this towne, did resolve to make slaves of any of the King of Englands subjects which were brought to bee sould, and to lay hands on the first English marchant which should come into this roade. As afterward fell out with one George Friswell, a Scotich man, who cayme heather with a ship and, presuming upon the formen liberty he had receaved in this place, he cayme ashoare without my seguro, and, being in the towne, was made prisoner untill sattisffaction should be a promis from his Majesty of Great Britaynne of punishing the sayd Touching, who hath don the wrong, and who first brake the peace betweene us and the English nation.

Now wee are to consider wee have receaved two Wrongs, the one in what the sayd marchant hath don us, the other in that the English armado hath sould som and made slaves of the rest of poore passengers, who went from this roade for Argir. For the last perticuler, you say you dare nott alter the order left with you by the English general, unless his Majesty, out of England, or the Ambassador for his Majesty at Madrid, doth give you especiall order. Wherefore, out of the desire I have to renew our former frendship with your nation, I will write unto his Majesty's Ambassador at Madrid to give you power and authority to deliver freely and without charge the Andalusaes which you have fett in captivity, in the citty of Ceuta, where in exchange you shall receave eight English likewise that the sayd ambassador shall give mee promis that justice shall be don on the said Touching.

And then, eyther in Ceuta or if you will com overland to Tettuan, you shall receive a writing subscribed with my owne hand, my sonnes and the cady of the citty of Tettuan, that whereas at this present every one hath freedom to buy and make slaves of any of King of England's subjects, from the day of signing of the sayd writing, wee shall command, upon pain of their lives, that none doe buy or sell or make slaves any of the sayd Majesty's subjects, but all those of the sayd nations which are brought hither, excepted those that are now slaves, shall have their liberty to Ceuta or Tanger.

Moreover, if by chance there be any of the King of Great Brittaine's subjects chipps which by pirats should be chast into this roade, or any other

part of our coast within our dominion, and so should be enforced to runne ashoare, theire shipp and goods which they can save, they may freely dispose of as they please ; and, and for theire persons, they should bee free from slavery or inprisonne.

But, if a ship suffer shipwrack by foule weather or carelesnes, that in such a case both ship and goods are forfaited, but theire persons free.

Besides, if there cometh into our roade the King of great Brittain's armado, they shall be treated with all cortesy and shall have free liberty to buy for theire mony any provision of victuale or any other wants which our country may afford them, unles they offer treachery or wrong unto our people

Lastly, that any of his Majesty's marchants may freely trade in any port or roade withen our dominion ; and likewise, if they cannot make a sudden dispatch of theire goods according to their desires, then what goods they will unlade and bring up to our citty of Tettuan, paying the custom, they may there sell them or send them up into the country, to Fez or what other place they shall like of.

Now, you, having heard thease my propositions, you may assure yourselfe that the Ambassador, haveing considered thesr things, will willingly condesend to the delivery of those poore people upon such honourable and good conditions, Wherefore, if you will remayne heere till you have an answeare from the Ambassador, you may, that soe you may be a witnes at the concluding of this busines, which, I greatly desire, may be effected for the good of both nations. »

Thus, haveing given unto your Lordship a full accompt of my proceedings with the Muccaden about the Andalusaes left in my charge, I now beseech your Lordship to give me authority to dispose of them, even as in your wisdom you shall think best, which I will effect with all care and dilligence. And likewise, if soe your Lordship pleaseth, I will vive you an accompt of my charges, which Mr Carson hath been at, both with these people and the Jewes ; of whome, if you shall think fitt, we will receave 500 pieces of eight, and the rest uppon security of som person dwelling in Cales, able and sufficient to discharge the rest of 1000 pieces of eight within the time of six montnes. And soe wee may be free of any farther charge and have monies to pay what allreaddy hath bin disbursed ; and, when your Lordship shall please, I shall give you a perticuler accompt of all.

Soe, humbly craving pardon for troubling your Lordship's serious busineses with these occsions, I rest.

Your Lordship's humble servant

December the 28th 1621 (1) John Duppa.

(3) احدى رسائل جون هارسون الى قائد الاسطول الانجليزى

John Harrison's letter, to the Commandant of the English fleet.

Right Honorable,

I was commanded by Mr Secretarie Morton that, soe soone as I did heare of the fleetes arrivall on this coast, I should dispatch my letters away

(1) De Castries, Tom II. pp. 525 - 530

With all -speed. Not Knowinge, when I came out of England. who was to come chieffe commander in this service, and therefore must entreat pardon if I erre in matter of stile or such other curcumstances. But to come to matter of substance, as touchinge my present imployment from his Matie. whereof I am to give account. it pleased God to send us so faire and prosperous a wind from England. that in nyne daies wee were almost at the Straits mouth, but there met with a levant for a few daies.

The third of june arrived here, in this road of Tettuan, The same night, I sent ashore and writ to the Mocadens of my arrivall with his Maties lettere. The next morning hee sent mee a letter of safe conduct for my coming ashore. where I understood that the old Moccaden was lately dead, Who was living when I was hee, the other time, and writ leters by me to Muley Sidan, willing mee to certify him that hee acknowledged no other King but him (1) (as I have his letter yet to shew). But now his soones, foure in number. equallie governe, and absolutely. Three of them weere sallied out, both with horse and foote (as they usually doe), in service against the Spaniardes of Ceuta and Tanger, one alwayes remayniage to keepe the towne, to whom I went and delivered him his Maties letter, wherof hee was verie glad. After two or thrre daies. the rest retourned, and they all met togeather, and sent for mee, permitting none to bee present, Moore nor jew, but only their secretarie, on of the Moriscoes, their interpreter of the Spanish, by whom they all signified unto mee how welcome I Was, comminge from so great a prince, whose favour and frendship the did soe highly esteme. So did I likewise understand that both Moores and jewes did generally rejoyce, especiallie the Andaluzes or Moriscoes, bunished out of Spaine, whereof in these partes and in Fez are verie manie, having some ynckling alreadie that his Matie had a great armada prepared; and my comminge made them presume it was for these partes and against Spaine.

I told them I had likewise a letter from the King, my master, to Muley Sidan, concerninge the English captives and other occasiones, which I desired to goe to deliver with all speed, and the rather tooke my course this way, for that, when I was heer last, their father writt unto mee (Which letter I showed them) that hee acknowledged Muley Sidan for Kinge, and no other.

They tould mee it was impossible for mee to travell by land, the countrye so troublesome, and the waies so dangerous, one Kinge in Fez, Mulay Abdela Meleck (2), verie young, an other King of Alcazar, Muley Mehamed (3), and Muley Sidan at Marroco ; whom at this present Siddie Haya (4) and Sidda Allie (5) the grat saintes of Suz, seeke to depose and to sett up an other King there and that Muley Sidan hath of late sent for 1000 Moriscoes from Sallie, upon that occasion, which are accounted the best souldiers.

For themselves, they professed unto mee they acknowledged none of these Kings, nor no other Kings but God ; and that both their father and themselves had formerly doone service to Muley Sidan ; but hee had soe ill required thém, and besides shewed himselfe so cruell and tyrannous in his government, that they had reason to stand upon their guard, and meant to maintayne themselves as a free stade, as venice and the Low Countryes,

---

(1) It seems very clearly, how this such acknowledgment was useless.
(2) a brother of Abd Allh, whome he succeded 1623 to 1627.
(3) another, revolted against him 1619, and possessed al-Kasr al-Kabir.
(4) the Morabet of Sus, who formery, assisted Zaydan against Abu Mahalli, and has revolted agains Zaydan.
(5) ben Musa, son of Sidi Hmed Ou Musa («Ou» means «son»).

all alledging that president in respect of the crultie of the Spaniard ; and so, it seemeth, doth the rest of the whole country : the name of a Kinge as odious amongst them as it was, in the tymes past, among the Romanes. Neither have these Kings, any of them, at this present. as it seemeth, any great command, but only titular kings Fez divided, that Andaluzes and the Moores at continuall bickeringes. for the Andaluzes hold fast togither in all places, and, as I said before, they are the best souldiours. Could they bee gathered to gither under one head, they were able to do verie great service.

The Mocadens offered mee freelie,. and of their owne accord, that if it pleased his Matie, or those who have commission under him, to attempt Ceauta, or any other place neare, they would aide him with above 10 000, by land, the English only by sea and to land some small forces and ordinances for batterie they shaould see that they would dye before their faces, to doe the King of England service against the Spaniard ; and that both themselfes, the towne, which is verie populous, and the countrye all aboute, so far as they could commande, was at the Kins of England service, as his owne subjects, desirous to put themselfes under his protection. Only they desired two thinges of me that I would bee a meanes to helpe them to some powder, to doe his Matie service and defend themselfes against their enemies, and some peeces of ordinance thaey have theare, broken and unservicable. to bee carried for England to bee new cast and sent backe ; offeringe all manner of supplies or necessaries this place can effeord, either for his Maties shipes, or otherwise, as was partly desired in his Maties letter.

And thereby also, havinge commission to move further matter. as I should see occasion, and seeinge their forwarding (with a caution beforehand of secrecie, which they promised most faithfully and enjoyned their secretarie lykewise), I asked them. if there were such occasion as perhaps there might bee verie quicklie (but the particular designes I did not know myselfe), whether they would give assistance, as by land they had promised alreadie, that Moriscoes. or others, might bee transparted into some other partes, where they should be verie well entreated.

They tould mee they could not forse any to goe nor leave their towne unmanned and naked, for feare of there enemies, but they would give free leave to all both Moriscoes, Jewes or others, that would goe voluntary ; but if it were by land (as before) against Ceauta, or any other place neere, they would goe themselfes in person, with all the countrie hereaboutes, and forces they could make ; assuringe me they would stand by their wordes, and not promise more than they meant to performe.

And with this good satisfacion I departed, but concludinge beforehand, amongst ourselves, accordinge to that caution I gave at the first for secrecie (Ceauta beinge so neare at hand, and a fryer and some cavalleroes sent from thence hither to redeeme captives), that whosever inquired any tninge concerninge my busines, wee agreed, amongst ourselves to answere (and it was the Mocadens owne motion that wee might all agree in one tale, as the secretarie delivered) that I came lykewise to redeeme captives, and to make peace, and settle trade for merchantes, and to that end, and so blind the eyes of the Spaniard.

Within a few daies after, caused a pregon or proclamation to bee made that noe Englishman heareafter should bee bought or sould, as hearetofore, by the Turkes. or made captives, but freelie trade, as in times past ; and that under a great penaltie. Notwithstandinge, a Portuguez, one of those valleroes, camd divers tymes to visite me, but indeed, as I perceived, to sift me whom I answered accordingly.

alreadie Christians in heart, most of them. who would all flocke thither yea, and the hoores themselves ; so that his Matie could not want supply, both of men and all other provisions this countrie could affoord, from tyme to tyme. And if his Matie had also Gibraltar, might command the Straights ; and the rest of the townes upon the coast of Barbarie, which the Spaniard houldeth, could not longe subsist, for want of corne and other provision, whereof, at this present, they say they stand in verie great neede, yea, in Spaine itself but here, in Barbarie, great store.

But Mamora could I wish also in his Maties handes, for the reasones befoer mentioned, that river going up to Fez ; from whence his Matie might mach annoy the Spaniard by sea ; and would bee a refuge for our ships, upon all occasiones. Salley Muley Sidan holdeth, but 15 myles from Mamore but what command bee hath there, at this present, among the Laries, (1) whose cheife strength consisteth in horee I know not.

I moved, when I first undertooke this imployment, that I might have had the command of some small ship, or other, and first to have touched at Sallie, there to have understood the state of the countrie, knowinge it to bee so variable and subject to alterations ; and, longe before this tyme, could I have dispatched with Muley Sidan. But, not knowinge (as before) how much this place may import the present service, I hope God hath done all for the best.

And some captives come latly from Sallies heere to be sould, and telling mee how hardly both they and other English captives there have bine used, taken by those ships of Sallie under Muley Sidan command (presuminge to come even to the Englich Chanell, and not far off Sallie), there, I say, taken, almost threescore, bound for Newfoundland ; and now, there Mocadens lykewise stand dinge upon such tearmes with Muley Sidan, and havinge so great a command heere, both over the towne and the countrie round about, I thought it my dutie to acquaint lordshipp with all these passages, humblie refferinge all to your Lordshipp with your honorable Councell, to advise furthe what is to be donne, both in respect of his Maties honour, the furtherance of the present service, which God prosper, and the good of his Maties subjectes, both the captives before mentioned and the marchantes who trade both here and elswhere. Which, in my opinion, and under correction, is to hold correspondence with all, so heere as may bee, where there is trade (which is a good excuse and policie for Christian princes) ; to nowrishe these civill wars of Infidels, by Gods speciall providence sent amongst them (otherwise they Would grow too stronge, now especiallie th whole Christian would so dietracted); and to drawe strength from all partes, especiallie those two before mentioned, Ceauta and Mamora, easie to be atchieved (and by the way, as it were), lyinge so conveniently, the one within, the other without the Straights yea, even from the Spaniards themselves.

Had his Matie also Gibraltar, or any other porte heare on that side, one to second another, I doubt not but many, even in Spaine and Portugale, as well as in Barbarie, groaning under that antichristian tyrannie, would fall awaie, or rather flee away (as God commandeth) out of Babylon; to whom therefore my generall letter, or admonition, is directed, and, I hope, upon good warrant, as also the other two, and, as I said berore, without all exception to be taken against any of them, any just exception. And I doubt not but God hath alreadie put into his Maties heart, who is defender of the faith, and other Christian princes, to make good; and for this lykewise I have sufficient warrant that the resolution hold.

(1) Both Mamora and Larache were ocupide by the Spaniards.

But these Moriscoes, continuallie one or other is with mee, desirous to heare of nothinge so much as wares against the Spaniard, and confer with me, and reade in the Spanish Bible I have having alsoe one of their owne amongst themselfes, in pravate, and desirous of moe, as also of Calvin and other bookes of our religion, so many as they can get in Spanish, which I have promised. Yea, both, Moores, Jewes and all, listeninge after nothinge but wares against Spaine, and peace and freindship with England, with generall disposicion and inclination both towardes our nation, and even to Christian religion, havinge observed, and no doubt God hath a finger in it, who ruleth in the heartes of all men and can turne them which way soever he pleaseth, even the heartes of Kings, as Solomon saith, I thought it my dutie, both to God and his Matie, not to spend this tyme of my imployment idlie, all Christendome now up in armes, but to blow the fire alreadie kindled; hopinge, if it please God to second these proceding with that expedition hee hath begune, it may in tyme growe to a great flame, and finallies consume the enemie. Nay, I dare presume upon it, for the mouth of the lord hath spoken it : Babylon shall fall, as it is in the Revelation. «Macte virtute», o noble English I march valiantlie, as in tymes past. Ii is fallen, it is fallen, etc. (1).

And to this end, it came into my minde, And I hope it is from God lykewise, to write two generall letters, in Spanish, the one to the Moores, the other to the jewes, which, so sone as I heard the fleete was upon the coast 2 I gave to the disperse, Andaluzes to and one generall letter or admonition, lykewise, to the Spaniardes themselves and Portugales, all three written in that manner as neither Moore, Tew, nor Spaniard, can take just exception. For the first, I am sure they will not, for they have alreadie accepted and given way to it ; for the other, if they will not be admonished, they are altogither without excuse. Their blood bee upon their owne heads Gods decree and sentence must bee executed, and that with all severitie, as therein may appeare. The copie of which letters I have sent by this bearer, who can further informe your Lordshipp in other particulars too tedious here to write.

But thus much, for the present, of the state of the countrie I thought it my dutie to informe your Lordshipp, and to stay here, till I know your Lordship's further pleasure ; not knowinge how much this place may import the present service, or how it is further intended, from whence the fleete may bee better and soner supplied than from any other parte of Barbarie, or whether perhaps your Lordshipp may consider further of the Mocadens offer.

Concerning the taking of Ceauta, it standeth verie conveniently for all our marchantes ships bound for the Straightes to touch there, and to be supplied with all necessaries, from tyme to tyme, from England ; and, havinge this towne of Tittuan to freind, and all the countrie round aboute, who have promised all assistance, a small garison would mayntaine it. And there might our marchantes land their goodes saffelie and make it a magasine of all commodities, both for the Kingdome of Fez, and other partes, which stand in great wante thereof. and cry out for trade. But which is cheifly and first of all to bee respected, the glorie of God, and plantation of religion in these partes, and of the Christian faith, where of his Matie is cheife defender, beinge put in the ballance, will weigh downe all ; whereof there is a great probabilitie, as may be, both for the Jewes and Moriscoes,

---

(1) Apocalypse, X I V, 8. - It is of Rome and all Catholic, whom John Harrison called enemies, as we have seen in the former general letter.

(2) The English fleet arrived at Cadiz, Ist November, and was defeated 6th November. Cst.

For my goinge to Muley Sidan, with his Maties letters, it must bee by sea, and not by land, as the state of the countrie now standeth. Neither will the Mocadens, by their good willex, permitte me; for they say, if I should miscarie, comminge here under their «horma» or sanctuarie, and from so great a prince, an imputation might be upon them. But, so fare as I could gather, both by their owne speeches and others lykewise, they had no mind at all of my going to Muley Sidan, saying he would promise much, but performe little; but, for themselves, they would be better than their promise, when tyme came.

So that I have remayned hitherto (and do still) in suspence, not knowing (as before) how his Maties service may be farther intended. For, had I gone to Muley Sidan, these Mocadens would have bin verie jealous, and perhaps, for fear of him, have cleaved to the Spaniard. And so we should have had no relieve from this place, the governour of Suta (as a few told me) having alreadie sent into them for a seguro or a protetion, if hee should be put to extremitie, and two cavalleroes lying here only for spyes, and to advertise upon all occasions. But, in the meanetyme, I have written to Muley Sidan of my arrivall here, with his Maties letters, and, upon some generall tearmes formerly passed betwixt him an me, putting him in mind of his former promises, and to know his further pleasure. Yf it be your Lordship's pleasure I goe there, I must first come fairlly off from hence, and goe by sea, with the first levant, in any small vessell I shall be readie, God willing.

And so expecting to know your Lordship's further pleasure, praying God to prosper all your honourable enterprizes to his glorie, and the honour of his Maty and our nation, I rest

Your Lordshipp's humble servant,

John Harrison.

From Tetuan, this 20th of July 1625.

«Post-scriptum» — The Andaluzes here have written to their frends to Sallie and other parts, to prepare them. And one of these Moriscoes left these lynes with me, here inclosed, whereby your Lordshipp may conceive the generall inclination of all, having also some old prophecies of their owne, tending to that effect; which I thought good to seacond, by informing them truly in ours, out of Gods word.

«Con el favor de Dios, los Moros y los yngiezes tomaran a Espania y con los santos y cruces guisaran las comidas y destruyran a Espania; y seran todos ermanos y ayudara Dios a los que sus mandamientos segieren. y Dios sobre todo».

This is the copie of those lynes inclosed in the other letter. (1)

(1) Thus, John Harrison being stayin at Tetuan, used to write to the Commander, of the fleet, Duke of Buckingham ; he sent him a letter, dated 3 November, informing him that he « did latelye send a messenger by land to Sallie..., the gates, both of Ceuta and Tanger, having bin this long tyme kept shutte...». This letter was sent meauwhile the English fleet began to attack Cadiz. When it became defeated, 6 November, and John Harrison being desperate, receiving no news from Sala, he wrote to Charles I. as following:...

Whereas your peticioner hath been four severall tymes imployd by your Maties royall predicessors of famous memorie into Barbarie, and now lately imployd by your Matie for the dispatching of some bussines for the good of your Maties royall fleet, and to take some order for your Maties subjects that are kept heere in captivitie. And for the better performance of the bussines wherin I was imployd, I did send my servandis, as soone as ever I had any newes, but could not heare any newes.

And last of all, when your Maties fleet was at Calls, I sent this my servand with letters of information, I being given to understand that my Lord Deuck of Buckinghame was generall. But, my servand being carried to Italy by a master of London, contrarie to his promise, I could heare no newes.

Therefore, I humblee bessech your Matie to consider both of the paines that I have taken in your Maties service here, and the chairges that I have been at, in sending too and againe. And that your Matie would be dratiouslie pleased to send me means, that I may come home and give your Matie acompt of all passages and kynd offers here. And that your Matie would be gratiouslie pleased to send some releife for those poore men that are in captivitie here, being in nomber 34.

And, as in duty bound, I shall rest ever praying for your Maties prosperus and hapie reigne here and on earth, and lyfe everlasting in the world to come. (end of 1625) Castries, Tom II. PP. 595, 596.

خريطتان تبينان موقع المدينة ومعالمها الاسلامية

سبتـة الاسلاميـة

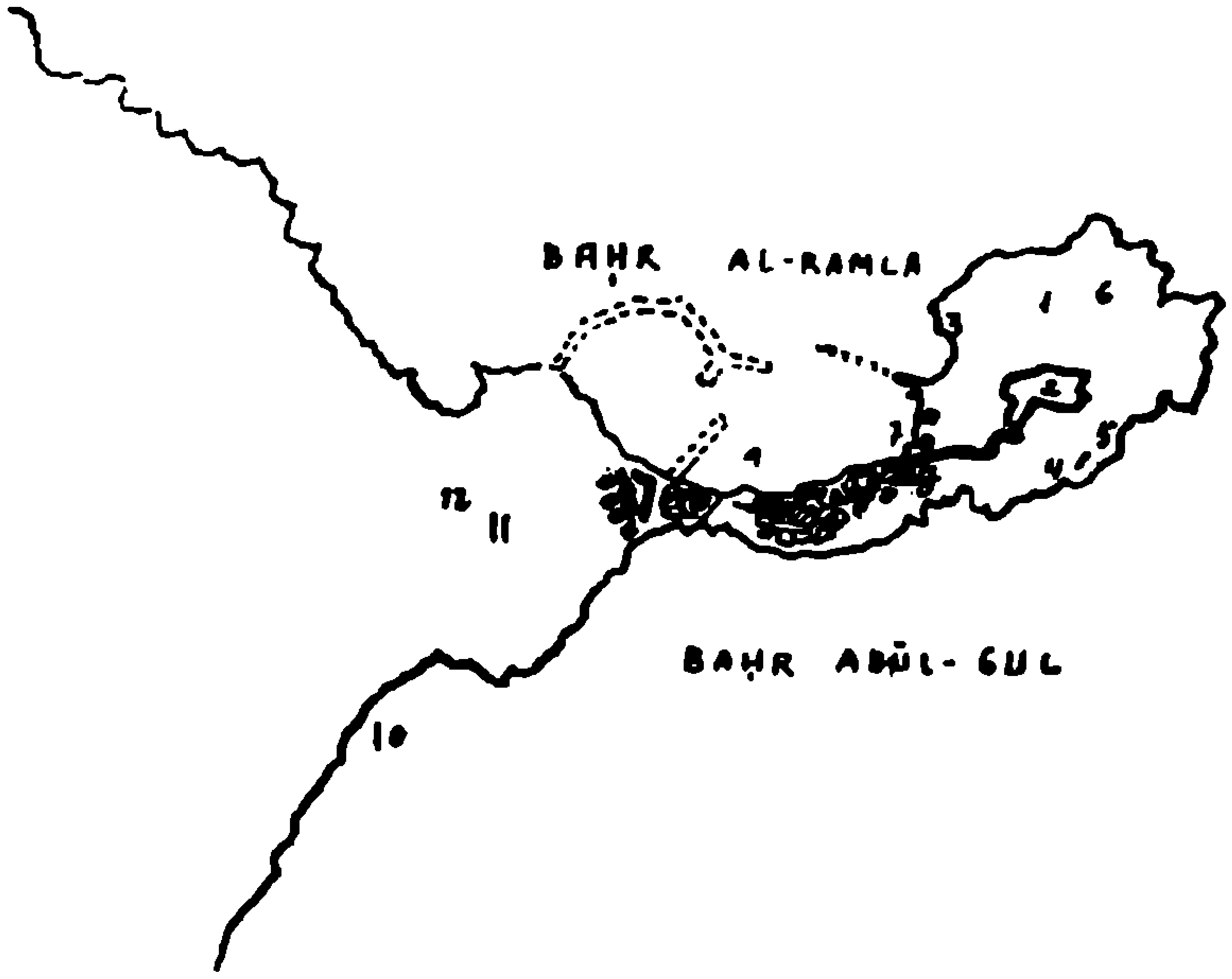

1. al-Nazur o Mirador.
2. Alcazaba.
3. Atarazanas.
4. Ribat Abi-l-Abbas.
5. Masallà
6. Maqbara.
7. Hufrat Mujtar.
8. Arqub.
9. Madrib al-Sabika
10. Madrib Awiyat.
11. Afrag.
12. Bab Fas.

1 الناضـور ـ 2 القصبة ـ 3 دار الصنعـة ـ 4 رباط ابـي العبـاس ـ 5 المصلى ـ 6 المقبرة ـ 7 حفرة المختار ـ 8 عرقـوب ـ 9 مضرب الشبكه ـ 10 مضرب اويات ـ 11 افـراك ـ 12 باب فاس بحـر الرملة (فى الشاطىء الشمالى) بحر ابى السول (فى الشاطىء الجنوبى)

نقلا عـن مجلـة الاندلس المجلـد 27 القسـم ـ سنـة 1962

سبتـة الاسلاميـة

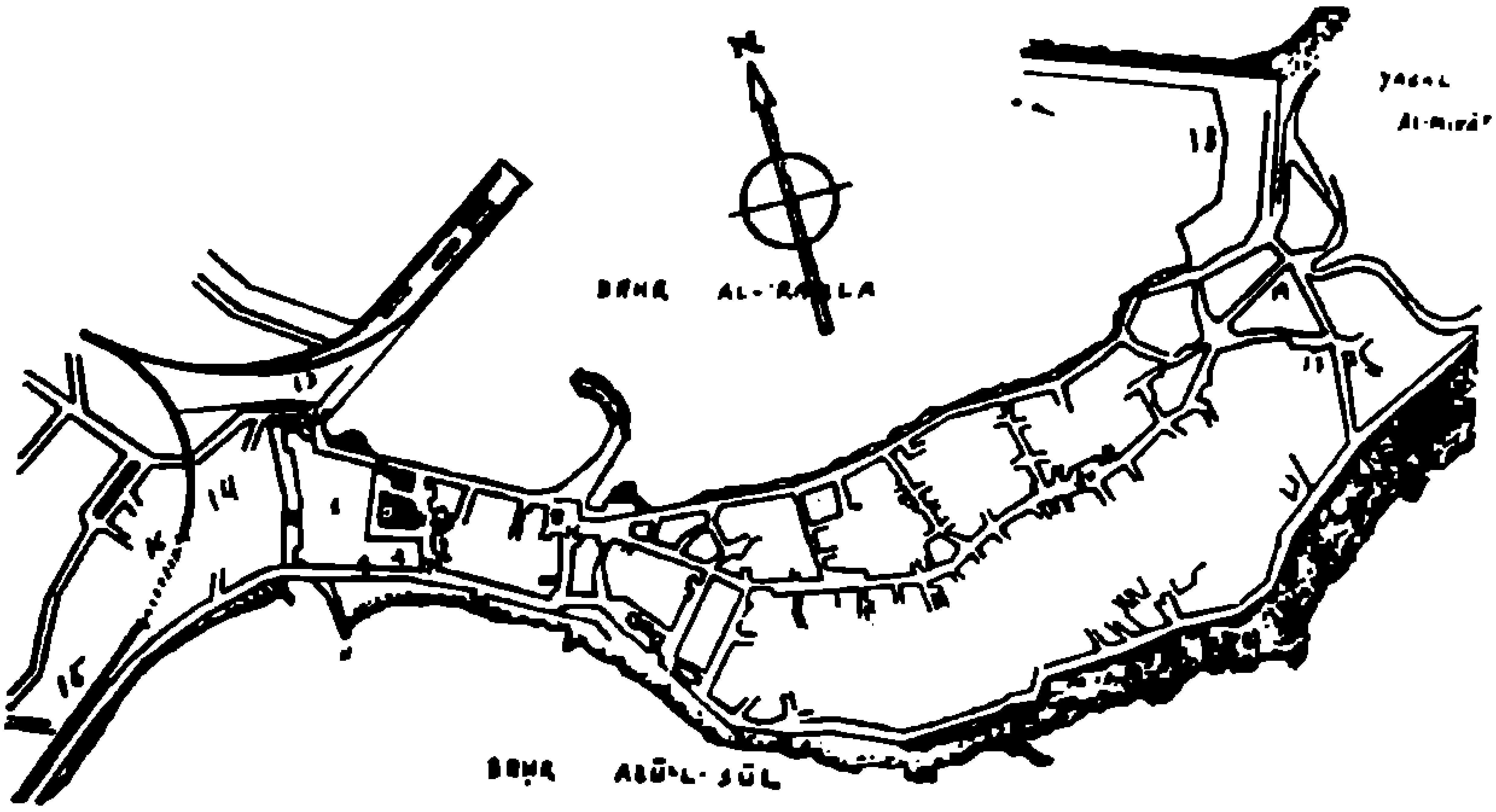

1. Alcazar.
2. Aljama.
3. al-Madrassa al-Yadida.
4. Suq al-Attarin.
5. Masyid.
6. Simat al-Udul.
7. Alcaiceria.
8. al-Bab al-A zam.
9. Bab Zallaqa.
10. Puerta de Albacar.
11. Bury al-Ma
12. Hafir Suhay.
13. Kassabun o Albacar.
14. al-Rabad al Barrani.
15. Hafat al-Guddar.
16. Hafir
17. Masyid y Maqbara
18. Puerto o al-Mina
19. Bab al-Mina
20. Galle Ibn Isa.

1 القصر ـ 2 الجامع ـ 3 المدرسة الجديدة ـ 4 سـوق العطـاريـن ـ
5 المسجد ـ 6 سماط العـدول ـ 7 القيسريـة 8 البـاب الاعظـم ـ
9 باب الزلاقـة ـ 10 باب القصابين ـ 11 بـرج الماء ـ 12 حفير السهاج ـ
13 القصابون ـ 14 الربض البرانـي ـ 15 حافـة الكدار ـ 16 حفيـر ـ
17 مسجد المقبرة ـ 18 الميناء ـ 19 بـاب الميناء ـ 20 زقاق ابن عيسى ـ

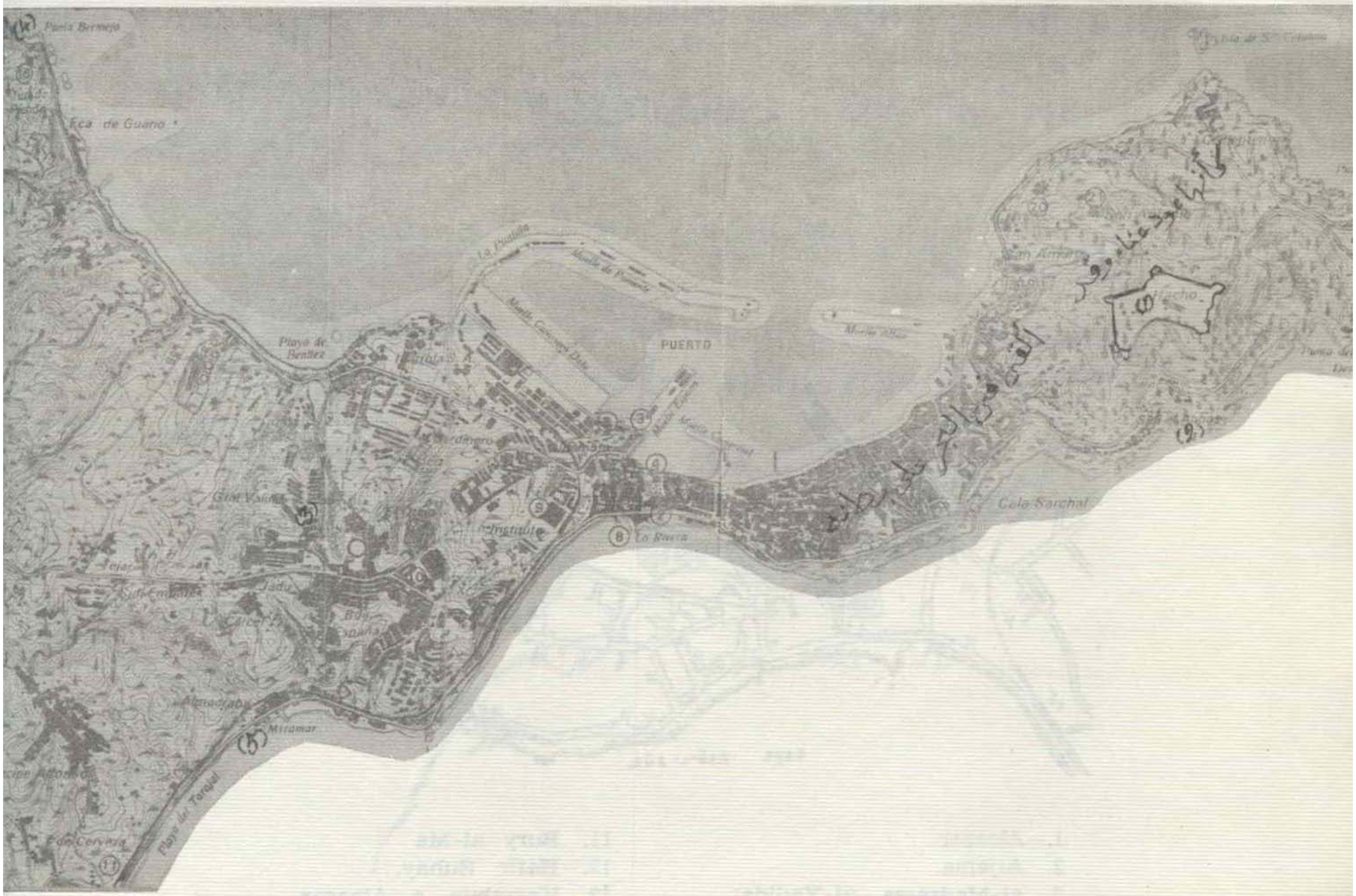

سبتة المعاصرة ، يبدو في أقصَى شرقها جبل المينة .

(1) موقع السور الذي أداره ابن أبي عامر ، على قصبة المدينة التي عزم على نقل سكانها إليها . فمات قبل ذلك أو المحرس المرابطي (الأنصاري)

(2) قبة سيدي أبي العباس السبتي ، وهو مصلى صغير ، أو معبد «خلوة» نسبت إليه وإلى جوارها عين جارية . لا توجد غيرها بسبتة الحالية . وإلى عهد قريب ، كان سنويا تقام «عمارة» هناك ، يحضرها بعض الفرق المتصوفة ، ويقومون بطقوسهم من الذكر والشطح (التحيير) وكانت الطريق إلى هذا الضريح معبَّدة معروفة واضحة للسالكين . ولكن الإسبان منذ ذلك التاريخ ، وخلال ربع قرن من الزمان الذي انتهينا إليه ، صاروا يطمسون ذلك الطريق . فلم يعد أحد يسترعي نظره هذا «المقام» ، الذي ربما كان من ضمن الرباطات الجهادية ، ولا شك في كونه من الآثار العتيقة لسبتة المسلمة ، وإن لم يشر إليه الأنصاري في الروابط والزوايا بكتابه «اختصار الأخبار» (انظر الأنصاري)

(3) موقع الـ«أفْرَك» المريني العناني المحاط بالأسوار العتيدة ، التي بدأ الإسبان يطمسونها ، بإقامة المباني الملاصقة لها بجدرانها .

(4) الساحل الواقع في منحدر جبل القائد الفاتح موسَى بن نصير ، الذي ما زال يحمل اسمه «جبل موسَى» (الاستبصار وغيره)

(5) المضربة وهي إحدَى المضارب التي تتحدث كثيرا عنها المصادر والمراجع الإسلامية العديدة من جغرافية وغيرها كما لابن الخطيب السلماني في مقاماته ثم المقري في أزهاره ، بالاضافة إلى الجغرافيين العديدين والمؤرخين فيما ذكر بصلب الكتاب وأعظمها مضربة أويات كما يذكر الأنصاري (باختصاره) . أما موقع المدينة فهو تماما كما تصوره ابن المرحل في شعره المذكور .

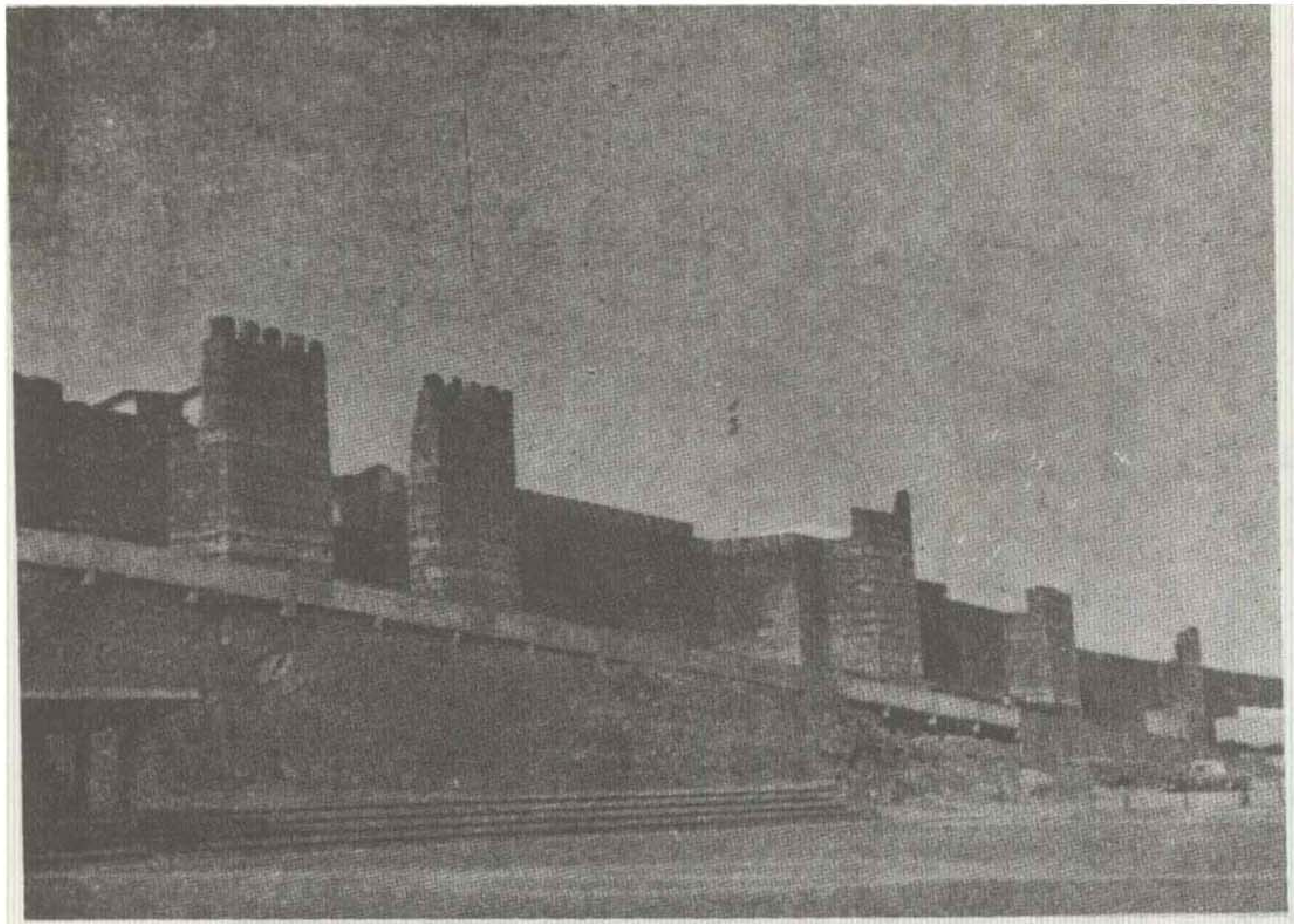

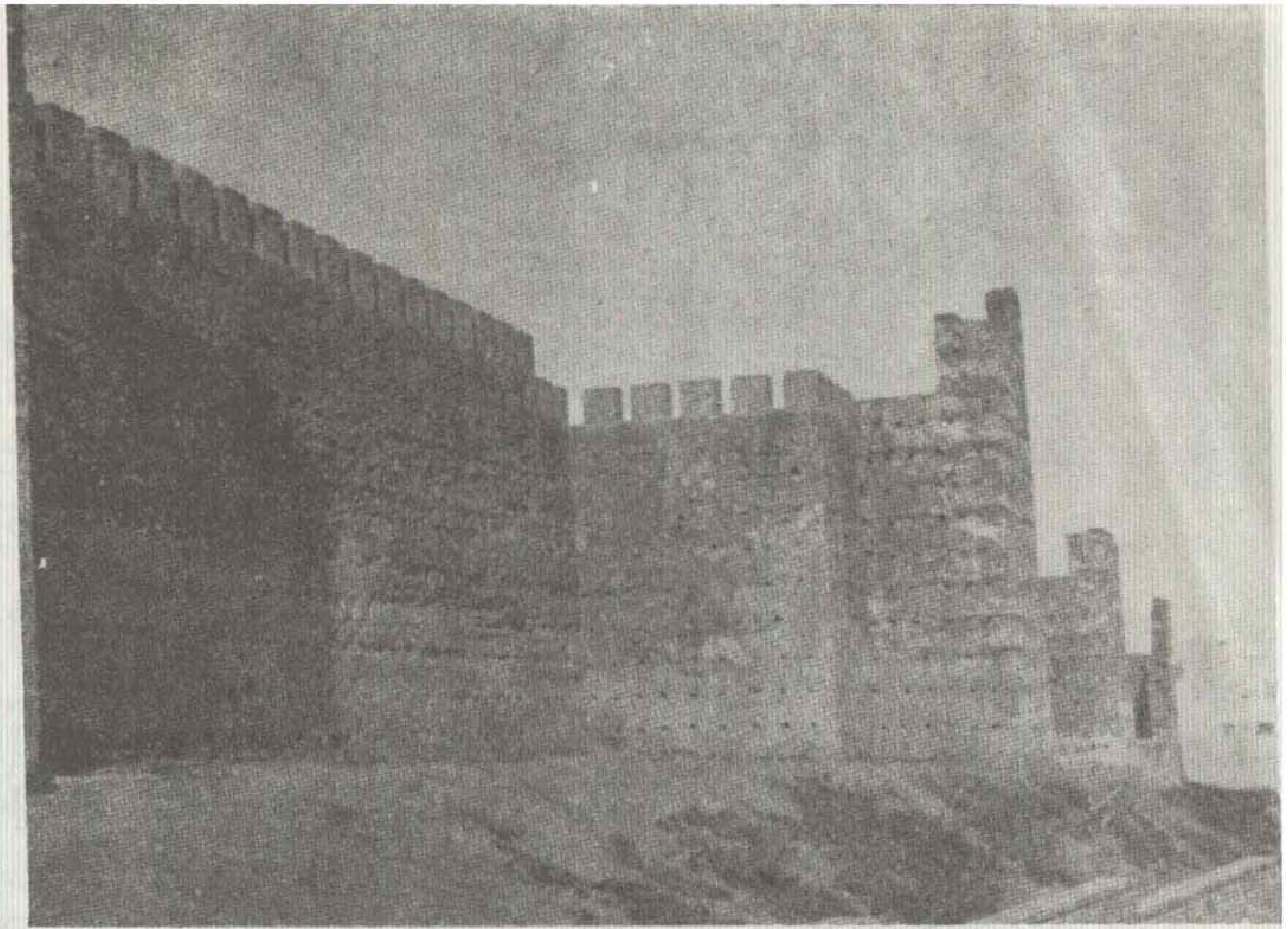

من بقايا الاسوار المغربية لسبتة . وهي تمتد غربا من الحي المعروف باسم «حدو» إلى الطريق الذي يمر بساحل البحر في المكان المعروف باسم «بنتيس» ويساند هذا الجانب من السور مجرَى يسمَى مجرَى فاس ، أو وادي فاس El vallé de Fès

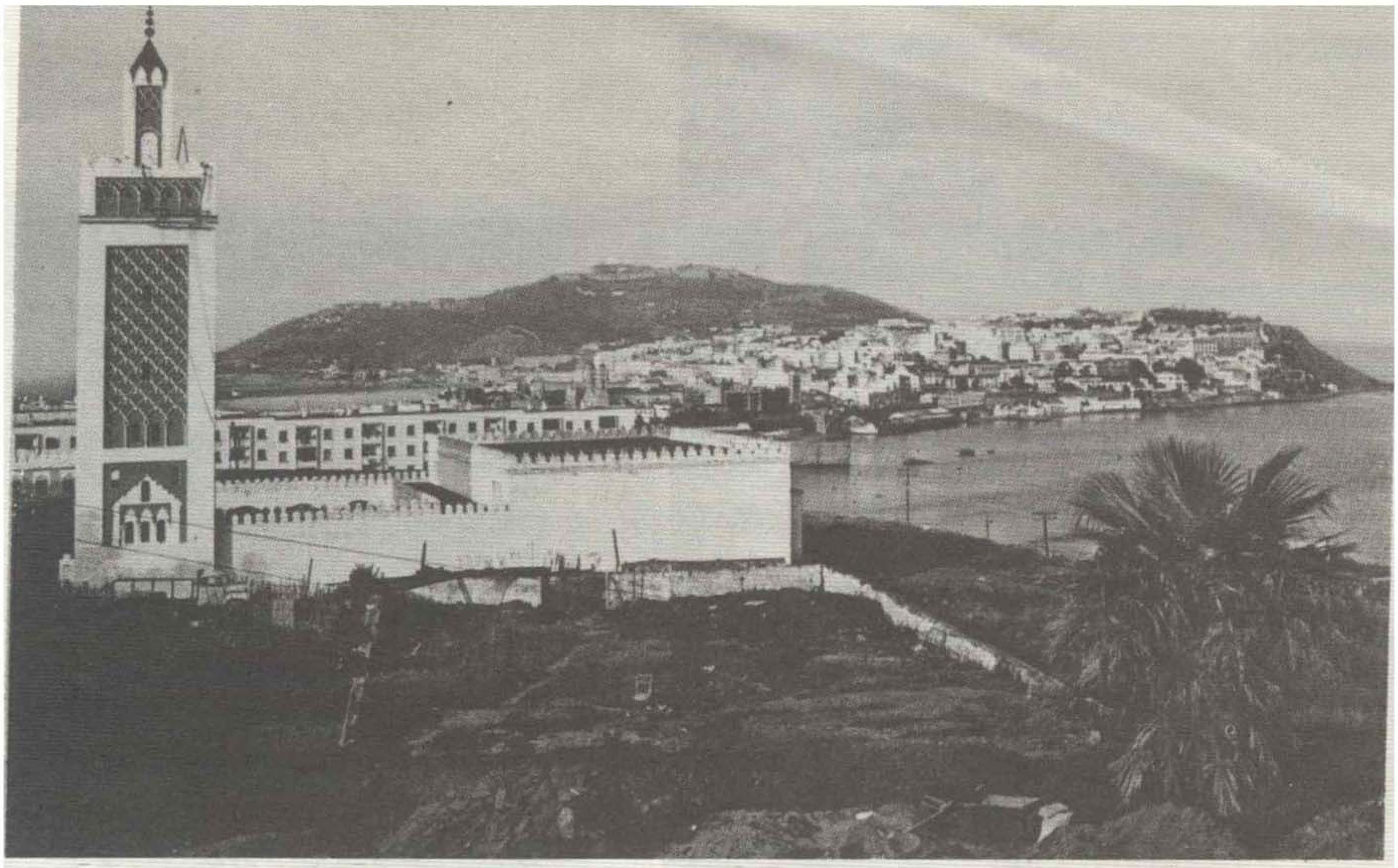

المسجد الذي بناه «فرانكو» أثناء الحرب الأهلية استرضاء للمسلمين السبتيين وغيرهم حيث ساهم بعضهم في خوض هذه الحرب بجانبه وكان اعتماده عليهم عظيما وليس هذا المسجد من بقايا سبتة الاسلامية كما زعم الأستاذ بن منصور في نشره - بعد نشرنا له - كتاب «اختصار الاخبار» للأنصاري السبتي

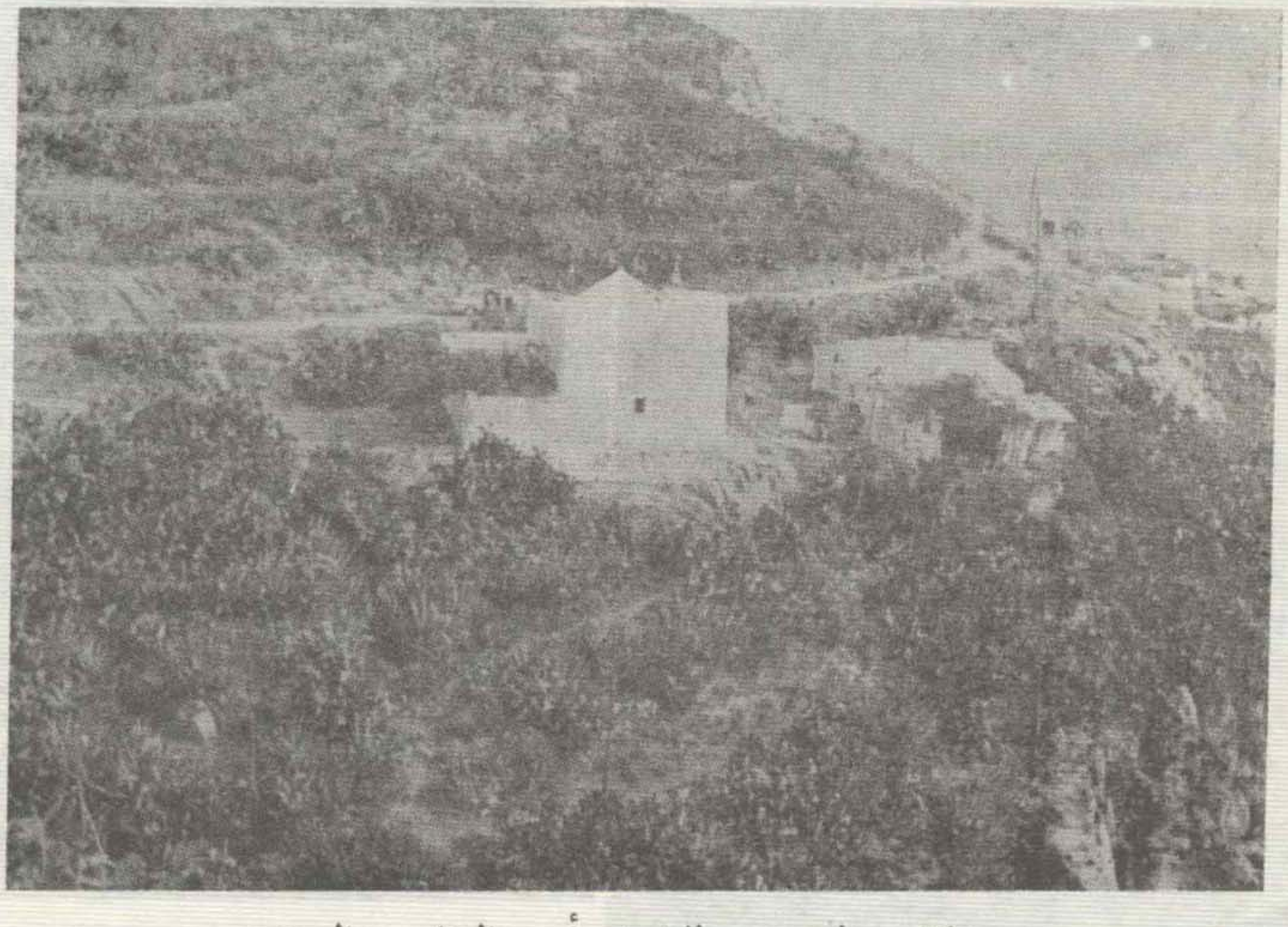

المقام المنسوب للشيخ أبي العباس السبتي

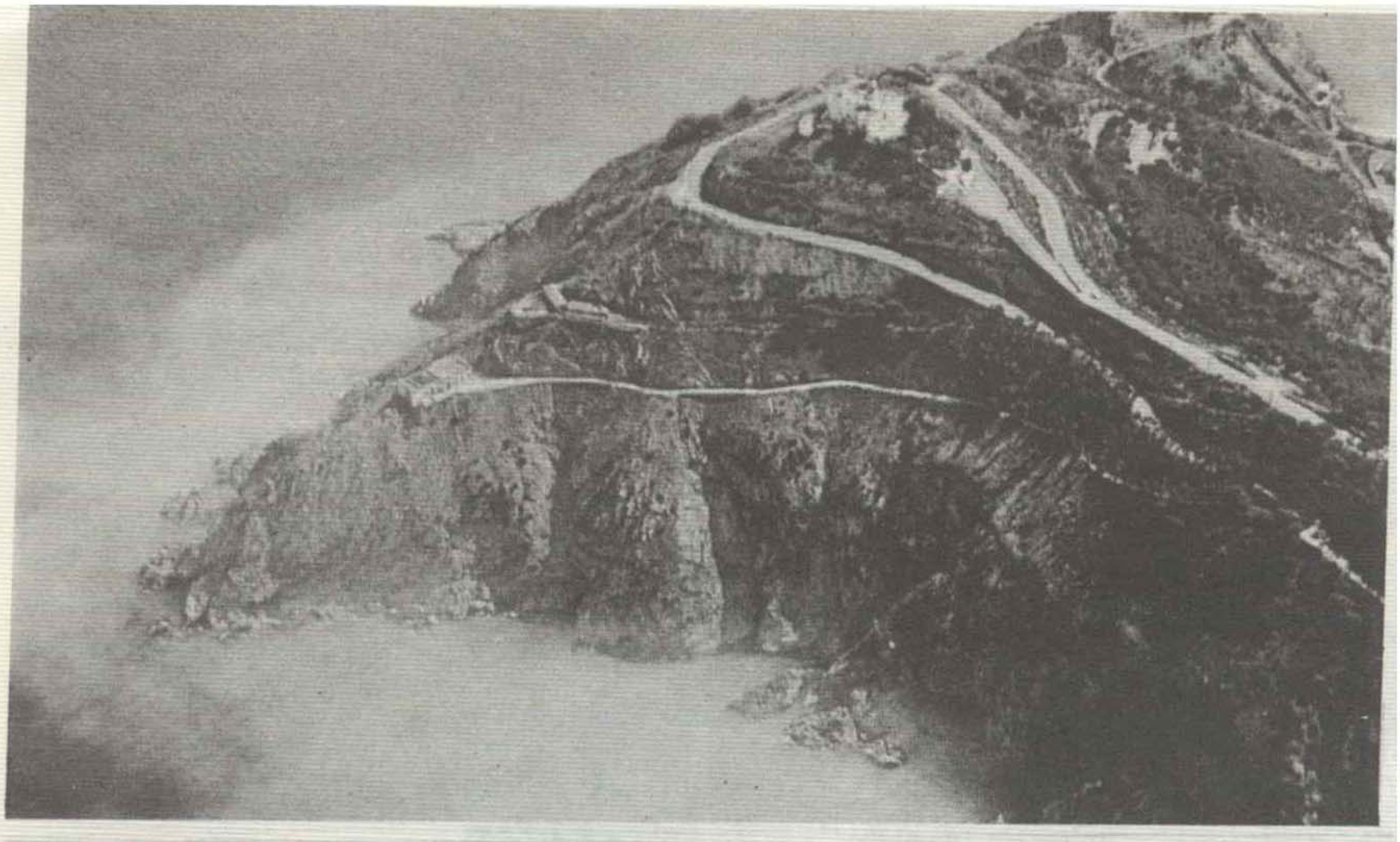

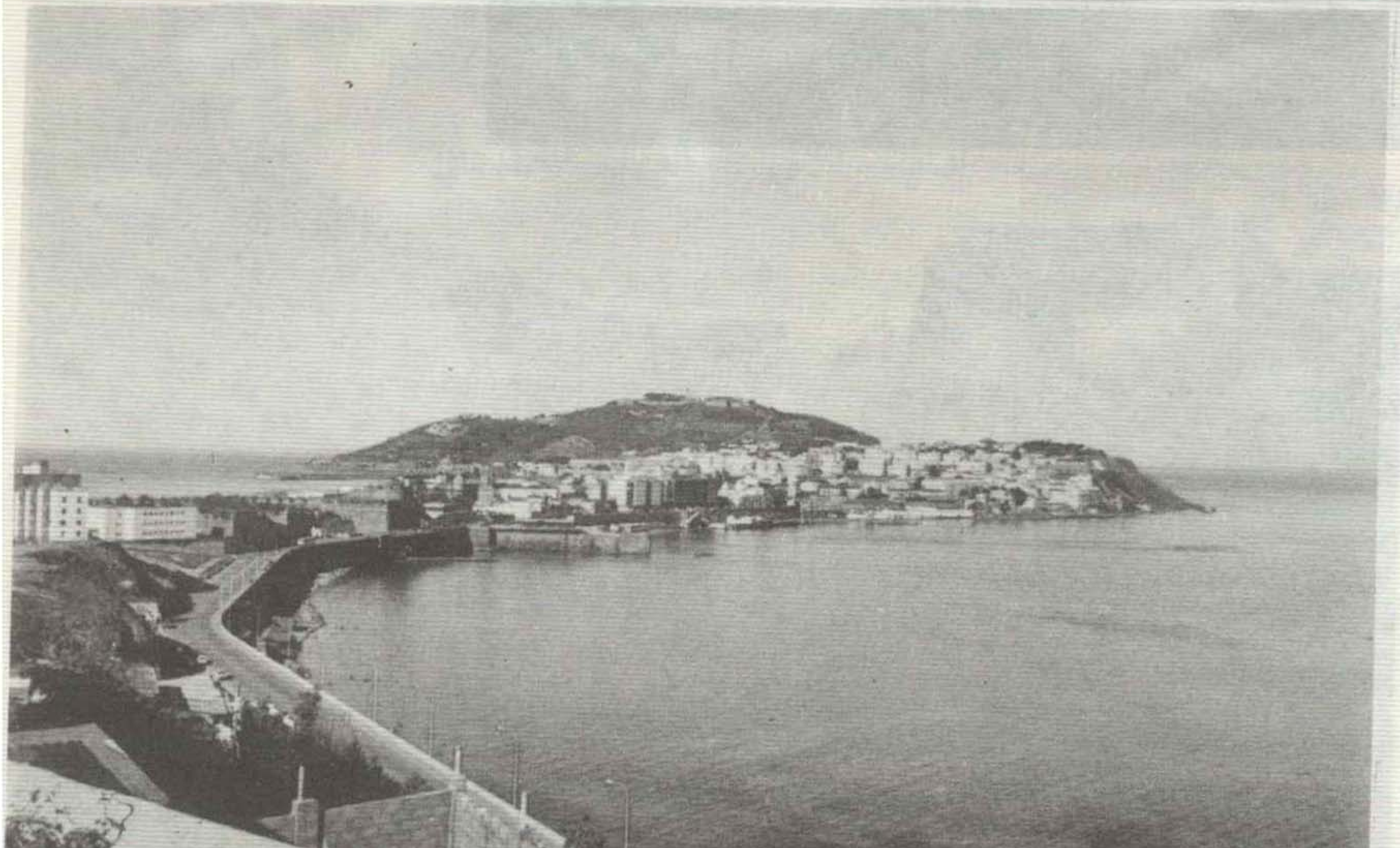

مدينة سبتة والطريق الحالي المفضي إليها من تطوان وهناك طريق آخر يقابله من «بليونش»

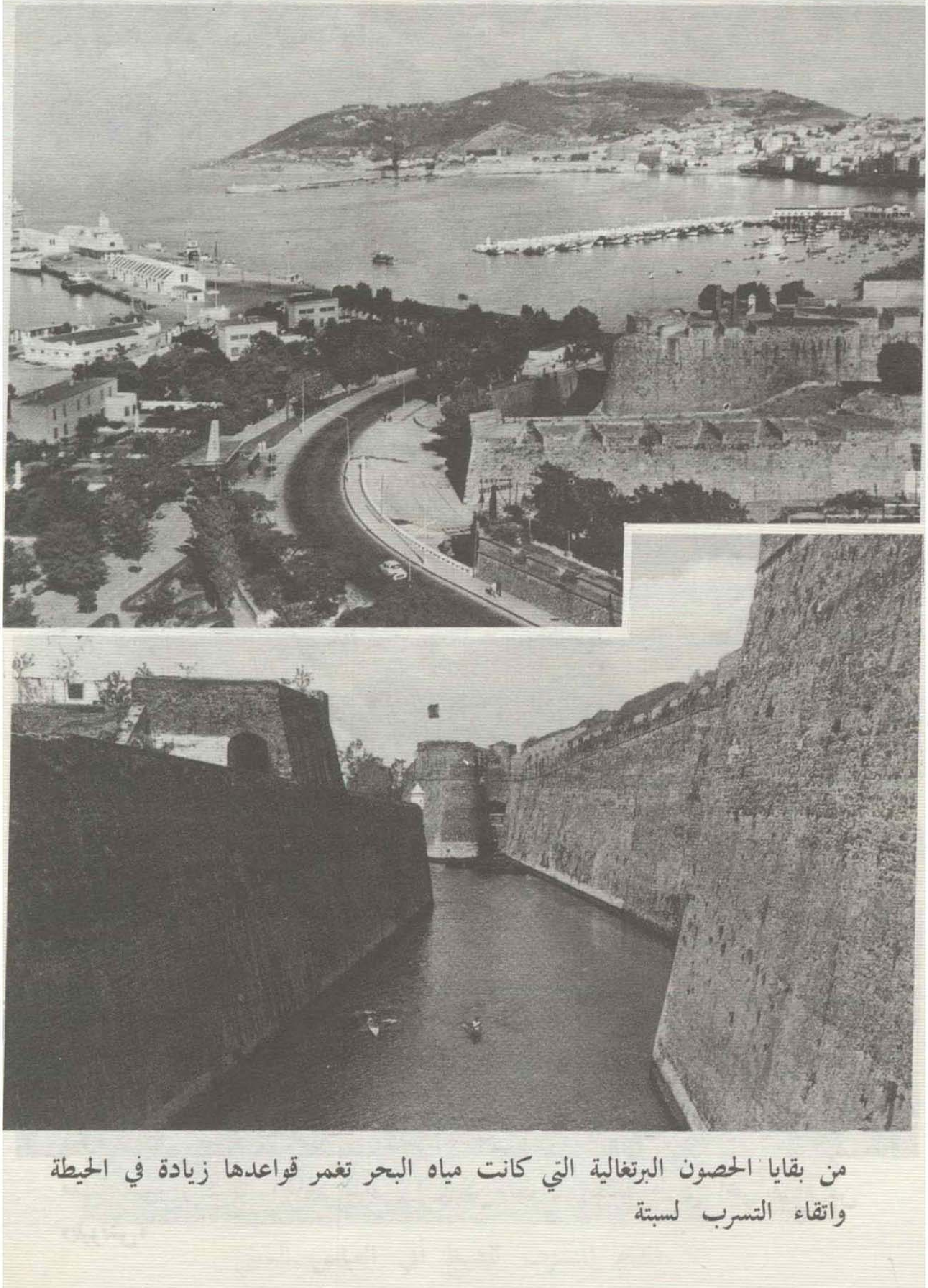

من بقايا الحصون البرتغالية التي كانت مياه البحر تغمر قواعدها زيادة في الحيطة واتقاء التسرب لسبتة

فهرس الموضوعات

من بعيـد. 5

تمهيـد 9

المقدمـة 13

الباب الأول الفتح الاسلامي لسبتة

الفصل الأول قبل امتداد سلطان أمويي الأندلس إليها 17

الفصل الثاني سبتة تحت سلطان الأمويين 22

الباب الثاني العهد الحمودي

الفصل الأول حكم الحموديين بأنفسهم 33

الفصل الثاني سبتة تحت حكم الموالي الحموديين 39

الباب الثالث العهد المرابطي

الفصل الأول عهد يوسف وابنه 49

الفصل الثاني للعهد المرابطي بعدهما 54

الباب الرابع سبتة في العهد الموحدي

الفصل الأول عهد الخلفاء الأربعة الأول 65

الفصل الثاني سبتة بعد الخلفاء الأربعة من الموحدين 76

الباب الخامس سبتة المستقلة

الفصل الأول ما قبل العزفيين 101

الفصل الثاني دولة العزفيين بسبتة وما يليها 110

الباب السادس سبتة في عهد المرينيين

الفصل الأول حكم المرينيين المستقر بها 134

الفصل الثاني ما بعد ذلك إلى سقوطها 144

الباب السابع سبتة في عهد الاحتلال البغيض

الفصل الأول سبتة في عهد الاحتلال البرتغالي 175

الفصل الثاني في عهد الاحتلال الاسباني 185

بعض الوثائق الأوربية المتصلة بسبتة 208

خرائط وصور لسبتة 225

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

دار الثقافة
الدار البيضاء

صدر عن :

روضة التعريف بالحب الشريف 1 – 2	تحقيق د. محمد الكتاني
محمد اقبال مفكرا اسلاميا	د. محمد الكتاني
الخوارج في بلاد المغرب	د. محمود اسماعيل عبد الرازق
سوسيولوجية الفكر الاسلامي 1 – 2	د. محمود اسماعيل عبد الرازق
تأملات في الأدب المعاصر	د. ابراهيم السولامي
كتاب السياسة أو الاشارة في تدبير الامارة للمرادي	تحقيق د. علي سامي النشار
الصراع بين القديم والجديد 1 – 2	د. محمد الكتاني
الأصول : دراسة ابيتسيمولوجية	د. تمام حسان
مناهج البحث في اللغة	د. تمام حسان
اللغة العربية مبناها ومعناها	د. تمام حسان
اللغة العربية بين المعيارية والوصفية	د. تمام حسان
المدخل لدراسة التاريخ والأدب العربيين	د. محمد نجيب البهبيتي
المعلقة العربية الأولى أو عند جذور التاريخ 1 – 2	د. محمد نجيب البهبيتي
تاريخ الشعر العربي	د. محمد نجيب البهبيتي
أبو تمام الطائي	د. محمد نجيب البهبيتي
أحاديث عن الأدب المغربي	العلامة عبد الله كنون
تفسير سور المفصل من القرآن الكريم	العلامة عبد الله كنون
رسائل ابن علي الحسن اليوسي 1 – 2	تحقيق الأستاذة فاطمة خليل
زهر الأكم في الامثال والحكم 1 – 3 لأبي علي الحسن اليوسي	تحقيق د. محمد حجي و د. محمد الأخضر
وقعة وادي المخازن	د. ابراهيم شحاتة حسن
فلسفة بيكون	د. الحبيب الشاروني
تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية	الدكتور لبيب يونان رزق
عالم شاعر الحمراء	الأستاذ عبد الكريم غلاب
الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى 1 – 2	الاستاذ محمد بن تاويت
الأدب السياسي عند عبد الكريم غلاب	الاستاذ أحمد فطري

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

الثمن : 25.00 درهماً

رقم الايداع بالخزانة العامة 425 / 1982